موسوعة

طغاة من التاريخ

الجزء الأول

موسوعة

طغاة من التاريخ

الجزء الأول

رائد قاسم

طغـــاة مـــن التـاريـــخ

الجـــزء الأول

اسم الكاتب: رائد قاسم.

التدقيق اللغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم.

رقم الإيداع: ١٤٠٩٧ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

للنشر والتوزيع

Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

تمهيد

جذور الطغيان في الحياة البشرية

السلطة من بديهيات الحياة والوجود، فهذا الكون العملاق يعتقد التوحيديون بأنه مخلوقٌ من قبل الله عز وجل، الرب والإله والقوة الخارقة الهائلة المدبرة والمسيطرة والحاكمة، ويمثل بذلك السلطة المطلقة. وبعض المذاهب الوثنية تعتقد بأن الكون يدار من قبل مجموعة من الآلهة. والملحدون يعتقدون أنه يدار من قبل الطبيعة، وفي حقيقة الأمر وجوهره فإن الطبيعة وقوانينها، ليست سوى دلائل قوية على وجود ذات مطلقة ليس لها نظير هي الإله في بداية الأمر ونهايته؛ فقوانين الطبيعة ليست سوى ذلك الذكاء المطلق المنظم لكل شئون الكون، فدقة وانتظام كل مكونات الوجود على الأرض أو في الفضاء؛ كدوران الأرض حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، ودوران الكواكب حول نجومها، والقوانين المعروفة والمجهولة على الأرض والفضاء، تدل على كونها وضعت من قبل قوة خارقة عاقلة حاكمة ومسيطرة ويستحيل أن توجد بالصدفة أو أن تسير بمفردها من دون تحكم إرادة عاقلة لا حدود لقدرتها وقوتها، تمثل السلطة العظمى في هذا الكون.

في نهاية الأمر تعتبر السلطة الأساس الأول واللبنة الأولى للنظام الكوني؛ حيث تدير مختلف شئونه ومستوياته، من خلال منظومة دقيقة من السنن والقوانين والنواميس اللا نهائية، وجميعها تمضي بدقة مذهلة، ويعتقد التوحيديون بأن هذه السلطة هي سلطة الله تبارك وتعالى، يمارسها من خلال هذه القوانين والنظم الكونية، قال تعالى: {والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم} (يس ٣٨)، وقوله تبارك وتعالى: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} (يس ٤٠).

جسد الإنسان مثلا، تتمثل السلطة فيه في المخ، الذي يدير ويتحكم في معظم أجهزة الجسم الأساسية، حيث يتكون المخ من ثلاث أجزاء رئيسية هي (الجزء المركزي)، و(الجزء التنظيمي)، و(المخ)، ويقوم بأجزائه الثلاثة بالتحكم في عدد كبير من المهمات: كالتنفس ونبضات القلب وحرارة الجسم والهضم وحفظ التوازن والإدراك والتفكير والعواطف والتذكر والخيال والإبداع، وعند التفصيل فإن الجزء المركزي مسئول عن التوازن الحركي كحركة الأصابع عند الكتابة والأشغال اليدوية والمشي وممارسة الألعاب الحركية، كما إنه مسئول عن الحواس الخمسة والنوم واليقظة والغرائز الفطرية كالطعام والشراب والجنس، أما الجزء التنظيمي فمهمته تنظيم إشباع الغرائز وتنظيم مهام أعضاء الجسم، أما المخ فإن جزءه الأيمن يتحكم بالجزء الأيسر من الجسم، بينما يتحكم جزؤه الأيسر بالجزء الأيمن الجسم، والنصف الأيسر من المخ هو المسئول عن وعي الإنسان وخبرته باللغة والمنطق والرياضيات والعلوم، أما النصف الأيمن من المخ فيعرف الكلمات الشائعة المختصرة المحددة النطاق مثل (نعم، لا، ممكن... إلخ)، وقد اكتشف العلماء أن الشخص إذا ما فقد البصر فإن الفص الذي يحلل الضوء في الدماغ يغير وظيفته ليشغل حواسا أخرى، وإذا ما أصابته سكتة دماغية في المنطقة المسئولة عن تحريك الذراع الأيمن، فإن منطقة أخرى في المخ قد تتولى أمر تلك الوظيفة.

في عالم الحيوان أمثلة عديدة منها مثلا الحياة الاجتماعية لقطيع الذئاب، فالعائلة الذئبية تتألف من ذكر مسيطر وحاكم و أنثى وصغار تابعة، ومن قوانين قطيع الذئاب قتل أي ذئب يتصرف بطريقة غريبة كالجراء المصابة بالصرع أو البالغ المصاب بطلق ناري، وتستخدم الذئاب العواء والروائح المميزة لإبعاد قطعانها عن بعضها البعض؛ حتى لا يحدث عراك

بينها، ومثل هذه القوانين لا يمكن وجودها إلا من خلال وجود ذئاب حاكمة تمارس إرادتها على بقية أفراد القطيع.

في عالم النمل مثلا اكتشف العلماء أن بعض أنواع النمل تعيش مع عبيد لها، حيث تجبرهم على جمع العلف اللازم للغذاء، وتأكل معاً، وتربط مصيرها به، فإن ماتت ماتت معها، وقام بعض العلماء بمراقبة بعض فصائل النمل فوجدوه يقسم نفسه إلى فرق، منها فرقة مكلفة بحماية الفرق الأخرى، وفرق تعتني بصغار النمل، وتقوم هذه الفرق بتبادل المهام بين بعضها البعض كل عدة أسابيع.

وفي عالم النحل تتجسد ممارسة السلطة في أبهر معانيها من خلال مجموعة من القوانين الحاكمة والمسيطرة، منها إن دخول النحلات المرشحات لتبوؤ منصب ملكة النحل في معارك حتى الموت ضد بعضها البعض، فقانون النحل الأبدي يمنع وجود أكثر من ملكة واحدة لكل خلية.

وعندما تستفرد ملكة النحل بالسلطة ويأتي موسم تلقيح بويضاتها، فإنها تقوم بمغادرة الخلية وتحلق فوقها من عدة جهات؛ حتى لا تخطئ طريق العودة، ثم تقوم ببث عطرها الملكي الجذاب والمثير وترسل أنغاما رنانة مغرية، وتبدأ بالطيران مرة أخرى، فيطير نحوها عشرات الذكور لفترات طويلة من الطيران، يهلك خلالها معظمهم ليظفر بها أقوى الذكور ليلقحها، وما أن ينهي مهمته حتى يكون قد استنفد قواه وأزفت حياته على النهاية، حيث يفقد عضو الذكورة ومعه جزءا من أحشائه لينزف حتى الموت، أما في الخلية فإن العاملات يبدأن بتجهيز عيون شمعية جديدة استعدادا لوضع البويضات الملقحة فيها.

إن كافة هذه القوانين سواء في عالم الإنسان أم الحيوان أم الهوام، ليست سوى تعبير عن السلطة التي تمارس في هذه العوالم، لكي تستمر كعوالم وإلا فإنها تفنى وتصبح عدما.

وعودة إلى الكائن البشري، فإن السلطة في حياته تبرز بشكل مبدئي وبسيط من خلال سلطته على نفسه، وتصل إلى حد قدرته تعطيل جسده وإنهاء حياته.

في الأسرة يمارس الأب عادة السلطة العليا باعتباره العنصر الأقوى وصاحب الكاريزما، والسلطة بطبيعة الحال وبديهيته مهمة جدا في مؤسسة الأسرة، ولا يمكن تسيير شئونها وبالتالي استمراريتها كنواة للمجتمع إلا من خلال قوانين و أنظمة تفرض من خلالها السلطة التي يمارسها الأب والأم على أبنائهما.

في المؤسسات الاصطناعية البشرية كالمدارس والمستشفيات وبيئات الإنتاج والخدمات العامة والخاصة تبرز السلطة كقوة قانونية ونظامية لا بد من ممارستها لتطبيق القوانين المنظمة لها، وتعتمد استمراريتها وجودة خدماتها على حداثة القوانين وتطورها ومهارة تطبيقها وتنفيذها.

إن السلطة عنصر جوهري في العلاقات الإنسانية والكونية، وهي علاقة نفعية يقوم بها الجميع بتسلسل، فقد أظهرت الدراسات السيكولوجية أن هناك التزاما فطريا وطبيعيا لدى الأفراد للتنازل عن سلطاتهم لصالح سلطة مركزية يمارسها أفراد آخرون، من أجل الحصول على منافع لا يمكن أن يحصلوا عليها بأنفسهم، من ناحية أخرى فإن الأفراد الضعفاء لا يمكنهم فعليا ممارسة السلطة واسعة النطاق ولا بد لهم من الخضوع إلى سلطة أخرى أقوى يدينون لها بالولاء والطاعة والاحترام، في إطار قانون عرفي محدد، فالزوجة والأطفال يدينون بالولاء للأب، الذي يمارس سلطته في

نطاق مؤسسة الأسرة، ويحظون بالمقابل بالرعاية والاهتمام والعطف، وتبرز مشروعية ممارس السلطة في نهاية الأمر من خلال القيام بحفظ مصالح الآخرين؛ فسلطة الأب تمارس لصالح الزوجة والأبناء، وسلطة المدير في المنشاة لصالح الموظفين والمستفيدين.

من ناحية أخرى إذا مارس الجميع السلطة من دون تنظيم فإن ذلك سيفضي دون شك للفوضى والدمار، فلا بد من إيجاد تنظيم لممارستها، وقد أوجد الخالق تبارك وتعالى هذا التنظيم فطريا في حياة الإنسان وبقية الكائنات الحية الأخرى.

ففي المجتمع اليوناني القديم تناول أرسطو موضوع الدولة المدنية، حيث أشار إلى أن شرعية سلطة الدولة في قيامها بمصلحة المجتمع، وأن مشروعية سلطة السيد لا بد أن تجسد مصلحة العبد، وأن السلطة تلغي بعض حقوق الفرد والمجتمع لصالح مؤسسة السلطة وهي الدولة، مقابل ما تؤديه من تنظيم لحياة كلا من الفرد والمجتمع، علاوة على خدماتها الأمنية والاقتصادية، وهي مهام وواجبات من الصعب على الفرد والمجتمع أداؤها.

بطبيعة الحال فإن الكائن البشري يتميز عن غيره من الكائنات الحية بالقدرة على التفكير، من خلال قدرة دماغه على التحليل والابتكار، وهو ما يعرف إجمالا بامتلاكه للعقل.

لذا فإنه ككائن عاقل ومفكر ومدرك يمتلك ذاتًا مليئة بالمشاعر والأحاسيس والغرائز والنزعات والصفات والمواهب، التي تجعله متفوقا على غيره من الكائنات الحية، ومتميزا منذ نشأته بالتطور في مختلف جوانب حياته، ولديه رغبة فطرية في المعرفة والسيطرة على غيره من الكائنات والمخلوقات، ويمتلك إمكانية التفاعل الإيجابي مع ما يحيط به، وعنده ملكة سبر مبهمات وأغوار الكون وتسخير بعضها لصالحه.

من هذا المنطلق فإن الإنسان عاش في بدايته في نطاق الأسرة، ومارس السلطة منذ نشأته من خلالها، ثم من خلال التشكيلات التي نتجت عن تقدمه الإنساني والحضاري، من خلال استثماره لإمكانياته العقلية وقدرته الفذة على تطوير أنماط وأساليب حياته، فبعد الأسرة ظهرت القبيلة، كنتيجة لتزاوج وتآلف وتحالف الأسر، وباجتماع القبائل تشكلت الشعوب، وباجتماع الشعوب تكونت الأمم.

يقول الدكتور عصام سليمان في كتابه *مدخل إلى علم السياسية* بأن مفهوم السلطة: (هي القدرة الشرعية، أي القدرة التي يعترف بشرعيتها الأشخاص الخاضعين لها).

أما "ماكس وبير" فيعرف السلطة بأنها: (القدرة التي تمكن شخص أو عدد من الأشخاص على تحقيق إرادتهم الخاصة في عمل مشترك وبالتغلب على مقاومة الأشخاص الآخرين المشاركين في هذا العمل).

فالسلطة إذن قوة قهرية فطرية تظهر في العلاقات الإنسانية بشكل طبيعي، ولا يمكن أن يستقيم ناموس المجتمع البشري إلا بها، لأنها جزء من تركيبته وعناصره الأساسية.

ومن هذا المنطلق يقول عنها "ابر ترا دي جو فينيل": (إنها جوهر القدرة علي الأمر وإنها قائمة بذاتها ولذاتها وهي موجودة هكذا في مختلف مراحل التاريخ).

ويقول "جورج بيردو": إن السلطة (هي قوة منظمة لحياة المجتمع، والسلطة السياسية هي إدارة المجتمع المدني بكامله عندما تدير بقية السلطات شؤون المجتمعات الخاصة الأخرى).

إذن فالسلطة في ماهيتها ذات منشأ فطري طبيعي تلقائي في الحياة البشرية خاصة وفي الكون عامة، إلا أن بروز النزعات الاستبدادية وميول

الإنسان الفطرية نحو التملك والحصول على القوة حولت السلطة إلى جزء من مشكلة إنسانية عويصة وشائكة ألا وهي "الطغيان" وحولت شكل السلطة وطبيعتها من وسيلة للإدارة والتنظيم إلى فرض للإرادة والقوة القهرية.

وعلى مر آلاف السنين لم يتمكن الفكر السياسي من تقييد وتنظيم السلطة، خاصة في ظل تنوع المجتمع وتعدده واختلاف صفاته وطباع أفراده، وانعكاس صفات وطباع ممارسي السلطة على أنظمتها وأعرافها؛ مما أدّى إلى إنتاج أشكال مختلفة من الطغيان والاستبداد والديكتاتورية على مر العصور وفي مختلف الحضارات، حتى أكثرها ديمقراطية وليبرالية كالحضارة اليونانية التي تعتبر أولى الديمقراطيات في العالم.

ومن هذه الحقيقة التاريخية فقد ظهر المذهب الفوضوي الذي يعتقد أتباعه بأن السلطة وأهم مؤسساتها ألا وهي الدولة تصادر كافة أشكال الحريات الطبيعية للإنسان وأنهما شكلان لكيان قائم بذاته ألا وهو الطغيان، وأن الحرية كيانها الطبيعي هو الإنسان وسلطته على ذاته، ولا يمكن أن يكون للحرية مؤسسة تديرها، والإنسان ليس بحاجة لتنظيم وإدارة يمارسهما من خلال السلطة ومؤسستها الدولة، يقول المفكر الفوضوي "ماكس ستيرز": (أنا والدولة أعداء فكل دولة طغيان وليس للدولة سوى هدف واحد، هو تحديد الفرد وتكبيله لتحل مكانه وهي تسعى بواسطة الرقابة والبوليس إلى وضع العراقيل في طريق كل نشاط حر، وتعتبر هذا القمع واجبا لأن غريزة البقاء عندها قد فرضته عليها).

مثل هذه الآراء لا تنسجم مع المسيرة التاريخية للحضارة البشرية وإن كانت صحيحة في وصفها لواقع الدولة منذ نشأتها وحتى يومنا هذا، فالسلطة حتمية بشرية وضرورة لا محيص عنها لديمومة استقرار حياة

المجتمعات الإنسانية، ومن خلال الدولة وسلطات الأسرة والمجتمع تمارس هذه السلطة، بما يؤدي إلى استقرار حياة المجتمع وتمكنه من استثمار حياته وفقا للمعطيات التي تحيط به.

لقد وصف "ماكس ستيرز" الدولة بأنها عبارة عن كيان طاغٍ تطغى على حقوق الفرد والمجتمع، وهذه حقيقة نسبية من الناحية التاريخية، فسلطة الدولة إذا ما صهرت المجتمع وحولته إلى كتلة واحدة غير متنوعة وغير متجانسة وتعاملت معه على أنه كيان حديدي يجب أن يكون كالقطيع في نظامه وأسلوبه وثقافته، فإنها بذلك تصبح فعلا وو اقعا دولة طغيان والحياة فيها رعب حقيقي، إلا أنه من ناحية أخرى لا محيض عن وجود الدولة أو أي كيان آخر تمارس من خلاله السلطة، وإلا فإن حياة المجتمع ستنقلب إلى الفوضى والتناحر، وذلك لعدم خضوعه لسلطة تنظم حياته، مما سيؤدي إلى قيام أفراده وفئاته بهذه المهمة، الأمر الذي سيؤدي إلى التضارب والتشاحن والصراع، وهذا أمر بديهي لا يكاد يناقش فيه، حتى إنه ملموس وواضح أشد الوضوح حتى في الكيانات الغير بشرية، بل وفي سائر حقول الحياة، وإن واجب الإنسانية أن تبحث عن نظام لإدارة السلطة يضمن الحقوق والحريات التي يتفق عليها المجتمع، وليس بالقضاء على السلطة كمؤسسة وتحويلها إلى نزعة فطرية غير متطورة.

لقد ظلت الدولة الكيان الأكبر والأبرز الذي مارس فيه الإنسان سلطته منذ نشأته على وجه الأرض وحتى يومنا هذا، وذلك لكونها المؤسسة السلطوية التي احتضنت كافة السلطات المحدودة الأخرى التي مارسها الإنسان كسلطة الأسرة والقبيلة والمجتمع، علاوة على السلطات الدينية والاقتصادية والثقافية، بما تضمه من منشئات ومؤسسات مختلفة ومتعددة، إذ تعتبر الدولة الجزء الأكبر والأهم والأخطر من مؤسسات الأنظمة

المركزية التي تنظم الحياة البشرية، فمع تطور المجتمع الإنساني برزت له حاجات واحتياجات عديدة ومتعددة، أهمها في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والروحية، وعلى مر الزمان تكونت قوانين وأنظمة وتشريعات وأعراف وعادات تنظم هذه الجوانب وتسيرها لما فيها مصلحة الإنسان وإشباع حاجاته والوفاء بمتطلباته المادية والمعنوية، بكل ارتباطاتها وجوانبها، والنظام السياسي من أهم مؤسساته الدولة، بكل ما تضمه من سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية، علاوة على مهامها الكبرى في الدفاع وحفظ الأمن، وحفظ الكيان السياسي من أي تهديدات خارجية وداخلية.

أما النظام الديني فقد وجد لتنظيم الجوانب الروحية والأخلاقية والقيمية في المجتمع، وضمان عدم تعارضها مع بعضها البعض.

والنظام الاقتصادي مهمته تنظيم وتطوير نظم الاقتصاد والتجارة واستثمار الثروات ورفاه المجتمع.

والنظام الاجتماعي مهمته تنظيم العلاقة بين أبناء المجتمع من خلال العادات والتقاليد والقيم والنظم الاجتماعية.

والنظام الثقافي يهدف إلى إعادة تدوير قيم المجتمع وتطويرها وإضافة قيم ونظم جديدة في مختلف نظمه المركزية وترسيخها من خلال التعليم والتدريب.

لقد برزت السلطة كأساس بديهي وجوهري وطبيعي لا اختلاف عليه لتسيير هذه الأنظمة، وقد ظهرت من النظام السياسي مؤسسة الدولة. وظهرت من النظام الروحي مؤسسات الأديان المختلفة، بكل ما فيها من معابد وكنائس ومساجد ورجال دين ونظم وأعراف ومقدسات.

وظهرت من النظام الاقتصادي المؤسسات الاقتصادية المتعددة كالبنوك المركزية والغرف التجارية والصناعية والاتحادات العمالية والنقابات.

ونشأت عن النظام الثقافي المدارس والمعاهد والقيم الثقافية.

وقد مورست السلطة من خلال هذه المؤسسات عبر أفراد محدودين، ولكن سرعان ما أصبحت المراتب الاجتماعية التي تؤهلهم لشغلها مراكز لا بد من بلوغها، وعرفت بأسماء معروفة بالبداهة كالملك، رئيس الدولة، الذي يشغل رأس السلطة السياسية

ورجال الدين بمسمياتهم المختلفة لشغل مراتب ومستويات السلطة الدينية كآية الله العظمى، الحاخام الأكبر، قداسة البابا، المفتي.

والمعلم والأستاذ والدكتور والبروفسير لشاغلي مناصب ومراتب السلطة الثقافية.

والأثرياء، وكبار التجار والمستثمرين، ومسئولي النشاط الاقتصادي كوزراء المالية والاقتصاد، لشاغلي مراتب السلطات الاقتصادية.

والوجهاء والأعيان لشاغلي مراتب السلطات الاجتماعية.

****

مع ترسخ الأنظمة المركزية ومؤسساتها وعلى رأسها مؤسسة الدولة، لم يكن الفكر البشري قد أنتج بعد آليات لتنظيمها، بحيث لا يشغل مناصبها أشخاص غير مؤهلين أو متعصبين أو نرجسيين، نعم كان لبعض كبار الفلاسفة والمصلحين آراء نيرة حول ذلك، منهم أفلاطون الذي كان يرى أن من يشغل منصب رئاسة الدولة لا بد يكون فيلسوفا أو حكيما، وإن لم يكن كذلك فيجب أن يكون بمعيته فلاسفة وحكماء يعينونه ويرشدونه، وكانت فلسفة أرسطو السياسية أكثر واقعية من فلسفة أفلاطون، لأن الدولة الدستورية هي مثله الأعلى، إذ اعتبر الضمان الوحيد للحكم الصالح

هو القانون الصالح، وقد طبقت الديمقراطية في بعض فترات الإمبراطورية اليونانية بشكل بدائي، وحققت نتائج لا بأس بها في حصول اليونانيين على العدالة الاجتماعية وضمان بعضا من حقوقهم وحرياتهم، وعدم طغيان مؤسسة الدولة عليها، وفي القبائل العربية كانت ثمة شروط لتولي زعامة القبيلة لضمان استقامة السلطة داخل القبيلة، كحسن السيرة ورجاحة العقل، علاوة على تفعيل مبدأ الشورى بين رئيس القبيلة و أبنائها في القضايا الرئيسية، وبعد الإسلام اتفق الفقهاء المسلمون على ضرورة أن يكون حاكم النظام السياسي في الإسلام عادلا وعالما، إضافة إلى الشروط الأخرى المتعارف عليها، كما اشترطوا في منصب الخلافة، أن يكون الخليفة من قبيلة النبي (ﷺ) حتى أن بعض الفرق اشترطت أن يكون الخليفة من نسله وذريته، وذلك لضمان عدالة الحكم الإسلامي ونزاهته وعدم انحرافه نحو الطغيان والجبروت.

إلا أن مثل هذه الإجراءات والاحترازات لم تمنع إطلاقا من تولي أشخاص غير مؤهلين لشئون الحكم والإدارة في مختلف الأمم والشعوب دون استثناء، وممارستهم كافة أشكال القوة والبأس والغلبة والتفوق، وقيامهم بتسخير وظائفهم في مختلف الأنظمة لا سيما السياسية والدينية لصالحهم، وبالتالي حرمان بقية الفئات والشرائح الأخرى من حقوقها في الأرض والثروة، علاوة على حرياتها وحقوقها، مما أدى إلى نشوء الصراعات الدامية واندلاع الثورات في العديد من الممالك والدول على مر العصور، من ناحية أخرى فإن نظام ممارسة السلطة، لا سيما السياسية، أصبح راسخا ومتعارفا عليه بحيث يمارسه كل من يصل إلى الحكم، سواء بالوراثة أو بالانقلاب، حيث يبدأ الحاكم بتملك السلطة، وأدا ما تجاوز ذلك إلى حرمان بقية فئات وشرائح الناس من حقوقها فإن السنة البشرية تعود مرة أخرى،

حيث يثور الشعب على الحاكم، فإن انتصر المعارضون فإنهم سرعان ما يتحولون إلى نظام حاكم جديد يسعى إلى تثبيت نفوذه وإن أدى ذلك إلى حرمان القوى الاجتماعية الأخرى من جزء أو أغلب حقوقها، وهكذا دواليك، في صراعات لا تنتهي، تهدأ حينا وتعود أحيانا أخرى، بناء على مدى مهارة الحاكم في حكم شعبه وإتقانه لأساليب السياسة وفنونها وقبض يده وبسطها.

من ناحية أخرى لم تكن المجتمعات البشرية مؤهلة بشكل كافٍ للمشاركة في تسيير دفة الأنظمة المركزية التي تحكمها وتسير شئونها، بل لم تكن هناك ثمة آلية لتحقيق هذه القيمة المهمة التي تضمن دون شك عدم وقوع المجتمع تحت حكم أشخاص أنانيين أو قساة، مما أدى إلى انشغالها عن متابعة شئون السلطات التي تسيرها وفي مقدمتها السلطة السياسية، الأمر الذي شجع الحكام على إقصاء شعوبهم عن المشاركة في إدارة دفة الحكم، مما أدّى إلى ظهور الطغيان والاستبداد.

****

إن الطغيان أو إحدى درجاته (الاستبداد - الديكتاتورية) ليس سوى استفراد مجموعة غير شرعية بإدارة شئون المجتمع، فعندما يوصف الاستبداد بإدارة الدولة بأنه استبداد سياسي فان يكتسب معناه لا من لفظه المجرد لأنه لفظ بلا معنى في جوهره وذاته، بل من آثاره المتمثلة بالاستحواذ على السلطة واحتكار لحق مشترك مع الآخرين، لأن علاقة الحاكم والمحكوم والدولة والمجتمع يفترض تأسيسها على قاعدة علاقة بين أطراف متساوية في الحقوق والواجبات، أو شبه متساوية على الأقل، بموجبها وبآليات ونظم شرعية متفق عليها، يتم تفويض أحد هذه الأطراف لإدارة الشئون السياسية للمجتمع، هذه الشئون في أصلها حق مشترك للجميع، ولكن تم تفويض

طرف لإدارتها، بصفة مؤقتة أو دائمة وفقا لقواعد محددة متعارف أو متفق عليها، ولكن إذا ما استأثر هذا الطرف بهذا الحق و أقصى الآخرين ومنعهم من المشاركة فيه، فإن المجتمع بذلك دخل في أتون الطغيان والاستبداد.

لقد قال أفلاطون كلمة مشهورة خالدة: (أسوأ ما يوجد على الأرض هو الطاغية فردا أو جماعة) ويعتبر أرسطو أول من وصف منبع الديكتاتورية ونسبها إلى الشرق وذلك في كتابه *السياسة* حيث قال: (يتمثل الطغيان بمعناه الدقيق في الطغيان الشرقي، حيث نجد لدى الشعوب الأسيوية على خلاف الشعوب الأوربية طبيعة العبيد وهي لهذا تتحمل حكم الطغاة بغير شكوى).

ويصف أرسطو الديكتاتورية بحاكم يستغل السلطة لمصلحته الشخصية دون تقييد ورغم إرادة المحكومين، حيث يصبح الملك سيئ وينفرد بالسلطة دون حسيب أو رقيب، فلا قانون إلا إرادة الحاكم الفرد.

ويصف الطاغية بأنه لا يثق بالشعب ويؤذي الناس ويعادي المشاهير والعلماء ويعمل بسرعة تامة للقضاء على خصومه.

بيد أن منبع الديكتاتورية ليست شرقية وإن عانى منها الشرق أكثر من الغرب في القرون الأخيرة، فالطغيان والاستبداد والديكتاتورية جميعها ظواهر موجودة في كافة المجتمعات دون استثناء، و إنما العوامل المحيطة هي التي تظهرها وترسخها أو تواريها، لا سيما فيما يتعلق بالمستوى الثقافي والوعي السياسي، فالمجتمعات التي تؤمن بالعلم وتقدس الحرية لا يمكن أن يحكمها الطغاة، والعكس صحيح، فالمجتمعات التي تعيث فيها الخر افة والخضوع للطلاسم ويسودها التقوقع الاجتماعي والتعصب العشائري والقبلي، تتقبل أكثر من غيرها حكم الطغاة، والطغاة في أغلب الأحيان لا يحكمون سوى الشعوب المتخلفة التي تستطيع التأقلم مع سلطة القمع.

الأسباب الجوهرية لظهور الطغيان في المجتمعات البشرية

إنه بفعل عوامل عديدة لعل من أهمها أن الحكام الأوائل الدينيين والسياسيين والاقتصاديين حاولوا ترسيخ سلطاتهم وتبريرها وتسويغها، فعمدوا إلى بث نظم وقيم في المجتمع ثقافية وسياسية وروحية تحثه على القبول بقيادتهم لهم، مقابل بعض الامتيازات والحقوق للعامة، وحقوق وامتيازات كبيرة للخاصة، فترسخت نظم الطغيان وثقافة الاستبداد على مر العصور، وأصبحت في عداد المقدسات أو ما يناهزها، خاصة مع دعمها بقيم روحية ودينية، وعزلت بعض المجتمعات أو فرضت العزلة عليها، مما يجعلها تألف نظام حياتها، خاصة مع توفر مقومات الحياة الأساسية، ولكن مع تطور المجتمعات وانفتاحها على غيرها فإنها أصبحت تعاني من الضغوط على مختلف جوانب الحياة بسبب عدم تطور أنظمتها المركزية، لا سيما في نظامها السياسي ومؤسسته الدولة، ويعتبر ما تمارسه الدولة طغيانا ودكتاتورية لا بد من القضاء عليها، فالطغيان هو طغيان سلطة الحاكم ودولته على المجتمع، واستحواذه على الامتيازات والثروات وحرمان شعبه من حقوقه وحرياته وثرواته، فالمجتمع يجد نفسه أسيرا أو مقيدا لهذه السلطة من دون وجه حق ومن دون الحصول على أية امتيازات، أو أنه يجد أنه يعيش في ظل مشاكل عديدة من دون أن يجد للدولة أية قدرة على حلها، أو أنه يجد في ذاته بفعل اطلاعه على الشعوب الأخرى القدرة والمهارة والإمكانية التي تجعل حياته أكثر ديناميكية وإنتاجية، إلا أنه مكبلا بقيود الدولة، يقول أرسطو: (وبعبارة أخرى الطغيان ليس شيئا آخر إلا الملوكية المطلقة التي تحكم، وهي بمعزل عن كل مسؤولية وفي منفعة السيد وحده).

ويقاس الطغيان بقدرة المجتمع على استثمار طاقاته وإمكانياته البشرية والاقتصادية، وتمتعه بحقوقه وحرياته التي يؤمن بها هو على وجه الخصوص، بغض النظر عن وجود حالة من التذمر والعصيان ضد نظام الحكم. فإن كان الميزان مائلا نحو عدم قدرة المجتمع على استثمارها فإنه بذلك يعاني من طغيان أنظمته الحاكمة لا سيما النظام السياسي، وإن كان مائلا إلى عكس ذلك فإنه لا يعاني من الطغيان، أويعاني من استبداد أو دكتاتورية يمكن احتمالها، يقول جون لوك: (ليس للطغيان صورة واحدة.. فمتى استغلت السلطة لإرهاق الشعب و إفقاره تحولت إلى طغيان أياً كانت صورته).

فالطغيان يبقى مفهوما نسبيا في نهاية الأمر وإن كان مطلقا في بعض معاييره ومعطيات وجوده كحالة موضوعية قائمة بذاتها، وفي حال شموله لطبقات وفئات وشرائح اجتماعية وشعبية تمثل أغلبية الشعب فإن ذلك يؤدي إلى ظهور قوى معارضة تطالب بالتغيير الجزئي أو الشامل وتنادي بحصول الشعب على حقوقه وحرياته وامتيازاته المسلوبة.

ويمكن تلخيص أسباب ظهور ورسوخ الطغيان كنظام سياسي وديني واجتماعي و اقتصادي وثقافي فيما يلي:

١-يحكم الطغيان شعبه بالقوة والبأس والجبروت، مما يضطر هذا الشعب إلى الخضوع والاستلام، خاصة مع توفر سبل العيش ومقومات الحياة.

٢-بعض الشعوب تفاعلت مع الديكتاتورية والطغيان من خلال تكبيل ذاتها بقيم دينية أو ثقافية، تدعو إلى الصبر على أمل النصر الموعود والتخلص في يوما ما من حكم الطغيان، وبعض القيم الأخرى ترى أن الطغيان أمرا خارجا عن إرادة الشعوب وأن عليها الصبر عليها ومحاولة إصلاحها بقدر الإمكان ما دام الطاغية يوفر الحد الأدنى من الالتزام تجاه

شعبه، أو تبرير الطغيان وتحويله إلى حالة دينية خالصة، وترسيخه كمنظومة دينية أو ثقافية أو اجتماعية.

٣-بعض الشعوب عاشت في بيئة منعزلة، بحيث أصبحت لا تدرك ما يدور حولها ولا تعرف كيف أن الشعوب الأخرى تعيش في مستوى أعلى منها، إذ أنها اعتادت حياة الطغيان وأصبح جزءا من تركيبتها الثقافية والاجتماعية والدينية، ولا يمكنها الخروج من هذه البيئة إلا إذا تجاوز الطغيان حده وامتد إلى مكتسبات الناس وما تبقى من أرزاقهم وأعطياتهم.

٤-احتكار السلطة من قبل فئات متغطرسة وأنانية، مما يؤدي إلى اندلاع الصراع على الحكم، وعندما ينتصر أحد طرفي الصراع ينفرد بالسلطة ويسخرها لصالح بقائه في الحكم، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى إعادة إنتاج الطغيان مرة أخرى.

٥-عدم وجود آلية منذ بداية تأسيس الدولة وغيرها من مؤسسات الحكم والسلطة والإدارة لتداول السلطة ومنع احتكارها وإقفال باب ممارسة الاستبداد من خلالها، فقد كان الغرض من تأسيس مؤسسات الأنظمة المسيرة للبيئة البشرية هو الحاجة المطلقة لتنظيم الحياة الإنسانية، بما يحقق الأمن والاستقرار، ولكن عندما احتكرت هذه المؤسسات من قبل فئات نرجسية لم يكن وضع ومكتسبات بقية طبقات الشعب قد تزلزل بعد واستمرت هذه الأوضاع على ما هي عليه حتى مال قادة هذه الأنظمة إلى الطغيان والاستبداد والديكتاتورية، حيث اعتبروا هذه السلطات حكرا

عليهم وتشريفا لهم وحقا خالصا لأشخاصهم، مما أدّى إلى انحدار حياة الشعوب وشيوع اللا استقراروالقمع وكافة ألوان الشرور.

٦- شاعت ثقافة الطغيان والاستبداد حتى عمت آفاق الحياة الإنسانية وانتشرت في معظم جوانبها، وأصبح لها مسوغات وتنظيرات دينية، حيث إن الدين يحتل مكانة جوهرية في شخصية الإنسان، وجزء لا يتجزأ من الحضارة الانسانية، وهو بالتالي يحمل شحنات انفعالية هائلة، وقد اكتشف الطغاة أهميته منذ وقت مبكر في التاريخ فسخروه لتوجيه ثقافة وسلوك شعوبهم نحو طاعتهم وولائهم، واستخدم لإضفاء الشرعية على حكمهم، جاء في عهد أردشير، قوله: (واعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أساس الملك وعماده، ثم صار الملك بعدُ حارس الدين، فلا بد للملك من أساس ولا بد للدين من حارسه، لأن ما لا حارس له ضائع وما لا أساس له مهدوم، وإن رأس ما أخافه عليكم مبادرة السفلة إياكم؛ أي: دراسة الدين وتلاوته والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به، فتحدث رياسات مُستسرات في من قد وترتم وجفوتم، وحرمتم وأخفتم وصغرتم، من سفلة الناس والرعية وحشو العامة. واعلموا أنه لا يجتمع رئيس في الدين مُسِروررئيس في الملك مُعلَن، في مملكة واحدة قط، إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك، لأن الدين أساس والملك عماد، وصاحب الأساس أولى بجميع البنيان من صاحب العماد).

وقد غدا تفسير العديد من النصوص الدينية المقدسة متو افقا مع أهواء ومصالح الحكام الطغاة، وعلى مر الزمان أصبحت ثقافة الطغيان شبه قائمة بذاتها، وتتداخل مع ثقافة المذاهب والملل والنحل، ففي المسيحية أصبح الملك هبة من الله على الملك، يمنح بواسطة رجال الدين المسيحيين، الذين أصبحوا يبيعون صكوك الغفران والأراضي ويأمرون بطاعة الملوك، وعند المسلمين أمر رجال الدين بعدم الخروج على الحكام وقالوا بشرعية حكمهم وان جاءوا بالسيف والغلبة وسفك الدماء، وقال بعضهم بأن السلطة في ذرية النبي (ﷺ) فلا تصح إلا فيهم مطلقا، ثم في نوابهم من رجال الدين، وكل شأن من شئون المجتمع لا بد أن يحظى بتأييدهم ومباركتهم، وبما أن اجتهاد بعض رجال الدين المسلمين ليس سوى اجتهاد بشري أرضي، فقد تشبع بنظم وثقافة الطغيان والاستبداد والديكتاتورية وبعوامل وظروف و إفرازات صراع الإرادات في المجتمع الإسلامي والعربي، خاصة وأن المسلمين كانوا يفتقدون لنظام تداول السلطة السلمي والعلاقة الإيجابية بين جهاز الحكم والمجتمع على غرار غيرهم من الشعوب والأمم في أغلب الفترات التاريخية.

****

ثمة نقطة هامة وهي أن الطغيان السياسي هو الأكبر والأخطر، لأن الدولة تعتبر صاحبة السلطة العليا في المجتمع، وهي التي تتحكم بتنظيم معظم شئونه، علاوة على تداخل سلطاتها مع الأنظمة المركزية الأخرى، وتأثيرها عليه بما تمتلكه من قوة وجبروت أشد وأكبر، لذلك كان الصراع عليها أكثر من أي نظام آخر، بل إن كافة أشكال الطغيان والديكتاتورية كان من خلالها وعبرها في الدرجة الأولى، من ناحية أخرى فإن تغيير النظام السياسي لن يؤدي إلى إحداث تغيير حقيقي إيجابي وملموس، إذ لا بد من إحداث تغيير جوهري في بقية الأنظمة المركزية الأخرى، كالأنظمة الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، حتى يمكن القول بأن البيئة التي يعيش فيها المجتمع قد تغيرت فعلا وو اقعا، بما يتيح لأبنائه عيش حياة مليئة بالعطاء والإنتاج، وتحولهم إلى مواطنين صالحين يشعرون بالواجب والشرف والإخلاص لوطنهم منذ طفولتهم، ويكون من أساسيات ثقافتهم الذاتية ممارسة دور ما في تنمية مجتمعاتهم والممارسة الدائمة لرياضة تطوير الذات وتنمية السلوك وتطهيره، ومراجعة الطباع ومحاسبة النفس طوال العمر، حتى يكون تمتعهم بحرياتهم وحقوقهم ذا إسقاط إيجابي ونشط ومعطاء على و اقع الحياة في وطنهم. بيد أن سيرة معظم الشعوب والأمم والحضارات مليئة بكافة أصناف الديكتاتوريات والتجبر والطغيان والقمع بدرجات متفاوتة وبنسب مختلفة، وكان القليل من الحكام من كانوا معروفين بالاستبداد العادل والر أفة برعاياهم والاهتمام بشئون أمتهم وتنمية شعوبهم ومعاملتهم بأبوية وعطف، وقد اهتم المفكر الفرنسي "أتيين لابواسييه" في كتابه *العبودية المختارة* بدراسة ظاهرة الطغيان من زاوية أخرى وبعد مختلف، حيث تناول الطغيان من جهة الشعوب والمجتمعات لا

الحكام والحكومات، يقول: (كيف أمكن هذا العدد من الناس، من البلدان، من المدن، من الأمم أن يتحملوا طاغية واحدا؟).

إن لابواسييه يتساءل ببراءة عن الرضوخ والانصياع الذي يمارسه المجتمع أكثر من الطغيان الذي يمارسه الحاكم! فالحاكم وحكومته يبقون مجرد أفراد قلائل مقابل حشود المجتمع، إلا أن لابواسييه يكتشف السر وراء هذا التناقض العبثي والعار الوجودي، فالطاغية يستمد قوته واستمراره في ممارسة طغيانه وجبروته من شعبه الذي يمارسه عليه! فالمستبد في رأي لابواسييه ليس له من القوة إلا ما منحه الناس إياها، وقدرته على إيقاع الأذى، وإنزال الشر بهم مستمدة من احتمالهم لأذاه، وصبرهم بدل مواجهته.

يقول لابواسييه مخاطباً الشعوب الذليلة:

(كل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم على يد العدو الذي صنعتم أنتم كبره، والذي تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله، ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده. هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينين ويدين وجسدا واحدا، ولا يملك شيئاً فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مدنكم، التي لا يحصرها العد، إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للص الذي ينهبكم، شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟".

ويلخص لابواسييه تحليله بقوله:

(إن الشعب هو الذي يقهر نفسه بنفسه ويشق حلقه بيده. هو الذي ملك الخيار بين الرق والعتق فترك الخلاص وأخذ الغل).

ويشرح لابواسييه مراحل ترسخ العبودية والقبول بحكم الطغيان في نفوس أبناء الشعوب المستعبدة:

(إن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق، من دون نظر إلى أفق أبعد؛ يقنعون بالعيش مثلما ولدوا، فيصبح حال مولدهم هو الحال الطبيعي، ثم تأتي العادة لتجعل الناس يتجرعون سم الاسترقاق من دون الشعور بمرارته).

وقد ظلت البشرية تعاني من الطغيان والديكتاتورية التي جلبت لها الكوارث والحروب وتدهور العلوم والمعارف و انتشار الجهل والفساد والقمع، وإعدام المفكرين الأحرار وأصحاب المو اقف والآراء والأفكار المختلفة والمناوئة لحكومات البغي والعدوان، حتى هدى الله الإنسانية للحرية والديمقراطية والمدنية والدستورية، ولا شك أن قيم ونظم الحرية تعتبر بلا شك نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى، ومن ناحية أخرى فإنها من أهم ابتكارات الفكر الإنساني و انجازات الحضارة الإنسانية.

إن نظم الحرية والديمقراطية مكنت الشعوب والأمم من طي صفحة سوداء في تاريخها وتاريخ الإنسانية برمته، فالمجتمع الإنساني عان منذ ظهور الدولة كمؤسسة ونظم البيئة الإنسانية كسلطات بمؤسساتها المختلفة من الصراعات الدموية على السلطة، علاوة على وتجسد الطغيان وترسخ الديكتاتورية بكافة ارتباطه في المجتمع الإنساني مما أدّى إلى اندلاع الحروب والصراعات وسفك الدماء وقمع الإنسان و انتهاك حرماته ووئد ذاته ودفن صوته وقمع حريته، وتوقف حركة الأعمار والبناء الحضاري لفترات طويلة

من عمر البشرية، إلا أنه بالديمقراطية كنظام لتداول السلطة وكثقافة إنسانية عامة، وبالليبرالية والنظام المدني وترسيخ القيم الإنسانية المطلقة كالتعددية والتنوع والحرية الفردية وحرية الرأي والفكر والضمير بكل امتداداتها وارتباطاتها ونظمها وقوانينها، تمكنت الإنسانية من تجاوز هذه الصفحات السوداء وانتقالها إلى مرحلة جديدة مليئة بالأمل والعطاء، فالديمقراطية أنهت الصراع على السلطة السياسية وإدارة الدولة، التي تحولت مناصبها إلى مجرد وظائف عمومية خاضعة لسلطة القانون، وحول النظام المدني السلطات الدينية إلى جزء من مؤسسات المجتمع، وأوجدت قوالب دستورية وقانونية نظمت الحريات الفردية والاجتماعية والحركات الثقافية والدينية والاقتصادية وجعلتها خاضعة لسلطة الحكم المدني القائمة على القيم الإنسانية المطلقة، مما جعل المجتمعات المتقدمة تنهي صراعاتها السياسية والدينية والفكرية والقبلية والعرقية وتتجه بطاقاتها وإمكانياتها نحو الإنتاج والإعمار الحضاري في مختلف الجوانب والمستويات.

وعلى الرغم من تحول الفكر الليبرالي بمؤسساته ومرتكزاته الأساسية إلى عقيدة دولية وثقافة إنسانية عالمية لا اختلاف عليها سوى في التفاصيل والجزئيات، إلا أنها لم تتحول بعد إلى ثقافة سائدة ونظام راسخ في معظم أنحاء العالم، فالعديد من دول العالم وشعوبه لا تزال ترزح تحت حكم أنظمة مركزية تسلطية، حيث تدير شئونها أنظمة سياسية ودينية واجتماعية وثقافية قائمة على القمع والطغيان، واحتكار الثروات، وانتهاك حريات وحقوق وحرمات الإنسان.

وبالاعتماد على مؤشر الديمقراطية لعام ٢٠١٥ الذي تصدره وحدة إيكونوميست للمعلومات بالمملكة المتحدة ويشمل١٦٧ دولة يتضح ما يلي:

١- الديمقراطيات الكاملة: ٣٥ بلدا بنسبة ٢١% من بلدان المشمولة بالمؤشر.

٢- الديمقراطيات المعيبة: أي: ديمقراطيات ناقصة دستوريا وقانونيا وغير ناضجة ممارسة وثقافة على مستوى الدولة والمجتمع، وقد بلغ عددها ٥٥ بلد بنسبة ٣٣ %.

٣- الأنظمة الهجينة: بمعنى كونها أنظمة نصف ديمقراطية ونصف استبدادية، سواء في نظمها وقواعدها، أو في ممارساتها وثقافة شعبها، وقد بلغ عددها ٣٦ بلدا بنسبة ٢٢ %.

٤- الأنظمة التسلطية: وعددها ٥٢ بلدا بنسبة ٣١ % من بلدان العالم (تتركز معظمها في دول العالم الثالث وفي مقدمتها بلدان العالم العربي والإسلامي).

إذن فـ ٣١ % من بلدان العالم تقريبا لا تزال تعيش شعوبها في ظل أنظمة تسلطية في ٥٢ بلدا حول العالم على الأقل (مع ملاحظة إغفال ذكر الشعوب التي تعيش في ظل الأنظمة الهجينة).

ومن دون شك فإن هذه النسبة تعتبر مرتفعة وان كان هناك أمل كبير في انخفاضها خلال العقود القادم، باعتبار أن الحتمية التاريخية تمضي باتجاه عالم أكثر حرية و انفتاحا وتفاؤلا بالمستقبل.

ووفقا لهذه الإحصائية فأنه يعني ان نسبة كبيرة من سكان الأرض يعيشون في ظل غياب الحريات وإهدار الحقوق وقمع الآراء والأفكار والمعتقدات، والعيش في ظل كسر الكرامات ودفن الأصوات، وتحكمهم أنظمة دكتاتورية سياسيا ودينيا واجتماعيا.

ومكبلين بقيود نظم وقيم تولتارية ظلامية، ويعيشون في نطاق حكم غير شرعي قبلي كان أو عائلي أو طائفي أو مذهبي، استأثر بسلطة الدولة واحتكر الثروات وأودع عوائدها في خزائنه الخاصة، مما يعني أن سكان هذا الجزء من العالم محرومون من نعمة الحرية والتطور والازدهار ومغيبين عن منتجات الحضارة المعاصرة، ويعيشون في ظل حياة بعيدة عن الحضارة في أسسها ونظمها العميقة والحيوية والجوهرية، من ناحية أخرى فإن الأنظمة الهجينة التي تحكم ٣٦ دولة تمثل مشكلة كبيرة، لأنها و اقعة ما بين كونها أنظمة ديمقراطية واستبدادية في نفس الوقت، واحتمال تحولها إلى دول ديكتاتورية قائما، وفي الآونة الأخيرة انتقدت العديد من مراكز البحوث والدراسات الإستر اتيجية عدد ليس بالقليل من دول أوربا الشرقية لكونها جمدت الإصلاحات والتنمية السياسية والاجتماعية، الأمر الذي يفتح الباب مشرعا أمام زيادة نسبة الأنظمة التسلطية في العالم، في الفصول القادمة إن شاء الله سنقوم بسياحة في عدد من البلدان والدول، ابتداء بما قبل الميلاد وحتى عصرنا الراهن، لنتعرف على أكثر الحكام طغيانا وديكتاتورية وتسلطا ودموية ونرجسية، وعلى أكثر الأنظمة والقوانين غرابة وقمعا وتكبيلا للإنسان، حتى يدرك البعض منا كيف أن الحرية والديمقراطية نعمة إلهية يجب علينا السعي نحوها والوصول إلى شواطئها، فالحرية نور إلهي أزلي تمكن الإنسان من بلوغه بشق الأنفس ومن دونها لا يمكن للإنسان أن يكون إنسانا في حقيقته وجوهره ومعدنه، فالحرية هبة إلهية ونور الهي نفخها الله في الإنسان مع نفخ الروح في جسده، وإن واجب الإنسان أن يسعى إليها وأن يصونها ويحافظ عليها ويراعاها، لأنها نعمة الله وهبته وفضله على بني البشر.

الرحلة الأولى

سياحة في سيرة بعض طغاة التاريخ القديم

الطاغية ابن بيئته، لا يمكن أن يمارس طغيانه على الآخرين إن لم تتوفر البيئة المناسبة لممارسة طغيانه، هذه البيئة تتمثل في المقام الأول في الأنظمة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية المهيئة له ممارسته لطغيانه، فمن الناحية السياسة فإن نظم الدولة قائمة على المركزية والشمولية والبيروقراطية، بحيث ينعدم فيها نظام التداول السلمي على السلطة القائم على الانتخاب، وفرز السلطات والفصل بين مؤسساتها، وإدارة الحكم من خلال دستور مبني على محدودية الصلاحيات وتوزيعها ما بين مؤسسات الدولة.

علاوة على ضيق مساحة حرية إبداء الرأي في معظم دوائر الدولة، لا سيما في دوائر صنع القرار، كما تعاني الدولة من كثرة المؤسسات الحكومية وتثاقل إدارتها، وبطئها في اتخاذ القرارات، إضافة إلى بطئها في ممارسة التحديث والتطوير.

أما النظام الاجتماعي فإنه قائم على سلطة الأب البطريكية في الأسرة وهيمنة شخصيته على أبنائها، وهيمنة الشخصيات البرجوازية والارستقراطية على الحياة الاجتماعية، وعدم منح الأفراد شخصية اعتبارية، وضيق هامش الحرية الشخصية، وتقييد أبناء المجتمع بكثرة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية، وممارسة نظم تهميش وتمييز ضد بعض شرائح المجتمع كالنساء والشبان.

أما النظام الديني فقائما على هيمنة رجال الدين واحتكارهم لتفسير النصوص الدينية وإصدار القوانين الدينية، وزيادة مساحة التحريم في مقابل الإباحة، ومنع المجتمع من الخوض في مسائل الدين وجدلياته والتشكيك فيه ومنعهم من اعتناق مذاهبه المختلفة.

أما النظام الاقتصادي فإنه قائمٌ على سيطرة الطبقات البرجوازية على عوامل الإنتاج، واحتكار الشريحة الإقطاعية للأراضي والممتلكات والمصانع، واحتكار فئة قليلة من التجار للسلع وتحكمهم في أسعارها، وسيطرتهم على الخدمات الخاصة.

من ناحية أخرى فإن سكوت الناس على تجاوزات الحكام يوفر بيئة صالحة لترعرع الطغيان، ففرعون عندما قال: (أنا ربكم الأعلى) لم يعترض عليه أحد، ولو اعترضه العامة والخاصة لما تجرأ على القول بما لم يتجرأ عليه الشيطان! قال تعالى: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين} ٥٤- الزخرف، قال سيد قطب في ظلال القران: (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون).

إن الطغيان أعلى درجات الفساد في السلوك البشري، وقبول الناس وخضوعهم للطاغية دليل على تدني مستوى إنسانيتهم وتحولهم إلى أدنى مراتبها وهي العبودية، فالشعوب إذا تكيفت مع الظلم وقبلت بالذل وغلب عليها الخوف من حكم الطاغية؛ فإنها بذلك تمنحه فرصة ذهبية للاستمرار في بغيه، وكلما زاد خضوع الشعب كلما اشتد الطاغية في ظلمه وعدوانه، مثل ذلك بني إسرائيل قوم موسى (عليه السلام)، فقد أنجاهم الله من فرعون، ومن عليهم بالخيرات والنعم، وفضلهم على شعوب عصرهم، وكتب لهم الأرض المقدسة، شريطة محاربة الطغاة الذين يحكمونها، إلا أنهم جبنوا واستكانوا ورضوا بالذل والعار، قال تعالى: {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} [المائدة: ٢١ - ٢٣]، وكانت عاقبتهم كما جاء في الأدبيات الدينية غضب الله ومقته عليهم، فهبت الله لهم وهي الأرض المقدسة حرموا منها لأنهم كانوا قوما خاسئين أذلاء، والراضين بالذل وحكم الطغاة لا يستحقون الاستقلال والحرية، فكان جزائهم التيه في الأرض أربعين عاما، حتى مات كبيرهم، وشاب صغيرهم، وهلك مفسدهم ومات صالحهم.

- قال تعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى - العلق/٦}.

جاء في تفسير التحرير والتنوير للعلامة التونسي للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٨٧٩-١٩٧٣): (من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه).

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد ولام الابتداء لقصد زيادة تحقيقه لغرابته حتى كأنه مما يتوقع أن يشك السامع فيه.

والطغيان: التعاظم والكبر.

والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل، مثل استجاب واستقر.

وأن راءه متعلق بيطغى بحذف لام التعليل، لأن حذف الجار مع أنه كثير وشائع؛ والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرويته نفسه مستغنيا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصبو خلقا، حيث لا وازع يردعه من دين أو تفكير صحيح؛ فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم، لأن له ما يدفع به الاعتداء من لامة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس).

- قال تعالى: {الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب – الفجر/١١-١٣}.

تفسير القرطبي: (قوله تعالى: الذين طغوا في البلاد يعني عادا وثمود وفرعون طغوا أي: تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان.

فأكثروا فيها الفساد أي: الجور والأذى.

فصب عليهم ربك أي: أفرغ عليهم وألقى.

- قال تعالى: {من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله - البقرة: ٢٥٦}.

التحرير والتنوير: (والطاغوت الأوثان والأصنام، والمسلمون يسمون الصنم الطاغية، وفي الحديث كانوا يهلون لمناة الطاغية ويجمعون الطاغوت على طواغيت، ولا أحسبه إلا من مصطلحات القرآن وهو مشتق من الطغيان، وهو الارتفاع والغلو في الكبر، وهو مذموم ومكروه).

- قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت – النحل/٣٦}.

القرطبي: (واجتنبوا الطاغوت أي: اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال).

أقول: و إنما سمي الشيطان أو الكاهن أو الصنم طاغوت لأنه يطغى على ابن آدم ويطغيه ويجعله باغيا معتديا على أبناء جلدته من نسل آدم وعلى غيره من خلق الله ومخلوقاته.

- قال تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت}- النساء: ٥١}.

التحرير والتنوير: (عيد التعجيب من اليهود، الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، بما هو أعجب من حالهم التي مر ذكرها في قوله: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة، فإن إيمانهم بالجبت والطاغوت وتصويبهم للمشركين تباعد منهم عن أصول شرعهم بمراحل شاسعة، لأن أول قواعد التوراة وأولى كلماتها العشر هي: لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا، لا تسجد لهن ولا تعبدهن).

وهناك الكثير من الآيات التي وردت في القران الكريم ذات مضامين متشابهة مع الآيات الواردة الذكر منها:

- {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إلى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ- الزمر/١٦}.

- {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به / النساء/٦٠}.

- {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النارهم فيها خالدون – البقرة/٢٥٧}.

– {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ- البقرة/٢٥٧}

- {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا - النساء / ٧٦}.

- {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ- المائدة / ٦٠}.

- {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ – طه / ٤}.

- {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ- ص/٥٥}.

- {الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون- البقرة/١٥}.

وتتضمن آيات القران الكريم الكثير من المعاني الرائعة في وصف الطغيان، ففي سورة النجم قوله تعالى: {ما زاغ البصر وما طغى/ ١٨}

ففي هذه الآية نفي لصفة زيغ وطغيان بصر النبي (ﷺ) وجعلهما في مستوى واحد من الانحراف عن الطريق القويم.

وفي موقع آخر من القران الكريم ثمة ربط بين الوهم و الطغيان، حيث يقول سبحانه في سورة الطور واصفا الذين لم يؤمنوا بما أرسل إليهم والذين تربصوا بالأنبياء: {أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون / ٣٢} فالأشياء لا بد أن تبثث بسمع أو نظر محكومان بعقل، وفي غير ذلك فإن الإنسان يقع تحت هيمنة الوهم، ومن وقع فيه فقد أصبح طاغيا، حيث يقول ما لا دليل عليه عقلا أو نقلا نظرا أو سمعا، فالطغيان مجاوزة للحد في كل شيء.

وفي سورة الصافات وضع القرآن الكريم الطغيان كمنبع لكافة صنوف التمرد على الله سبحانه وتعالى، فالطغيان هو أساس الكفر بالله وعصيانه {قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين / ٣٠ }

ويتجلى ذلك أيضا في الآية الكريمة: {إنا لضالون، ثم نحن محرومون، ثم إنا كنا ظالمين، ثم ياويلنا إنا كنا طاغين- القلم٣١ }، ووفقا لهذا التسلسل فإن الطغيان هو أصل وأساس الظلم والظلال وجذر الخطايا التي ارتكبها هؤلاء وأمثالهم، وقد انفرد الطغيان باعتباره الأصل بكلمة: يا ويلنا! للتدليل على كونه شجرة المنكرات الكبرى.

في آيات كثيرة من القرآن الكريم توثيق للصلة بين الكفر والطغيان، كتأكيد إلهي على أنهما صنوان لا يفترقان، العلاقة بينهما ذات أبعاد تلازمية توأمية، ففي سورة المائدة يقول الله تعالى: {وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا / ٨٦} وفي قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام في سورة الكهف كان مبرر قتل العبد الصالح للغلام هو الطغيان والكفر،

بل وقدم الطغيان على الكفر في كلا الآيتين الكريمتين: {وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا / ٨٠}.

وفي هذا التقديم نكتة مهمة تفيد أن الطغيان هو الأصل الذي يخرج منه الكفر، وأن الكفر مرتبط بالطغيان لا العكس.

وقد ذكر علماء علوم القرآن الكريم أن كلمة (طغى) ومشتقاتها وردت في تسعة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، وبصيَغ وتصريفات مختلفة: (طغى، يطغى، أطغى، تطغوا، طغوا، أطغيته، طغيان، طغوى، طاغية، طاغوت، طاغين، طاغون)، ويمكن القول بأن هذه المعاني يجمعها شيء واحد، وهو: المعنى اللغوي لكلمة الطغيان «مجاوزة الحد» مع عدم إغفال السياق القرآني الذي يضفي معاني جديدةً على الكلمات أثناء البحث والتحقيق، وأما استعمالات القرآن لها، فقد ذكروا أنَّ الطغيان في القرآن الكريم جاء على أربعة أوجه:

الأول: الطغيان بمعنى الضَّلالة؛ وذلك كما في قوله تعالى: {ويمدهم في طغيانهم يعمهون - البقرة/ ٥١ }.

الثاني: الطغيان بمعنى العصيان؛ وذلك كما في قوله تعالى: {اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى- طه/ ٢٤}.

الثالث: الطغيان بمعنى الارتفاع والتكثُّر؛ وذلك كما قوله تعالى: {إنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ- الحاقة/ ١١}.

الر ابع: الطغيان بمعنى الظلم، وذلك كما في قوله تعالى: {ما زاغ البصر وما طغى – النجم/ ١٧}. وقوله سبحانه {ألا تطغوا في الميزان - الرحمن/ ٨}.

ومن أهم اشتقاقات (طغى) طاغوت، التي وردت في القران الكريم في عدد من الآيات وأوردتْ لها كُتُب التفاسيروالبحوث اللغوية القرآنية المعاني التالية:

* الطاغوت الذي يقصد به الشيطان؛ كما في قوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله - البقرة/ ٢٥٦}.

* الطاغوت يشار به إلى الأوثان التي تُعبَد من دون الله، كما في قوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت - النحل/٣٦ }.

* الطاغوت يعنى به شخص، كما قال بذلك عدد من المفسرين، مثل كعب بن الأشرف، وذلك في قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت - النساء/ ٥١}.

جاء في التحرير والتنوير: (وجاء في لغة العرب في معاني فعل (طغى) وأسمائه ان الطاغوت: الأصنام، كذا فسره الجمهور هنا ونقل عن مالك بن أنس، وهو اسم يقع على الواحد والجمع فيقال للصنم طاغوت وللأصنام طاغوت.

وقد يطلق الطاغوت على عظيم أهل الشرك كالكاهن، لأنهم يعظمونه لأجل أصنامهم، كما سيأتي في قوله تعالى: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت في هذه السورة).

* الطاغوت: {(طغي) فلان: أسرف في الظلم، و(الطاغية): الجبار، والأحمق المتكبر.

و(الطاغية): من تولي أمراً/ حكماً فطغي وظلم وتجاوز حدود الاستقامة والعدل تنفيذا لمآربه ومطامعه.

والمستبد: رب الأسرة/ كبير العائلة/ سيد المنزل/ السيد علي عبيده، فهو من يتفرد بر أيه ويستقل به.

(سيكلوجية الطغاة والمستبدين- مقال- أ.د. ناصر أحمد سنه).

الديكتاتور

لقد ناقش العديد من المفكرين والباحثين الطغيان من عدة أبعاد وجوانب، في محاولة منهم لسبر أغواره ومعرفة ماهيته وسبل القضاء عليه، يقول د. أحمد العقباوي محاولا شرح شخصية الطاغية: (الطاغية عادة، سواء في المجتمعات العربية أم الغربية، يحمل قناعات خاصة به، ويعتقد أن ما يفعله هو الصحيح، وكل من يختلف معه في الرأي يصبح عدوه، وبالتالي فهي شخصيات لا يمكن التحاور معها، لأن فكرها يكون في اتجاه واحد، ولذلك لا يوجد ديكتاتورا أو طاغية في التاريخ إلا وينتهي إما بالقتل أو الانتحار، وإن كانت النهاية في المجتمعات الغربية أقرب للانتحار، ليس بسبب غياب الوازع الديني ولكن لرفضهم الهزيمة، أما في مجتمعاتنا العربية فالوازع الديني يحول دون الانتحار، لذلك هو أبعد النهايات لدينا لأنه يدل على عدم الإيمان وأن من يفعل ذلك يخسر دنياه وآخرته، علاوة على رفض المجتمع لفكرة الانتحار، بدليل أن بعد هزيمة ٦٧ مات عبد الحكيم عامر، وحتى الآن لا يعرف أحد هل هو مات مقتولا).

ويقول الدكتور خضر عباس في مقاله *سيكولوجية الطاغية*: (إن البعد السيكولوجي في أي شخصية، له النصيب الأكبر في تكوين هذه الشخصية.. فالطغيان ليس مجرد سلوك، بل هو انعكاس عن حالة ذاتية داخلية يعيشها الطاغية.. إنها حالة سيكولوجية تمثل الدافع الدينامي الداخلي للسلوك الاستبدادي والتسلطي والتفردي.. وهي تمثل جوهر الأنا الذي يتصور المستبد من خلاله ذاته، والآخر من حوله.. وبالتالي ينظم العلاقة بينه وبين الذات الآخر وفق هذا التصور.. ولهذا فان الاستبداد في حقيقة الأمر، يمثل نزعة داخلية لدي الفرد المستبد تدعوه للسيطرة والتفرد والاستحواذ والسطوة والتملك..

وهي بالتالي تشكل مرض سيكولوجي طفولي، نشأ من خلال الحرمان النفسي والعاطفي، الذي يغذيه الحرمان الاجتماعي.. فهو منذ الصغر كان ينزع للسيطرة علي الألعاب، ويصارع الأخر (الطفل) كي لا يدع مجالا له لتملكها أو المشاركة بها.. لأنه لا يرغب بأن ينازعه أحد، وهذا الأمريكون مدركا مفهوما (سيكولوجيا) في عالم الطفولة.. حيث تكون الذات لدى الطفل ما زالت في طور التحيز والتمركز حول الذات.. ولكنه في عالم الرشد يمثل انتكاسا ونكوصا إلى الخلف، حيث ينتكس الشخص بالتمركز حول الذات، مما يؤدي إلى اختلال علاقته مختلة مع الآخر.. فيرى أن جل هذه العلاقة يتمثل في كون الآخر أداة تخدم كيانه، ولا يجب أن تتعارض مع ذاته.. أي: إن المستبد ما زال يعيش علي المستوى السيكولوجي حالة التمركز والتمحور حول الأنا والذات.. فلا يطيق أحد أن ينازعه السلطة والسطوة والتملك لأن نظرته إلى الآخر لا زالت مختلة وغير متوازنة ويحكمها منطقة الخاص.. وبالتالي ينظم علاقته بالآخر بأن هذا الأخر يمثل تهديدا لغريزة التملك لديه.. فينزع إلى تجريد هذا الآخر من كل شيء، حتى من حياته.. ولهذا يرفض المستبد أو الطاغية، كل ما يقيد حركته، أو يقنن سلوكه.. ولذا فهو يرفض أي قانون أو نظام يضبط هذه الحالة المرضية لدية.. والتي تتمثل في نزعة السلطة والتملك والسطوة والتفرد.. وبهذا ندرك أن المستبد يكره أي قانون ينظم الحياة بين الحاكم والمحكوم.. ولهذا الأمر لا يسلم المستبد طواعية بإقرار القانون، ويأتي من خلال رغبة خالصة من قبل المستبد، لأن ذلك يتنافى مع طبيعته السيكولوجية التي لا يستطيع أن يتخطاها أو يعمل بما يخالفها أو ضدها، لأن القانون والنظام يهدم كيانه السيكولوجي الداخلي، قبل أن يقلص صلاحياته أو يحد من سلطاته.. لذا فإن الأمر بالنسبة للمستبد هو أعمق من ذلك بكثير.. لأنه بمثابة الفناء السيكولوجي بالنسبة له..

وبالتالي فهو لا يتورع عن استخدام أي شيء، ضد من يهدد هذا الكيان الداخلي الذي يسيطر عليه، ويتحكم فيه).

ويرصد أفلاطون بعض أهم أسباب تحول الإنسان إلى طاغية: (من يقتل الناس ظلما وعدواناً، ويذق بلسان وفم متوحشين دماء أهله، ويشردهم، ويقتلهم، فمن المحتم أن ينتهي به المطاف إلى أن يصبح طاغية، ويتحول إلى ذئب).

ويتحدث أفلاطون عن شخصية الطاغية: (يتولد لدى الطاغية في نفسه حب جارف يرعى الرغبات المتطرفة لديه، وعندئذ تحتل هذه الرغبة الموقع الرئيسي في النفس وتتخذ من الجنون زعيما لحراستها.. وتثور ثورة هوجاء فإذا ما صادفت الرغبات أو الأنظار العالقة التي لا تزال فيها بقية من الحياء فإنها تقتلها أو تطردها بقسوة حتى تطهر النفس من كل اعتدال وتدعو الجنون لكي يحل محلها، وهكذا يغدو المرء طاغية، حتى يصبح بالطبع لا بالتطبع أو بهما معاً).

ويعتقد أفلاطون أن الطاغية في جوهره ليس سوى عبد بلغ أعلى درجات العبودية: (إن الطاغية الحقيقي هو في و اقع الأمر.. وعلى خلاف ما يظن الناس، هو عبد بمعنى الكلمة، بل هو شخص بلغ أقصى درجات العبودية، ما دامت دو افعه الحيو انية هي التي تسيطر عليه وتدفعه إلى تملق الناس.. وهو يقضي حياته في خوف مستمر.. ويعاني على الدوام من آلام مرهقة، ويبدو أكثر الناس بؤساً، بل يمكن أن نضيف إلى تلك شيئا آخر هو أن السلطة تنمي كل مساوئه وتجعله اشد حسدا وغدرا وظلما وأشد فجورا و أنعم في احتضان كل الرذائل وهو بحق أتعس الناس قاطبة، بل إن تعاسته تجعله بغيضاً أيضا لكل ما يحيط به. وقد تتضخم الذات لدى الطاغية لدرجة لا يرى إلا ذاته، ولا يحب إلا ذاته، ولا يقدر إلا ذاته..

فهو نرجسي بامتياز.. وقد تصل به النرجسية إلى درجة (المرآوية) أي: إنه يصبح لا يرى إلا صورته في المرآة فلا أحد دونه، ولا أحد غيره.. مما يجعله يتحوصل في سجن ذاته، فيغدو هو نفسه الذي له علاقة بذاته.. فالاستبداد هو حالة من النكوص إلى سيطرة الهوى علي الأنا، بحيث لا تقبل نرجسية المستبد أن يضع حدا لنزوة السلطة والسيطرة لديه، وبالتالي فإن الأنا الأعلى، التي تمثل القيم والقانون والنظام، لا مجال لديها في نفسية المستبد، ولذا فإن الويل والثبور لمن يحاول أن يحد من نزوة السلطة أو يقيد من نرجسية الذات، ومن أخطر حالات النفخ في سيكولوجية المستبد، أن يقوم البعض من أتباع هذا الطاغية، بتعزيز نرجسيته مما قد يبلغ المستبد في المرض السيكولوجي حدا من حالات الذهان، حيث تغرق الأنا في هذيانات جنون العظمة، وتتحول الذات لديه، المحملة بأثقال الغلو في التقزيم للآخر).

ويتحدث الدكتور سمير نعيم، أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس، ومؤسس المدرسة النقدية في علم الاجتماع المصري عن الطاغية وكيف أنه ابن بيئته ونتاج مجتمعه: (لا يمكن أن يكون هناك طاغية خارج إطار المجتمع، فنحن أمام معادلة لها طرفان، الأول وهو الطاغية بما يتصف به من صفات سيكولوجية ذات طابع خاص، وعادة ما يكون طابعا مرضيا، كأن تكون لديه استعدادات متعلقة بجنون العظمة والاضطهاد والسادية، أي: التلذذ بتعذيب الآخرين، علاوة على جمود الشخصية وعدم تقبل الآخر والتسامح معه. وهذه صفات لا تخفى علي المحيطين بشخصية الطاغية، فالقذافي على سبيل المثال، التقيته منذ سنوات طويلة عندما كنت أعمل في بنغازى، ومن أول جلسة جمعت بيننا، عرفت أنه إنسان مختل، فنظرات عينية وطريقة كلامه تكشف عن أنه شخصية سيكوباتية لا تستفيد من

أخطائها وتميل إلى العدوان ولديها قدرة كبيرة على الخداع. أما الطرف الثاني في المعادلة فهو المجتمع بجميع أفراده ومؤسساته من أسرة ومدرسة وجامعة وأحزاب وحكومة وأماكن عبادة، وغيرها. فكل هذه تشكل تربة خصبة، إما لاستفحال خصائص الطاغية، أو تكون غير ملائمة لنمو وتبلور هذه الصفات، فتجعله يفيق وتعيد له توازنه، فإن لم يحدث له ذلك يكون مصيره مستشفى الأمراض العقلية أو النبذ من المجتمع والفشل، ولكن للأسف تعد مجتمعاتنا العربية منذ سنوات طويلة تربة خصبة لاستفحال خصائص الطاغية ليس فقط كحاكم، ولكن فى كل موقع يصبح فيه مديرا أو رئيسا أو حتى زوجا ورب أسرة، أو شيخا أو قسا، وذلك بسبب النظم الاجتماعية والسياسية والتعليمية وغيرها التي تعانى من التخلف، وكما هو معروف فإن أهم شيئاً في المجتمعات صانعة الطغاة هو التخلف عن ركب الحضارة، ومن يقول إن هتلر لم يكن يعيش في هذا العالم المتخلف، أقول له بأنه يعد إفرازا لفترة استعمار وحروب وتحول غير عادية، وعندما تجاوزت المجتمعات الغربية حالة التخلف هذه اختفت هذه المسألة تقريبا).

وعن كيفية مواجهة الطغاة يقول د. نعيم: (لابد من الثورة على كل النظم التي ترسخ لصناعة الطاغية والطغاة ومن يستفيدون من وجودهم).

ولقد كان أرسطو من أوائل الفلاسفة الذين قاموا بمعالجة مصطلح المستبد وفرقوا بينه وبين الطاغية، واعتبره إحدى مراتبه، حيث يرى أنهما وسيلتان لحكم الرعايا كالعبيد. فالاستبداد عنده يعني خضوع المواطنين للحاكم بإرادتهم، فقط لأنهم خلقوا عبيداً، بينما الطغيان اغتصاب السلطة في المدينة، حيث يقوم بها شخص شرير، مستخدماً مجموعة من الجنود المرتزقة، لينغمس الطاغية في إشباع شهواته دونما اكتراث لعرف أو قانون، مشيدا حكمه على القهر، وحاميا له بسفك الدماء وانتهاك الأعراض.

ويرى عبدالرحمن الكواكبي أن الطاغية يقترب من التأليه! حيث يرهب الناس بالتعالي والتعاظم وطغيان شخصيته على مؤسسات الدولة، ولعل فرعون موسى أبرز مثال على ذلك، قال تعالى: {وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى و إني لأظنه من الكاذبين – القصص/ ٣٨)}.

يقول في طبائع الاستبداد: (ما من مستبد إلا ويتخذ صفة قدسية يشارك بها الله، أو تعطيه مقاماً ذا علاقة بالله تعالى).

سيكـولـوجيـة الطـاغيـة

يتفق علماء النفس والسلوك على أن للطغاة شخصية مشتركة وصفات وقواسم متشابهة، وظروف اجتماعية متقاربة، أطلق عليها معظمهم "الشخصية البارونية" ملوثة بسمات سيكوباتية نرجسية، فالشخص الباروني يعيش في الغالب طفولة مضطربة تتسم بجفاف العلاقة مع الأبوين، ورصد علماء النفس قسوة الأم وضعف سلطة الأب في حياة العديد من الشخصيات البارونية، وفي مثل هذه الحياة الأسرية القاسية يفتقد الطفل للحب والأمان وينغرس في وعيه أن العالم المحيط به يتسم بالعدوانية والقسوة، وما بين افتقاد الحب والحنان وبين حياة القسوة والغلظة تترسخ في شخصيته ردة فعل قائمة على حماية نفسه بنفسه من خلال الاتسام بالقسوة والغلظة.

وفي ظل الحياة في بيئة أسرية قاسية ومفككة ينشأ الطفل/ الطاغية على الاعتقاد على أن التعاون مع الآخرين غير مجدٍ وأن لا يمنح ثقته لأحد، ثم لا يلبث أن يستبد برأيه ويستخف بما عدا شخصه، ويعتقد أنه وحده صاحب الحقيقة، وعندما يشتد عوده يكون حساسا من الآخرين ويعتقد أنهم لا يحبونه أو يحترمونه وأنهم دائما يحملون نوايا شريرة تجاهه.

ثم ما يلبث أن يحتقر العواطف والخصال التراحمية كالحب والتسامح وكافة أنواع التعاطف لتحل محلها قيم القوة والاستحواذ والتملك والانفراد، ويخوض على أساسها التنافس والصراع حتى مع أقرب الناس إليه، ويسخر كل إمكانياته للفوز في هذه الصراعات، ويتسم سلوكه بالعدوان الاستباقي والوقائي، مبررا ذلك بحماية نفسه من الأذى المتوقع من الغير، ثم بوعي وبدون وعي يبدأ في رسم الخطط وخوض الصراعات التي تمكنه من الفوز بمركز اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو بيروقراطي يتيح له ممارسة القوة

والسيطرة والانتقام والتشفي ضد معظم الناس بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

وما أن يشتد عود الطاغية ويبلغ مبلغ الرشد حتى يكون قد أصبح مبالغا في تقدير ذاته وقدراته ويصبح لديه شعور بأهميته وعظمته، في مقابل تسفيه الآخرين والنيل منهم، ويصبح شديد الحسد والغيرة والغل.

كل هذه الصفات والخصال تجعل الإنسان الباروني شخصية معزولة ومنعزلة وشخصا منبوذا من قبل الآخرين، ويسبب هذا الوضع عائقا أمام طموحاته النفعية الأنانية، فيبدأ باكتساب سمات سيكوباتية نفعية جديدة كالكذب والخادع والنفاق، وفي المجتمعات الدينية يمارس التظاهر بالالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية لكسب مودة الناس واحترامهم حتى يحقق بهم أهدافه وغاياته النرجسية.

مع اكتمال شخصية الإنسان الباروني ومع احتلاله لموقع قيادي فإنه يندفع نحو تحقيق حلمه بالقوة والسيطرة والتميز ويتمكن بما يمتلك من إمكانيات شخصية (كاريزما) أو مادية (مال) أو اجتماعية (نفوذ) من إيجاد أتباع له ينتفعون به وينتفع بهم على شرط تمجيده واتباعه اتباعا مطلقا، وعندما يكون الإنسان الباروني رئيس دولة مثلا فإن أتباعه ومناصريه يصلون إلى حد شبه تقديسه ويلاحظ ذلك في الدول الديكتاتورية التي تتميز بتعليق صور الرئيس في معظم أنحاء البلاد، ونحت التماثيل التي تجسد هيأته، وكتابة أقواله و أفكاره ونشرها في الميادين والأماكن العامة، أما هو فإنه يعتبر هزائمه انتصارات (صدام حسين مثلا) وثورة الشعب عليه مؤامرة كونية (بشارالأسد مثلا).

إن السلطة المطلقة تبرز وتنمي ما يعاني منه الطاغية من أمراض روحية ونفسية، ليصبح إنسان شديد الغدر والحسد والظلم، وأكثر ميلا للعدوانية وممارسة قهر الآخرين، لا سيما الذين يراهم أفضل منه واعلى مكانة من شخصه.

إن الطاغية يستبيح بكل بساطة دماء وأعراض الناس لأنه يراهم في بعض الأحيان أقل منه في الإنسانية والمكانة، وفي أحيان أخرى يراهم أفضل منه فينتقم منهم بما يمتلك من قوة وجبروت، وهو دائم الشك في الآخرين حتى أقرب المقربين منه، فالجميع متهمون بمحاولة الإطاحة به أو النيل منه حتى تتبث براءتهم، ولذلك فإن من سلوكه الدائم وسياسته الثابتة القضاء على البارزين ممن هم حوله وأصحاب الكفاءات والمهارات، بقتلهم أو سجنهم أو نفيهم، حتى لا يشكلوا خطرا محتملا على سلطته المطلقة.

ولكونه لا يتلزم بعرف أو قانون ما عدا العرف والقانون الأقوى من سلطته فإنه دائم الجنوح نحو الفوضى والاضطراب ويقود بلاده نحو المغامرات السياسية والعسكرية الطائشة والمجنونة (صدام حسين – هتلر).

ونظرا لخطورة و اقع الطغاة والطغيان على الحضارة الإنسانية ولما كان الطغاة والديكتاتوريين والمستبدين يتولى أغلبهم مناصب سياسية عليا فقد اقترحت الجمعية العالمية للطب النفسي، إجراء فحوصات نفسية شاملة لمن يتولون مناصب قيادية على مستوى العالم تحت إشراف الأمم المتحدة بواسطة لجان علمية نزيهة ومحايدة، للتقليل من مخاطر الحكام الشموليين والحكومات التولتارية ولتزويد المنظمات السياسية الدولية بمعلومات شخصية عن رؤساء الدول وطبيعة الحكومات التي يقودونها، حتى تتمكن من التعامل معها بم يكفل تقليل مخاطر نشوب الحروب و انتهاكات حقوق

الإنسان، إلا أن هذا الاقتراح ووجه برفض عارم ولم يقبل من طرف الكثير من دول العالم.

****

ونستعرض في الصفحات القادمة من هذا الكتاب أعتى الطغاة الذين ظهروا في سجلات التاريخ البشري، ونبدأ بأبرز طغاة التاريخ القديم (ما قبل وبعد الميلاد) وذلك في الصفحات التالية.

تيبيريوس (٢٠٤٢ ق. م – ٣٧م).

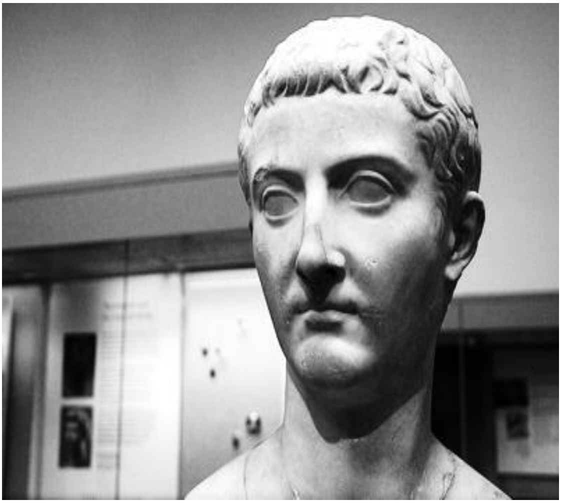

هو الإمبرطور الروماني الثاني (١٤م - ٣٧م). ولد السنة الـ ٢٠٤٢ ق.م، وقد تنبأ واحد من معلميه وهو تيودروروس الجادراني بمستقبله حين قال عنه أنه "طين معجون بالدماء"، وعلى الرغم من الإنجازات الكبيرة التي لا تنكر في عهده إلا أن جانب كبير من سيرته مشوبة بسفك الدماء والطغيان والقهر والجبروت، فقد كان يهوى هتك الأطفال! ويطارد سيدات روما! وكان يتمتع بتعذيب الآخرين ليكونوا وقودا لمزاجه الدموي. وكان شخص انطوائيا وكئيبا، حتى قال عنه الإمبراطور الروماني الأول "أغسطس": (يا لروما المسكينة التي سوف يحكمها هذا الإنسان الكئيب).

يقول الباحث أشرف صالح محمد سيد في بحثه *الحياة الخاصة للإمبراطور الروماني تيبيريوس*:

(وكان اسمه تيبيريوس كلوديوس، وعدد رعاياه مائه مليون نسمة. ولقد كان طاغية بخيلاً، منحرفًا، سفاكًا للدماء، ولكن الإمبراطورية الرومانية استقرت في عهده وازدهرت اقتصادياتها).

(عاش حتى سن الكهولة وفي نهاية عمره كان مكروهًا من كل إنسان على قيد الحياة، أساءت السلطة الرومانية كثيرًا إلى سمعته بوجه خاص كما لم تفعل مع أي إمبراطور روماني آخر، على الرغم من أنه كان جديرًا بمنصبه، وأعتقد في رأيي المتواضع أن حياة تيبيريوس الخاصة كان لها أكبر الأثر على أفعاله الشاذة في الإمبراطورية من هتك للأطفال، وعلاقات شاذة بالجواري والغلمان، حتى مخادع الجنس في جزيرة كابري).

(بذلك بدأ تيبيريوس حياته الجديدة كإمبراطور، ولكي يأمن على عرشه وحياته فإنه راح يبحث عن الأشخاص الذي يحتمل أن يتطلعوا إلى العرش، ثم أخذ يقتلهم واحدا بعد الآخر).

(وفي عام ٢٦م انعزل تيبيريوس عن روما في جزيرة كابوري بالقرب من نابولي، وفي كابري، كان الإمبراطور قد بلغ السابعة والستين من عمره. وبدأت صورته تتغير إلى الأسوأ، فراح يقبل على المتعة بشراهة لأنه شعر أن العمر يكاد أن يفلت من يديه، فكانت الشيخوخة قد بدأت تترك بصماتها عليه، فبدأ وزنه يهبط وراحت البقع تكسو وجهه، وصار إمبراطورا على هذه الجزيرة. أما مقاليد الحكم فكانت في يد سيانوس، حيث ركز الإمبراطور كل همته في كابري، فبنى هناك اثنتي عشرة فيلا وحدائق ومخازن للخمر وكهوفا صناعية وبحيرات وكذلك مخادع للجنس، وكانت الرسل تبحث في أنحاء الإمبراطورية عن الر اقصين والر اقصات وتبعث بهم على كابري.

فلم يكتفِ تيبيريوس بالاستمتاع مع الجواري بالجنس ومع السبايا والصبية، وإنما كان يمارس الجنس مع الأطفال الذين كان بعضهم لم يبلغ الفطام، كما راح يهتك أعراض السيدات الرومانيات من النبيلات، وقد تحدثت قصص كثيرة عن حياته العابثة في كابري، ولا شك في أنه لم يتمتع بقواه العقلية كاملة في السنوات الأخيرة من حياته).

(وعندما بلغ الإمبراطور السبعين من عمره، كانت الشيخوخة قد بدأت تتغلب عليه، فازدادت نحافة جسمه، أما وجهه فقد كانت تكسوه البقع والتشوهات، وكانت التماثيل التي تصنع له تصوره في وجه مبتسم وكأنه أصغر سنًا، وكان ذلك منافيا للحقيقة، أما هو فلم يكن يتردد في اصطياد أفراد حاشيته وأصدقائه ليصبحوا وقود لمزاجه الدموي الرهيب، وبلغ من قسوته أنه كان يحرم على أقارب ضحاياه أن يبكوهم أو يحزنوا عليهم، فقد كانت السجون في كابري مليئة على الدوام وعمليات التعذيب والإعدام تدور في كل الأيام وحتى أيام العطلات والأعياد ورأس السنة، ولم يكتف الإمبراطور بأنواع التعذيب المعروفة، وإنما كان يستدعي الخبراء والعارفين في ذلك الفن ويكلفهم بابتكار أنواع جديدة منه، وكان هو نفسه يبتكر أنواعا جديدة عندما كانت ابتكاراتهم لا ترضيه، ومثال ذلك أنه كان يدعو عنده من يريده هو بعينه وذلك ليشرب معه النبيذ ويظلون يشربون حتى الثمالة، ثم يأمر بربط عضوهم الذكري التناسلي بنوع من الحبال المتينة القوية وأن يُحكم الربط، فيظلون في هذا العذاب إلى أن تنفجر المثانة ويموتون).

(ولقد تلقى الإمبراطور دعوة لحضور حفلة للمتصارعين في إحدى المدن فعبر إليها، وفي أثناء الحفلة أراد أن يظهر بصحته وذلك بعد ظهور علامات الشيخوخة والكبر عليه، فتناول بعض الحراب وقذف بها خنزيرًا بريًا. ولكن قذف الحراب كان أكبر من طاقته، فلا يتناسب ذلك المجهود مع كبر سنه،

فكان نتيجة ذلك أن انخلع كتفه، ونُقل تيبيريوس إلى بيت قريب وراح يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وقال طبيب البلاط: إنه لن يستطيع العيش أكثر من يومين، و انتشر هذا النبأ على الفور، فطار كاليجولا - وريثه على العرش– إلى هناك و انتزع الخاتم من إصبع تيبيريوس، ثم خرج يتلقى التهاني على كونه الإمبراطور الجديد، وكان ماكرو هو أول المهنئين لكاليجولا على هذا المنصب، وفجأة انقلب الحال؛ فقد فتح تيبيريوس عينيه و أفاق مما كان فيه، فلم يكن الرجل الذي يموت بهذه السهولة، وراح يطلب شيئًا يأكله، وعندما علم كاليجولا بما حدث هرب وراح يبحث عن مكان يختبئ فيه، فلم يتوقع مصيرا آخر لنفسه غير الموت.

وكان هناك من لا يعجبه ما حدث وهو ماكرو الذي اندفع لحجرة تيبيريوس، حيث رآه جالسا على الفراش يزمجر غاضبًا ويتساءل: من الذي سرق خاتمي و أين الأطباء والحاشية و أين الطعام الذي طلبته؟ وكان جواب ماكرو بيديه، حيث اندفع نحو الفراش وجمع عدد من البطاطين ثم ألقى بها فوق رأس تيبيريوس وراح يضغط عليه بكل قوته، ولم يتركه إلا بعد أن تأكد من أنه لن يعود بعد ذلك مرة أخرى للحياة).

وهكذا، في ١٦ مارس عام ٣٧م مات الإمبراطور "تيبيريوس كلوديوس نيرو" قتيلاً، عن عمر يناهز الثامنة والسبعين بيد أخلص أتباعه، فكان ماكرو هو الذي أسدل الستار على حياته.

وبهذا توفي أحسن المصلحين الرومانيين الذي خرجت له المظاهرات في روما بعد سماع خبر وفاته تهتف في فرحة وتطالب أن يلقوا به في النهر "ألقوا بتيبيريوس اللعين إلى نهر "التيبر"، وبينما كانت الاحتفالات بتأبين تيبيريوس جاءت الأنباء الرهيبة من كابري، حيث كان هناك عدد من الضحايا الذين

ينتظرون الإعدام، فقد ظن الجميع عندما أعلن موت تيبيريوس أن نجاة هؤلاء الضحايا مؤكد، ولكن الموظفين الموكلين بتنفيذ الإعدام كان لهم رأي آخر، حيث أفتى هؤلاء بأن الذي يملك حق العفو عنهم هو الإمبراطور تيبيريوس وقد مات، أما كاليجولا فإن مراسم ارتقائه العرش لم تكن قد تمت ولذا فإنه لا يملك حق العفو عنهم، وفي المواعيد المحددة تم إعدام الضحايا واحدا بعد الآخر، وصاح الشعب "لقد مات السفاح ولكن قسوته لم تمت معه".

من أقواله: (من بعدي فلتأكل النيران الأرض).

كاليجولا (١٢م – ٤١ م).

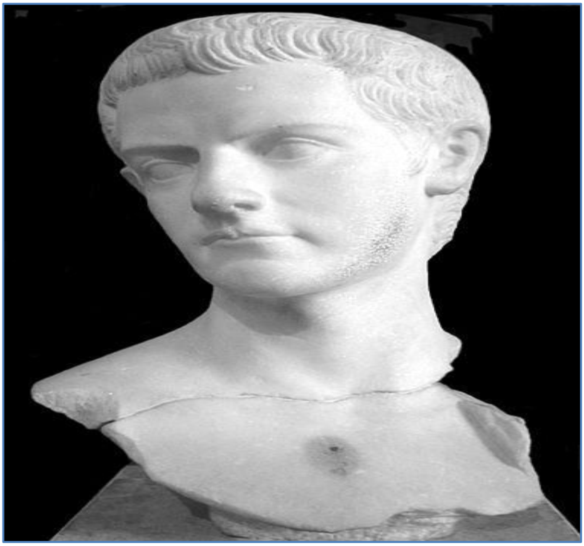

ولد في العام الثاني عشر للميلاد، اسمه الحقيقي هو جيوس، وهو الثالث من بين ستة أشقاء، نشا في بيت ملكي و تمت تربيته بين العسكر، أطلق عليه اسم (كاليجولا) أي: الحذاء الروماني لأنه كان يلبس حذاء صغير من صنع والدته، ولكنه ظل يحمل هذا الاسم حتى نهاية حياته.

في السابعة من عمره، توفي والده اثر عودته من إحدى الحملات العسكرية، ويعتقد بعض المؤرخين إن الإمبراطور طبريوس، هو الذي قام باغتياله لخوفه من منافسته له على العرش بسبب أصله النبيل وشعبيته الكبيرة على مستوى الجيش والشعب، وعلى اثر ذلك انتقل كاليجولا للعيش مع والدته وإخوته، وبسبب تدهور العلاقة بين والدته وبين الإمبراطور طبريوس أمر الإمبراطور بإعدامها ونفي أحد إخوته وسجن آخر وقتله تجويعا،

وكان ذلك في إطار انتقام الإمبراطور من عائلات الذين اتهمهم بالتآمر على العرش والخيانة.

و إثر إعدام والدته وشقيقه، انتقل كاليجولا مع إخوته الثلاثة المتبقين للعيش في جزيرة كابري التي أصبحت في الوقت نفسه مقرا للإمبراطور طبريوس الذي انتقل إليها عام ٢٦ للميلاد، وهناك تمكن من الالتحاق بعمل في قصر الإمبراطور، ومما يثير دهشة المؤرخين أن الإمبراطور لم يقدم على قتله، على الرغم مما فعله في عائلته، و يرجحون بأن السبب في ذلك يعود إلى براعة كاليجولا الكبيرة في التملق والتذلل، فرغم أن الإمبراطور قتل والديه وإخوته، إلا أن كاليجولا كان بارعا في إخفاء مشاعر الكراهية التي يكنها تجاهه والتظاهر بأنه خادم مخلص ومطيع، حتى أن الإمبراطور قال عنه ذات مرة: (ليس هناك خادم أفضل و لا سيد أسوأ من كاليجولا).

علاوة على ذلك فانه خلال السنوات التي قضاها في خدمة عرش طبريوس تمكن كاليجولا من توطيد علاقاته مع كبار رجال القصر، في مقدمتهم ماركو رئيس الحرس الإمبراطوري، الذي كان من أسباب عدم إقدام الإمبراطور على إعدامه، حيث كان يمتدح ولاءه وإخلاصه أمامه حتى يزيل في نفسه أي دافع للأمر بإعدامه.

في العام الخامس والثلاثين للميلاد، ابتسم الحض لكاليجولا، فابن الامبرطور الوحيد توفي ولم يكن له من الذرية سوى حفيد لم يبلغ الحلم، وكان معظم رجال العائلة المالكة أما متوفيين أو قتلى، وأصبح أحد المرشحين لتولي عرش الإمبراطورية الرومانية، وفي العام السابع والثلاثين كان الإمبراطور طبريوس أسيرا للمرض، ووفقا لرو ايات بعض المؤرخين فإن كاليجولا وبعض أتباعه عجلوا بوفاته بإرسال أحد الجنود الذي قام بخنقه بوسادة نومه.

ولكون جميليوس حفيد الإمبراطور الراحل لا يزال صغيرا فقد نودي على كاليجولا إمبراطورا، وقد استقبله الشعب الروماني بالترحيب، ووفقا لرو ايات بعض المؤرخين فقد استمرت احتفالات تنصيب كاليجولا ما يناهز الثلاثة شهور، أقيمت خلالها المهرجانات الراقصة والصاخبة، ونظمت مسابقات المصارعة الرومانية التي اشتهر بها الرومان، وتمت التضحية بأكثر من ١٦٠ ألف حيوان تقربا وشكرا للآلهة، وقد أجمع جميع المؤرخين بأن الشهور السبع الأولى من حكم كاليجولا كانت في غاية السعادة والهدوء، فقد قام كالجولا بتخفيض الضرائب على المواطنين الرومان، وقام بتوزيع الأموال على الفقراء، و أقام المهرجانات و الاحتفالات الضخمة ليسعد الجماهير، كما قام بإلغاء المحاكم التي أقامها الإمبراطور طبريوس للنبلاء والتي يتم بموجبها إعدامهم ومصادرة أموالهم.

إلا أن سعادة و غبطة روما بإمبراطورها الجديد لم تدم طويلا، ففي أكتوبر من عام ٣٧ للميلاد، مرض الإمبراطور كاليجولا فجأة وسقط صريع الفراش، وأصبحت حالته وخيمة حتى أيقن البعض بهلاكه، وخيم الحزن على روما بسبب مرض إمبراطورها الحبيب، ومع أن المؤرخين لم يذكروا طبيعة المرض، هل هو جسدي أو عقلي إلا أن المؤرخ فيلو، وهو من المعاصرين لكاليجولا، قال بأن إفراط الإمبراطور في الاستحمام وشرب الخمر وممارسة الجنس كان هو السبب الرئيسي لمرضه، كما كان كاليجولا يعاني من الصرع منذ طفولته، ولو أن كاليجولا توفي في مرضه هذا لكتبت سيرته بالذهب! ولكان من أجمل حكام أثنيا، إلا أن جسده تعافى من مرضه وعاد للحياة مرة أخرى، إلا أنه لم يكن ذلك الإمبراطور الذي أحبه شعبه، فقد تغير كليا عما كان في ديباجة عهده، في بداية الأمر أصبح نومه قليلا بسبب معاناته من الأحلام المزعجة والكوابيس المرعبة، حتى طبعه الهرب من غرفته وهيامه

على وجهه داخل قصره بانتظار طلوع الشمس كل صباح، ثم إنه أصبح قاسيا وساديا، ومن هنا بدا مسلسل الدم والطغيان في حياته.

إن غلب المؤرخين يتفقون على أن المرض الشديد الذي أصابه كان السبب الرئيسي لهذا التحول التناقضي في سلوك كاليجولا، حيث تسبب له بمرض عقلي غامض جعله بهذه الوحشية التي لم تعهد منه خلال سنوات حياته الماضية، خاصة وانه كان يعاني من مرض الصرع، إلا أن مؤرخين آخرين يعتقدون إن المرض لم يكن السبب الوحيد، فقد عانى كاليجولا من طفولة حزينة، وتخللها وقوفه على الصراعات الدامية على الحكم والتنازع الدموي على المراكز القيادية في القصر والدولة الرومانية، وعندما كان يعمل في بلاط الإمبراطور طبريوس كان يحضر معه مهرجانات القتل والجنس الجماعي، ولا شك إن هذه العوامل ساهمت في ظهور شخصيته على حقيقتها عندما تولى السلطة.

أولى جرائمه التي دونها التاريخ قتله لجيمليوس، حفيد الإمبراطور طبريوس وولي العهد، ثم قتل عدد من أفراد البلاط المخلصين له، كما قام بنفى زوجته وأجبر والدها على الانتحار، كما أرغم جدت على قتل نفسها!

قام باغتصاب زوجة ماركو (الذي أصبح صديقا له وأكثر قادة البلاط قربا له) أمام عينيه، وجعله قوادا عليها في أحد بيوت الدعارة التي شيدها داخل القصر الإمبراطوري، ثم قتله شر قتلة، كما قام بإجبار أشراف روما على إرسال نسائهم وبناتهم إلى بيوت الدعارة للعمل فيها.

كما وأجبر الأغنياء منهم على تغيير وصاياهم وكتابة وصايا جديدة بموجبها تذهب جميع ثروتهم لخزينة الدولة، وكان في بعض الأحيان يأمر بقتل بعض الأثرياء كي تنتقل أموالهم إلى الخزينة سريعا دون الحاجة لانتظار موتهم، وكان يبرر ذلك بعبارة شهيرة جدا: (أما أنا فأسرق بصراحة).

ويذكر التاريخ: إن كاليجولا أصبح مهووسا بانتهاك المحرمات، حيث كانت تربطه منذ سن المراهقة علاقة جنسية محرمة مع أخواته الثلاث، وكانت علاقته الجنسية مع أخته دورسيلا على كل لسان وفاكهة مجالس روما، ويذكر المؤرخون بأنه كان هائما بها وكان ينوي إنجاب طفل منها لتوريث ابن تجري في عروقه دماء ملكية نقية على غرار الفراعنة الذين كانوا يتزوجون من أخواتهم.

وقد كان كاليجولا يهوى اغتصاب النساء أمام أعين أزواجهن أو عائلتهن، بل كان يجبرهم أحيانا على العمل كقوادين لهن، و لم تكن هناك امرأة جميلة في الإمبراطورية تسلم من شبقه وهوسه الجنسي، وقد كان يغتصب أي امرأة يعجب بها، بغض النظر عن درجتها الاجتماعية أو عائلتها ثم يقتلها بعد أن يمل منها.

في عهده حدثت مجاعة كبيرة في روما راح ضحيتها المئات، من أسبابها إسرافه وتبذيره وعبثه بأموال الدولة وقوت الشعب، فقد أمر في عام ٣٨م بجمع كافة السفن الموجودة في روما وإنشاء جسر عليها يربط بين ضفتي مضيق نابولي، بطول أربعة كيلومتر وثمانمائة متر، ثم قام بعبور الجسر ممتطيا جواده، وقد اختلف المؤرخون في الغاية من بنائه، حيث ذهب بعضهم إلى أنه أراد أن يبر بقسم قديم قطعه على نفسه في حال أصبح إمبراطورا، وآخرون قالوا أنه أراد أن يتشبه بالآلهة! وقد أدّى إنشاء هذا الجسر إلى نفاد الحبوب من المخازن لأن السفن التي كانت تستخدم في نقل الحبوب من مصر إلى روما استخدمت في إنشائه.

وكان يقيم احتفالات ضخمة بمناسبة وبغير مناسبة، كما أهمل واجباته كإمبراطور، مما أدّى إلى ضعف موارد الدولة وخواء الخزينة.

ونتيجة ذلك اضطر كاليجولا إلى إعادة المحاكم التي أنشأها سلفه الإمبراطور طبريوس، والتي كانت متخصصة في محاكمة النبلاء والأغنياء بتهم مختلفة بغرض الحصول على أموالهم، وقد نقل المؤرخون رو اية طريفة بهذا الخصوص، حيث إعدم كاليجولا أحد أشراف روما ثم تبين بأنه مفلس فقال متأسفا: آه.. يا للأسف، أزهقت حياته بدون فائدة.

لقد أنشأ كاليجولا فلل دعارة في القصر الإمبراطوري، وهو عمل لم يسبقه إليه أحد، وكان ريعها يذهب إليه، وقد اتهمه بعض المؤرخين بأنه كان يؤجر حتى نسائه وأخو اته لممارسة الجنس مقابل المال.

وأمر كاليجولا بإقامة مباريات قتال دموية في حلبة المصارعة الرومانية، حيث يرمى المصارعين في الحلبة لنزال الأسود أو النمور حتى الموت، وكان يراهن عليها بالمال ويلعب على نتائجها بالقمار، ويروى أنه في إحدى المرات وعندما لم يبقَ أي مصارع يقاتل الحيو انات المفترسة أمر باختيار أشخاص عشو ائيين من المتفرجين وإجبارهم على النزول للحلبة.

ومما يروى في سيرة طغيانه المجنون أنه أمر ببناء بيت فخم لحصانه المفضل -انكيتاتيوس- وألبسه ثيابا فاخرة مرصعة بالجواهر، وأن يقوم على خدمته عدد كبير من الخدم، وأجبر نبلاء روما وأشر افها على الحضور إلى حفلات ضخمة كانت تقام على شرف الحصان، و كان يشاركه الطعام على نفس المائدة! و أنه كان ينوي جعل حصانه عضوا في مجلس الشيوخ الروماني إلا أنه مات قبل ذلك!

وذات مرة ادعى أن أيامه معدودة لأنه أصيب بمرض خطير، فبادر رجاله بإعلان ولائه له والدعاء له بالشفاء، وأعلن بعضهم استعدادهم التضحية من أجله، ونافقه أحد رجاله بأنه على استعداد لأن يقدم نفسه أضحية لإله البحر "بوسيديون" مقابل شفائه، وأعلن آخر أنه نذر للآلهة

١٠٠ عملة ذهبية في سبيل شفائه، وبعد عدة أيام خرج عليهم كاليجولا وبشرهم بأنه قد شفي! وأجبر الرجل الأول على قتل نفسه وتقديمها قربانا للآلهة! وأجبر الثاني على الوفاء بنذره وأخذ منه ١٠٠ عمل ذهبية!

ومن المضحكات المبكيات المذهلات في حياة كاليجولا ما اتهمه به بعض المؤرخين من أنه عندما أراد أن يشعر بقوته وأن كل أمور الحياة بيديه أمر بافتعال مجاعة في روما، حتى يستلذ برؤية الناس وهي تعاني من الجوع والعطش، وحتى يشعر بأنه الوحيد القادر على إنهاء معاناتهم وان أمرهم بيده.

وقد بلغ به الأمر أنه مر باكتئاب مزمن لأنه لم يكن قادرا على الوصول إلى القمر! وجعله تحت تصرفه! وعانى من الحزن الشديد لأنه ليس لديه القدرة على إجبار الشمس على الشروق من الغرب ومنع الكائنات من الموت إلا بأمره!

ويقال إنه في الفترة الأخيرة من حكمه القصير، ادعى كاليجولا الربوبية، وطلب أن يتخذ إلها، وقد أمر ببناء معبد فخم له في روما، وضع فيه تمثالا منحوتا على هيئته من الذهب الخالص وأمر سكان روما بعبادته، كما أمر بنصب تماثيله في بقية المدن الرومانية حتى يعبده الناس.

ومما يروى عنه أنه في يوم ما رأى أحد رجاله يتناول عقارا فظن أنه يتناول دواء مضادا للسم خوفا من غدره به، فأمر به فقتل لشكه في ولائه!

ومن طرائف طغيانه أنه جاء إلى مجلس الشيوخ على ظهر حصانه تاتنوس، ولما أبدى أحد الأعضاء اعتراضه على هذا السلوك أجابه كاليجولا: (أنا لا أدري لم أبدى العضو المحترم ملاحظة علي دخول جوادي المحترم رغم أنه أكثر أهمية من العضو المحترم فيكفي أنه يحملني).

ثم أصدر امرأ بتعيين الجواد عضوا في مجلس الشيوخ! وأمر بفصل النائب الذي اعترض على دخوله! ثم إنه أمر بإقامة حفلة بهذه المناسبة! وعندما جاء المدعوون واغلبهم من أعضاء المجلس فوجئ بأن طعام المأدبة تبن وشعير! فقال لهم كاليجولا: إنه شرف عظيم لكم أن تأكلوا في صحائف ذهبية ما يأكله زميلكم حصاني تاتنوس!، وأذعن الجميع وتناولوا التبن والشعير! إلا واحدا يدعى براكوس، فغضب عليه كاليجولا وأمر بفصله على الفور!

وكان يرسل إلى النساء ممن يستهوينه أمرا بطلاقهن من أزواجهن!، وأنفق ذات مرة ما يعادل ملايين الدولارات على حفلة واحدة، وفي أواخر حكمه فرض الضرائب على كل المعاملات والمهن حتى الحمالين والعاهرات حتى لو تزوجن، وأمر بنفي الفلاسفة والمفكرين من روما لما يشكلونه من خطر على سلطته.

وفي العام الحادي والأربعين للميلاد رحم الله شعب روما بإزهاق روح طاغيتهم كاليوجولا، بعد أربع سنوات من الحكم الديكتاتوري المجنون، وذكر المؤرخون أنه قتل على يد حارسيه، وقيل في سبب قتلهما إياه، أنه في يوم ما سخر من حارسه الأول بتشبيه صوته بصوت امرأة! و أقدم على اغتصاب زوجة حارسه الآخر، وقد أضمرا الحقد عليه والاتفاق على الانتقام منه، وفي يوم ما كان كاليجولا يسير في أحد الممرات المظلمة في قصره فترصدا له وانهالا عليه طعنا وضربا وما تركاه إلا وهو قتيل غارقا بدمه، ثم ذهبا إلى زوجته وابنته فقتلوهما، وعندما انتشر خبر قتله لم يصدق البعض من قادته، لخوفهم من أن يكون ذلك لعبة منه حتى يقتل بعضهم كما فعل في المرات السابقة.

وهكذا انتهت حياة كاليجولا بهذه النهاية المرعبة والدامية بعد أن حكم روما حكما طاغوتيا دمويا ولم يخلف سوى بعضا من العبارات التي خلدها التاريخ له لتكون شاهدا على هذا الطاغوت التي لم تنجب البشرية له مثيلا ، من أشهرها: (إني إن لم أقتل أشعر بأني وحيد) (لا أرتاح إلا بين الموتى!) (سأحل أنا محل الطاعون).

نيـــرون (٣٧ م – ٦٨ م).

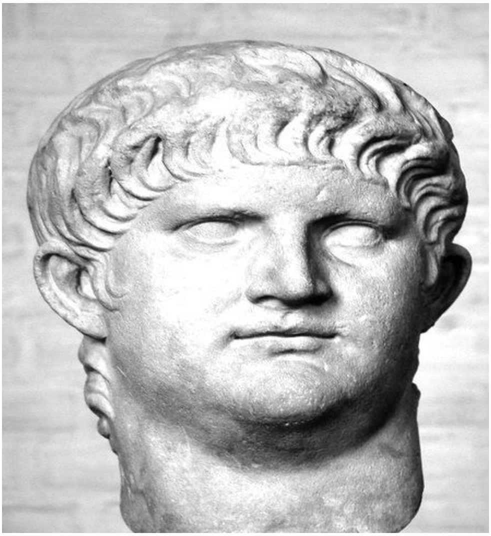

ولد عام ٣٧ م وتسلم الحكم في روما عام ٥٣ م، يقول المؤرخون: إنه نشأ فاسد الأخلاق سيئ السيرة، إلا أنه حاول في بداية حكمه تحقيق الاستقراروالرفاهية لشعب الإمبراطورية الرومانية، فخفض الضرائب ونظم عمل المحاكم وعزز حكم القانون، إلا أنه سرعان ما بدا ينحرف عن الاهتمام بشئون الحكم ليظهر على حقيقته كطاغية متغطرس، يقول المؤرخون إنه بدأ يتصرف كطاغية حقيقي منذ وفاة أستاذه بورس في ظروف غامضة، إذ تمكن بورس بفضل حكمته وقوة تأثيره أن يكبح جماح الطغيان في داخل نيرون، وبموته استولت غرائزه الشيطانية عليه وبدا بارتكاب الجرائم، أول جريمة ارتكبها قتله والدته "اغريبين الصغرى" حفيدة الإمبراطور الراحل كلوديوس.

يقول جواد الصيداوي في كتابه (الطغاة والطغيان في التاريخ):

(إن أغريبين الصغرى عندما رأت ابنها نيرون هاجما باتجاهها، والسيف بيده والجريمة تطل من عينيه صرخت قائلة: هيا ابقر البطن التي حملت الوحش).

وجاء في قصة الحضارة أن: (أمه كانت تصب في آذانه العديد من القصص عن الأباطرة والملوك الظالمين، الذين امتلأت فترة حكمهم بالمآسي بالفجور والطيش والإجرام وإنفاق الأموال في الرغبات الجامحة لتعذيب الناس، حتى أنها ذات مرة استدعت عرافاً مصرياً وسألته: هل سيتولى ابني نيرون العرش؟ فأجابها: نعم أيها الإمبراطورة ولكنه سيقتلك، فكان رد "أغربينا" بكل برود ليقتلني ابني لا يهم، ولكن المهم أن يتولى الحكم).

ثم قتل زوجته "أوكتانيا" ابنة الإمبراطور كلوديوس، بسبب تعلقه بامرأة ساقطة من عاهرات روما، وبعد والدته وزوجته انطلق يمارس جرائمه وطغيانه على جميع الناس من حوله، فقتل الأبرياء واستولى على أموالهم، وتآمر على رؤوس الدولة، وفرض جو من الإرهاب على الشعب الروماني، عبر تنفيذ مسلسل طويل من الاغتيالات السياسية، ثم حول حدائق القصر الإمبراطوري في الليل إلى وكر دعارة كبير.

قصة الحضارة: (امتدت الاغتيالات بعد ذلك في بحور دماء أراقها "نيرون" غير آبه بأحد.. ففي أحد الأيام نشب خلاف بينه وبين "بوبيه" (عشيقة له تزوجها بعد مقتل زوجته) مما دفعه إلى ضربها ضربا مبرحا حتى قتلها ثم أمر بإغراق ابنها.. وامتدت اغتيالاته بعد ذلك ليقتل أقرب المقربين منه، قائد جيشه الأمين "بوروس"، ثم قتل أصدقاءه و أقاربه وضباطه. كان السم هو الوسيلة السهلة التي دائما ما كان يستخدمها "نيرون" في عمليات اغتيالاته، و أيضاً قتل معلمه "سينيك").

ونتيجة للقمع الدموي الذي مارسه نيرون وأتباعه ضد الشعب الروماني، وبعد فشل كافة المحاولات التي قام بها أعيان وأشراف وحكام روما لإصلاح نظام حكم وشخص الإمبراطور نيرون، اجتمع مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ مع مجموعة من أشراف العاصمة الرومانية لوضع خطة للإطاحة بنيرون، إلا أن جواسيسه أعلموه بها وهو غارق في أحضان عاهراته!

ولإفشال المؤامرة ضده توصل إلى فكرة جهنمية، إحراق روما وفي خضم أحداث الحريق يقتل جميع الأسماء المتآمرة ضد العرش، وعلى رأسهم أعضاء مجلس الشيوخ، وفي ليلة الثامن عشر من تموز من عام ٦٤ م شب حريق هائل في روما التهم الأخضر واليابس، والزرع والضرع، ودمر العديد من أحياء روما التي تحولت بدورها إلى كتلة من الجحيم.

قدر القتلى بأكثر من مائة ألف إنسان، وكانت المنازل تهوي على رؤوس ساكنيها، وكان الهائمون على وجوههم خوفا من النيران يقتلون بنبال وسيوف جنود الإمبراطور الذي كان واقفا في شرفة قصره ينص إلى صراخ الأطفال وعويل النساء وصراخ المفجوعين الذي ملأ سماء روما.

بعد نجاح مؤامرته المضادة وقتله لمعظم المتآمرين ضد نظام حكمه، ولكي يقطع أي شك حيال تورطه في حريق روما، قام باتهام بعض المجموعات المسيحية بأنها من دبر الحريق، وأمر بإلقاء القبض على أتباعها وعددهم كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف شخص في تلك الحقبة التي تعتبر بداية ظهور المسيحية، ثم أمر بتعذيبهم، وكان يشرف بنفسه على ممارسة أصناف وألوان من التعذيب ضد المعتقلين، ثم أمر بكويهم بالنار وتقطيع أوصالهم وقتلهم.

ومن بقي منهم أمر بأن يرمى إلى الوحوش المفترسة وسلط حلبات المصارعة الرومانية الشهيرة، وكان يحضر مشاهد افتراسهم وكان يستقبل هو

و أتباعه المشاهد الدموية بموجة من الصخب الهستيري والصراخ الشيطاني وهم ثملون جراء شربهم المفرط للخمر.

وقد شجع حريق روما الطاغية نيرون على فرض المزيد من الضرائب، والاستيلاء على أموال الشعب بكافة الطرق والأساليب بحجة إعادة بناء روما التي منها قصره المذهب المنيف الذي أمر ببنائه مكان قصره القديم الذي كان حرقه حتى لا يشك فيه أحد.

وفي سنة ٦٥ م بدأت تحاك مؤامرة أخرى ضد نيرون، أبطالها بعض أعضاء مجلس الشيوخ الجديد الذي عينه نيرون بعد قتله لأعضاء مجلس شيوخ ما قبل حريق روما، وقد تحالفوا مع بعض الأغنياء والنبلاء، إلا أن نيرون اكتشف المؤامرة فأمر بإلقاء جميع المتآمرين للوحوش الضارية بعد تجويعها لمدة ثلاثة أيام، منهم أستاذه السابق "ستبيك" الذي أمر بتقطيع أوصاله قبل أن يرميه للوحوش الضارية.

بعد ذلك زاد نيرون في طغيانه وجبروته وسفكه للدماء، مما أدى إلى حمل السلاح من قبل جماعات عديدة من أهالي روما وقامت بقتل واغتيال الكثير من جنوده.

ونتيجة لذلك فقد زاد خوف نيرون وخشيته من الاغتيال فزاد شكه بمن حوله وارتفت حدة ممارساته الإرهابية والإجرامية ووصلت إلى رجال حاشيته وموظفي قصره والمقربين منه، إلا أن النهاية المحتومة التي لا بد أن يلاقيها كأي طاغية دموي متجبر بدأت، ففي عام ٦٧ م وبينما كان يتابع الألعاب الأولمبية وردته أنباء عن وقوع ثورة ضد نظام حكمه، فعاد إلى قصره سريعا لمعالجة الأمر.

إلا أنه فوجئ بورود أنباء عن وقوع انتفاضة ثانية في فرنسا وثالثة في إسبانيا، ولم تمض أيام معدودة إلا والثوار يهاجمون روما من عدة جهات.

حاول نيرون تنظيم قادة الجيش إلا أن معظم كبار الدولة تخلوا عنه، وأصدر الجيش ومجلس الشيوخ بيانا اعتبروا فيه نيرون العدو الأول للإمبراطورية الرومانية، وهكذا وجد الطاغية نفسه وحيدا دون أي مناصر أو معين، حتى عاهرات روما اللواتي ازدهرت تجارتهن في عهده واحتللن مكانة رفيعة في ظل حكمه تخلين عنه وتركنه لمصيره المحتوم، فاضطر للهرب من روما إلا أنهم ظلوا يتعقبونه في كافة أنحاء الإمبراطورية، وخوفا من أن يقع في أيديهم وأن يقوموا بتعذيبه بوحشية مثلما كان يفعل مع معارضيه أقدم على الانتحار بأن طلب من أحد مرافقيه طعنه بخنجر في نحره، وذلك بعد موجة من الخوف الهستيري من الموت، ثم أكمل بقية مرافقيه من الجنود الإجهاز عليه وقطعوه بسيوفهم ورموا أشلاءه للكلاب.

وهكذا انتهت حياة هذا الطاغية الدموي عام ٦٨ م بعد أن دمر وطنه وقتل مواطنيه ونشر الرعب والدمار في كل أرجائه.

من أقواله: (أنا نيرون الجبار أقتل من أشاء، وأملك من أريد، و أقطع الأعناق وأسفك الدماء، فالأرض التي أحكمها لا تغيب عنها الشمس، والناس جميعاً تخضع مشيئتي، لأني سيف حاد يقصم ظهورهم، ونار هائلة تحرق أجسادهم).

النمـــرود.

وردت شخصية النمرود بالاسم والإشارة في الكتابين المقدسين التوراة والقرآن الكريم، ففي التوراة ذكر في باب (أنساب) في سفر التكوين. فصل (جدول الأمم) وأنه ابن كوش، حفيد حام، وابن حفيد نوح؛ وبأنه «ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ، الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ».

إلا أن النمرود يذكر ببعض التفصيل في كتب اليهود الأخرى مثل "التلمود" و"المدراش " و"تاريخ يوسيفوس"، فالتلمود يربطه بشخصية الملك امرافيل الذي كان حاكما أيام إبراهيم، ويذكر كتاب "اليوبيلات" أن نمرود من أجداد إبراهيم، وبالتالي أحد آباء اليهود، أما تاريخ "يوسيفوس" فيصفه بأنه باني برج بابل ومتحدي عبادة الله.

وفي التراث الإسلامي وردت سيرة النمرود في العديد من كتب المفسرين والمؤرخين العرب والمسلمين، والمتفق عليه بين المسلمين أنه كان جبارا في الأرض، و أنه أحد ستة ملوك ورد ذكرهم في القرآن الكريم (فرعون – طالوت - دو القرنين – النبي سليمان - بلقيس) وكانت حاضرة ملكه في بلاد الر افدين، و أنه أول ملك في التاريخ وضع التاج على رأسه، و أنه من مدعي الربوبية.

جاء في نصوص التاريخ: إن الملك النمرود (رأى في المنام يوما كوكبا ظهر في السماء، فغطى ضوء الشمس، فسأل حكماء قومه، فأخبروه بأن ولدا سوف يولد هذه السنة ويقضي علي ملك، فأمر بقتل جميع الأولاد الذين يولدون هذه السنة... وفي تلك السنة ولد سيدنا إبراهيم، فخافت عليه أمه فخبأته في سرداب وكان الله يرعاه، فلما كبر أكثر من الآخرين، حتى إذا بلغ عمره سنة واحدة، يحسب الناس أن عمره ثلاث سنوات، وبذلك استطاعت أمه إخراجه من السرداب ولم يتعرض له الملك).

قال ابن الأثير في "الكامل في التاريخ": (ونرجع الآن إلى خبر عدو الله النمرود، وما آل إليه أمره في دنياه، وتمرده على الله تعالى، وإملاء الله له، وكان أول جبار في الأرض، وكان إحر اقه إبراهيم ما قدمنا ذكره، فأخرج إبراهيم -عليه السلام- من مدينته وحلف أنه يطلب إله إبراهيم، فأخذ أربعة أفرخ نسور فرباهن باللحم والخمر حتى كبرن وغلظن، فقرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت فأخذ معه رجلا ومعه لحم لهن، فطرن به حتى إذا ذهبن أشرف ينظر إلى الأرض فرأى الجبال تدب كالنمل، ثم رفع لهن اللحم ونظر إلى الأرض فرآها يحيط بها بحر كأنها فلك في ماء، ثم رفع طويلا فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه وما تحته، ففزع وألقى اللحم، فاتبعته النسور منقضات، فلما نظرت الجبال إليهن وقد أقبلن منقضات وسمعن حفيفهن فزعت الجبال وكادت

تزول ولم يفعلن، وذلك قول الله تعالى: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكانت طيرورتهن من بيت المقدس، ووقوعهن في جبل الدخان.

فلما رأى أنه لا يطيق شيئا أخذ في بنيان الصرح فبناه حتى علا وارتقى فوقه ينظر إلى إله إبراهيم بزعمه وأحدث، ولم يكن يحدث، وأخذ الله بنيانهم من القواعد من أساس الصرح فسقط وتبلبلت الألسن يومئذ من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا، وكان لسان الناس قبل ذلك سريانيا).

قال زيد بن أسلم: (إن الله تعالى بعث إلى نمرود بعد إبراهيم ملكا يدعوه إلى الله أربع مرات، فأبى، وقال: أرب غيري؟ فقال له الملك: اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع جموعه، ففتح الله عليه بابا من البعوض، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم فأكلتهم ولم يبق منهم إلا العظام، والملك كما هو لم يصبه شيء، فأرسل الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث يضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من يجمع يديه ويضرب بهما رأسه، وكان ملكه ذلك أربعمائة سنة، وأماته الله تعالى، وهو الذي بنى الصرح).

وجاء ذكر ما كان بين نبي الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وأحد الطغاة في القرآن الكريم، وتكاد تجمع كتب السيروالتواريخ أنه النمرود، قال تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفروالله لا يهدي القوم الظالمين - البقرة / ٢٥٨}.

قال زيد بن أسلم: (أول جبارفي الأرض كان نمرود، فكان الناس يخرجون ويختارون من عنده من الطعام ليأكلوا.. فخرج معهم مرة سيدنا "إبراهيم" عليه السلام ليختارمن الطعام مثل الناس..

وكان هذا الملك يمر بالناس.. فيسألهم: من ربكم؟ ويقولون: أنت، حتى مر بـ "إبراهيم" عليه السلام، فقال له: من ربك؟، قال: "ربي الذي يحيي ويميت" قال: "أنا أحيي وأميت"، قال "إبراهيم": "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.. فبهت الذي كفر".

فرده النمرود عن الطعام ولم يعطه شيئا.

قال ابن جرير: إنه ملك الأرض شرقها وغربها أربعة، مؤمنان وكافران..

فالمؤمنان هما سليمان بن داود، وذو القرنين. والكافران بختنصر، ونمرود بن كنعان، ولم يملكها غيرهم.

فـــرعـون.

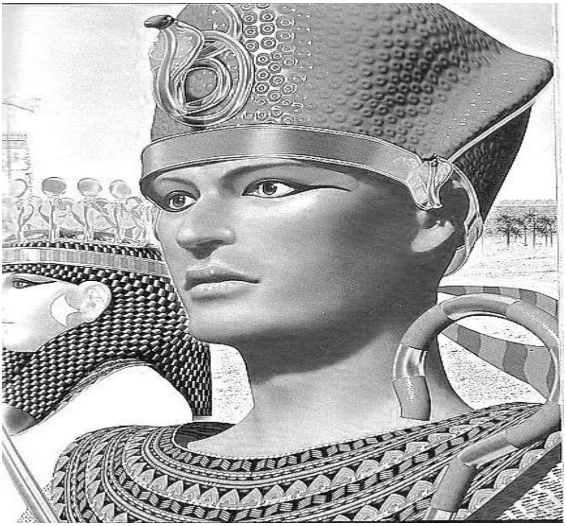

كان الملك في مصر القديمة يعيش في قصر على ربوة يشرف منه على رعاياه، وعرف المصريون القدماء قصره باسم (برعو) أي: البيت العالي، ومنه ترجع كلمة (فرعون) التي أصبح معناها صاحب البيت العالي، وكانت الملكية مطلقة في مصر القديمة، وكان الملك يلقب بـ"حوريس الحي"، وحورس هو أحد آلهة المصريين القدماء، وكان ملك المصريين يعتبر صورة منه.

ويقول العديد من الباحثين في الحضارة المصرية: إن الكهنة في مصر القديمة أصبحوا غير راضين عن تسخير الشعب المصري لبناء الأهرامات وإهمال بناء المعابد وتماثيل الآلهة (حيث تقدم للإلهة الكثير من القرابين النقدية والعينية التي تعود للكهنة في نهاية الأمر) وأن دخولهم بدأت تنخفض إلى حد كبير مع تسخر موارد البلاد لبناء الأهرامات.

فتزعم بعض الكهنة حركة سياسية تهدف إلى إقصاء العائلة الفرعونية الرابعة من الحكم، زاعمين أن الإله الأكبر (رع) غير راضٍ عنها لأنها اهتمت بناء المقابر الخاصة بها وإهمالها رعاية شئون الآلهة، وأنه بصدد وكْل الحكم في مصر إلى فراعين جدد، وعقد الكهنة العزم على تأسيس أسرة حاكمة جديدة، إلا أنهم اصطدموا بمشكلة الشرعية التي تقضي بأن لا بد أن يكون الملك من سلالة ملك، ولحل هذه المشكلة العويصة هداهم تفكيرهم إلى ابتكار شرعية أقوى وهي أن يكون الملك من سلالة الآلهة، وقد راجت الشرعية الجديدة وأصبحت عقيدة مقدسة في كافة الأسر التي حكمت مصر بعد انهيار حكم الأسرة الرابعة.

جاء في المخطوطات الفرعونية عن كهنة هليوبوليس: (إن الإله (رع) قد اختار زوجة كبير الكهنة وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهة ثلاثة أبناء هم باكورة جيل جديد من الملوك أعطاهم ختوم وأعضاء قوية وأعطتهم إيزيس أسماءهم وجعلهم الآلهة ملوكاً حقيقيين سيتقلدون الملك في هذه البلاد بأجمعها).

وبهذه الشرعية الجديدة عاد اهتمام الدولة الفرعونية بالكهنة ومعابدهم واغدقت عليهم الأموال وزاد نفوذهم السياسي، وأصبح الإله "رع" ملك الآلهة على الرغم من أن استمرار ملوك الأسرة الخامسة في بناء الأهرامات.

وقد استغل فراعنة مصر هذه العقيدة الدينية لترسيخ شرعية حكمهم وتسويغ ممارستهم للسلطة، وقد وجد الباحثون نصوصا مكتوبة على النقوش ملخصها أن الإله أمون أراد أن ينجب ملكا يأخذ على عاتقه مهمة تشييد منازل للآلهة وتكثر على يديه القرابين التي تقدم لها، فكان أن اختار

زوجة الملك تحتومس، فما كان من "رع" سوى أن تقمص شكل زوجها وضاجعها".

فرعون موسى الذي يقول بعض المؤرخون: إنه رمسيس الثاني حمل بطبيعة الحال نفس هذه العقيدة، حيث يقول المؤرخون:

إن الإله "بتاح" أكد له أنه اضطجع بجانب والدته و أنجبه، وبذلك أصبحت كل أعضاء جسده إلهية، وقد وجدت هذه القصة فوق جدران معبد أبي سمبل الذي بناه رمسيس الثاني أيام حكمه.

لقد أصبح فراعنة مصر تبعا لهذه العقيدة أبناء للآلهة وكانت لهم قدسية كبيرة لدى الكهنة وعامة الشعب وكانت مبررا لطاعتهم المطلقة، وتبعا لها فقد اعتقد المصريون القدماء بأن الفرعون عندما يموت فإنه يصعد إلى السماء ويندمج في قرص الشمس، وبما أنه ابن الإله والتحق بعد وفاته به، فإنه بعد وفاته يتحول إلى إله ويجوز عبادته ودعائه والتضرع له والتوسل إليه، إلا أن رمسيس الثاني أي: فرعون موسى على الأغلب كان شديد الفخر بنفسه لدرجة جنون العظمة، حيث لم يكتف بعقيدة أسلافه التي تجعلهم أبناء للآلهة، بل ادعى أنه الإله بذاته، و أنه الإله قبل موته وبعد موته، وشيد لنفسه معابد وأمر الناس بعبادته فيها والتقرب له بالقرابين والدعوات والصلوات، ولم يكتف بذلك بل زعم أنه من كبار الآلهة.

وقد امتلأت سيرة فرعون موسى بالكثير من الأخبار الدالة على طغيانه وجبروته ودمويته، منها ما جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير نوردها فيما يلي:

(١) قال ابن عباس وغيره: إن الله تعالى لما قبض يوسف وهلك الملك الذي كان معه وتوارثت الفراعنة ملك مصر ونشر الله بني إسرائيل، لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف

ويعقوب وإسحاق و إبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام حتى كان فرعون موسى، وكان أعتاهم على الله وأعظمهم قولا وأطولهم عمراً، واسمه فيما ذكر الوليد ابن مصعب، وكان سيئ الملكة على بني إسرائيل يعذبهم ويجعلهم خولا ويسومهم سوء العذاب.

فلما أراد الله أن يستنقذهم بلغ موسى الأشد وأعطي الرسالة، وكان شأن فرعون قبل ولادة موسى أنه رأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت علي بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والخزانة والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد، يعنون بيت المقدس، الذي جاء بنو إسرائيل منه، رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح وتترك الجواري.

وقيل: إنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون إليه فقالوا: اعلم أنا نجد في علمنا أن مولودا من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك ويبدل دينك، فأمر بقتل كل مولود يولد في بني إسرائيل.

(٢) وأوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن (قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) طه: ٤٤، فقال له موسى: هل لك في أن أعطيك شبابك فلا تهرم، وملكك فلا ينزع، وأرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة وتؤمن بي؟ فقال: لا حتى يأتي هامان. فلما حضر هامان عرض عليه قول موسى فعجزه، وقال له: تصير تعبد بعد أن كنت تعبد. ثم قال له: أنا أرد عليك شبابك، فعمل له الوسمة فخصبه بها، فهو أول من خصب بالسواد، فلما رآه موسى هاله ذلك، فأوحى الله إليه: لا يهولنك ما ترى فلن يلبث إلا قليلا.

فلما سمع فرعون ذلك خرج إلى قومه فقال: إن هذا لساحر عليم. وأراد قتله، فقال مؤمن آل فرعون، واسمه خربيل: (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات) غافر/ ٢٨. وقال الملأ من قوم فرعون: (أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) الشعراء: ٣٦ - ٣٧، ففعل وجمع السحرة، فكانوا سبعين ساحرا، وقيل: اثنين وسبعين، وقيل: خمسة عشر ألفا، وقيل ثلاثون ألفا، فوعدهم فرعون وواعدوه يوم عيد كان لفرعون، فصفهم فرعون وجمع الناس، وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف قومه، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) طه: ٦١. فقال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. ثم قالوا: لنأتينك بسحر لم تر مثله (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) الشعراء: ٤٤. فقال له السحرة: (يا موسى إما أن تلقي وإما نكون نحن الملقين) الأعراف: ١١٥. قال: بل ألقوا، (فألقوا حبالهم وعصيهم) فإذا هي في رأي العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا، فأوجس موسى خوفا، فأوحى الله إليه: أن (ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) طه: ٦٩. فألقى عصاه من يده فصارت ثعبانا عظيما فاستعرضت ما زلقوا من حبالهم وعصيهم، وهي كالحيات في أعين الناس، فجعلت تلقفها وتلقفها وتبتلعها حتى لم تبق منها شيئا، ثم أخذ موسى عصاه فإذا هي في يده كما كانت.

وكان رئيس السحرة أعمى، فقال له أصحابه: إن عصا موسى صارت ثعبانا عظيما وتلقف حبالنا وعصينا، فقال لهم: ولم يبق لها أثر ولا عادت إلى حالها الأول؟ فقالوا: لا، فقال: هذا ليس بسحر، فخر ساجدا وتبعه السحرة أجمعون و(قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) الشعراء: ٤٧ – ٤٨.

قال فرعون: (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلينكم في جذوع النخل) طه: ٧١. فقطعهم وقتلهم وهم يقولون: (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) الأعراف: ١٢٦. فكانوا أول النهار كفارا وآخر النهار شهداء.

(٣) وكان خربيل مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، قيل: كان من بني إسرائيل، وقيل: كان من القبط، وقيل: هو النجار الذي صنع التابوت الذي جعل فيه موسى وألقي في النيل، فلما رأى غلبة موسى السحرة أظهر إيمانه، وقيل: أظهر إيمانه قبل، فقتل وصلب مع السحرة، وكان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضا، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربي وربك ورب أبيك، فأخبرت أباها بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: من ربك؟ قالت: ربي وربك الله، فزمر بتنور نحاس فأحمي ليعذبها وأولادها، فقالت: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها، قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحدا واحدا، وكان آخر أولادها صبيا صغيرا، فقال: اصبري يا أماه فإنك على حق، فألقيت في التنور مع ولدها.

(٤) وكانت آسية امرأة فرعون من بني إسرائيل، وقيل: كانت من غيرهم، وكانت مؤمنة تكتم إيمانها، فلما قتلت الماشطة رأت آسية الملائكة تعرج بروحها، كشف الله عن بصيرتها، وكانت تنظر إليها وهي تعذب، فلما رأت الملائكة قوي إيمانها وازدادت يقينا وتصديقا لموسى، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون فأخبرها خبر الماشطة، قالت له آسية: الويل لك ما أجرأك على الله فقال لها: لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى الماشطة؟ فقالت: ما بي جنون ولكني آمنت بالله تعالى ربي وربك ورب العالمين.

فدعا فرعون أمها وقال لها: إن ابنتك قد أصابها ما أصاب الماشطة فأقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى، فاخلت بها أمها وأرادتها على موافقة فرعون، فأبت وقالت: أما الكفر بالله فلا. فأمر فرعون حتى مدت بين يديه أربعة أوتاد وعذبت حتى ماتت، فلما عاينت الموت قالت: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) التحريم: ١١. فكشف الله عن بصيرتها فرأت الملائكة وما أعد لها من الكرامة، فضحكت، فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذي بها تضحك وهي في العذاب. ثم ماتت.

(٥) ولما رأى فرعون قومه قد دخلهم الرعب من موسى خاف أن يؤمنوا به ويتركوا عبادته فاحتال لنفسه وقال لوزيره: يا هامان ابن لي صرحا لعلي (أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) غافر: ٣٧. فأمر هامان بعمل الآجر، وهو أول من عمله، وجمع الصناع وعمله في سبع سنين، وارتفع البنيان ارتفاعا لم يبلغه بنيان آخر، فشق ذلك على موسى واستعظمه، فأوحى الله إليه: أن دعه وما يريد فإني مستدرجه ومبطل ما عمله في ساعة واحدة. فلما تم بناؤه أمر الله جبرائيل فخربه وأهلك كل من عمل فيه من صانع ومستعمل، فلما رأى فرعون ذلك من صنع الله أمر أصحابه بالشدة على بني إسرائيل وعلى موسى، ففعلوا ذلك، وصاروا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقونه، وكان الرجال والنساء في شدة، وكانوا قبل ذلك يطعمون بني إسرائيل إذا استعملوهم، فصاروا لا يطعمونهم شيئا، فيعودون بأسوأ حال يريدون يكسبون ما يقوتهم، فشكوا ذلك إلى موسى، فقال لهم: استعينوا بالله واصبروا، إن العاقبة للمتقين، (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) الأعراف: ١٢٩.

(٦) وقد أهلك الحق تبارك وتعالى فرعون جزاء لطغيانه وغروره، الذي كان منه لآخر لحظة من حياته: (وبلغ بنو إسرائيل إلى البحر وبقي بين أيديهم وفرعون من ورائهم، فأيقنوا بالهلاك، فتقدم موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق، فقال كل سبط: قد هلك أصحابنا. فأمر الله الماء فصار كالشباك، فكان كل سبط يرى من عن يمينه وعن شماله حتى خرجوا، ودنا فرعون وأصحابه من البحر فرأى الماء على هيئته والطرق فيه، فقال لأصحابه: ألا ترون البحر قد فرق مني و انفتح لي حتى أدرك أعدائي؟ فلما وقف فرعون على أفواه الطرق لم تقتحمه خيله، فنزل جبرائيل على فرس أنثى وديق، فشمت الحصن ريحها فاقتحمت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم أمر البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم.

و انفرد جبرائيل بفرعون يأخذ من حمأة البحر فيجعلها في فيه، وقال حين أدركه الغرق: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وغرق، فبعث الله إليه ميكائيل يعيره، فقال له: آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. وقال جبرائيل للنبي - ﷺ -: لو رأيتني و أنا أدس من حمأة البحر في فم فرعون مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها.

فلما نجا بنو إسرائيل قالوا: إن فرعون لم يغرق. فدعا موسى فأخرج الله فرعون غريقا، فأخذه بنو إسرائيل يتمثلون به.

خشيارشاي الأول (٢٠٤٦٥ ق.م ـ ٢٠٥١٩ ق.م).

أحد ملوك الإمبراطورية الفارسية الإخمينية، جاء في سيرته عن قصة الحضارة: (وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة؛ فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب، على الطريقة التي يتبعها أحد الحكام الطغاة في هذه الأيام. وكان في بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء).

(وقلما كان أحد من الأهلين، ومن بينهم كبار الأعيان، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه، كما كان الرأي العام عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر، فكان ما يفعله الذي يرى الملك يقتل ابنه البريء أمام عينيه رمياً بالسهام أن يثني على مهارة الملك العظيمة في الرماية!

وكان المذنبون الذين يلهب السياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم!

وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى القوات العسكرية كلما أعلنت الحرب، وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يُعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية فما كان من الملك إلا أن أمر بقتلهم هم الثلاثة!

وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال، ثم رجا خشيارشاي أن يسمح ببقاء أخيهم الخامس ليشرف على ضيعة الأسرة فقطع جسم هذا الابن نصفين بأمر من الملك! ووضع كل نصف على أحد جانبي الطريق الذي سيمر منه الجيش، ولم يكن يوجد في مثل هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش، ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين).

(وكان خشيارشاي الأول ملكاً اجتمعت فيه كل صفات الملوك- الجسمية-؛ كان طويل القامة، قوي الجسم، يقرله الملوك بأنه أجمل إنسان في الإمبراطورية كلها، ولكن الرجل الوسيم غير المغتر لم يخلق بعد في هذا العالم، كما لم يخلق فيه بعد الرجل المغتر الذي لم تَقُدْهُ امرأة من أنفه، لقد كان خشيارشاي نِهباً لسراريه، وما كان أكثرهن! وضرب أسوأ الأمثال لشعبه في الفسق والفجور).

(وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً في غمرة الدسائس الشهوانية، والتراخي والإهمال في شئون الحكم، اغتاله أرتيان أحد رجال حاشيته، ووري في قبره باحتفال ملكي مهيب واغتباط شامل).

ويصف كتاب *قصة الحضارة * التاريخ الدموي لتداول السلطة في بلاد فارس بشكل عام: (وليس في التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تطالعنا بهما سجلات الفرس الملكية إلا سجلات رومة بعد تيبيريوس. لقد اغتال أرت خشتر الأول مغتال خشيارشاي، وبعد أن حكم أرت خشتر حكماً طويلاً خلفه خشيارشاي الثاني، ثم اغتاله بعد بضعة أسابيع من حكمه أخ له غير شقيق يدعى سجديانوس، ثم قتله دارا الثاني بعد ستة أشهر، كما أمر بقتل تريتتشميس، فأخمد بقتله فتنة أثار عجاجها في البلاد، ثم أمر بتقطيع زوجته إربا ودفن أمه وأخوته وأخواته أحياء. وخلف دارا الثاني على العرش ابنه أرت خشتر الثاني، واضطر هذا الملك أن يقاتل في واقعة كونسكا أخاه قورش الأصغر قتالاً مريراً، لأن هذا الشاب حاول أن يغتصب الملك. وحكم أرت خشتر حكماً طويلاً، وقتل ابنه دارا لأنه ائتمر به، ثم مات بائساً حزيناً إذ وجد أن ابناً آخر له يدعى أوكوس يأتمر به ليقتله. وحكم أوكوس عشرين سنة ثم مات مسموماً على يد قائده بجواس.

وأجلس هذا القائد السفاح "صانع الملوك" ابناً لأوكوس يسمى أرسيس على العرش، واغتال أخاً لأرسيس ليثبت بذلك مركز صنيعته، ثم اغتال أرسيس وابناه الصغار، ورفع على العرش كودومانوس، وهو صديق له مخنث مطواع. وحكم كودومانوس ثماني سنين، وتسمى باسم دارا الثالث ثم مات وهو يحارب الإسكندر في واقعة إربل).

استيـاجـس ملك ميديـا.

إحدى ممالك فارس ما قبل الميلاد، أسسها رجل داهية اسمه "ديوسيس"، آخر ملوكها كان استياجس، ونتيجة لطغيانه وميله إلى الترف والدعة سقطت الدولة الميدية، جاء في قصة الحضارة: (أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم نفسياً. فقد أثبت استياجس، الذي خلف أباه سياخار، ما أثبته التاريخ من قبل، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمن مغبتها، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كل القرب في ور اثة المُلك.

فبعد أن كان الملوك الأولون يفخرون بعدالتهم جاء استياجس فغضب يوماً على هرباجس فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وأرغمه على أن يأكل لحمه، فأكله هرباجس وهو يقول: إن كل ما يفعله المليك يسره. ولكنه انتقم لنفسه بأن أعان قورش على خلع استياجس؛ ذلك أن قورش الشاب حاكم ولاية أنشان الفارسية التي كانت تابعة للميديين خرج على طاغية إكتابانا المخنث، وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم، ولم يكد يرتفع من بينهم صوت واحد للاحتجاج عليه).

وجاء في إحدى الدراسات: (إن استياجس بعد أبيه –سياكزارس– المعروف بميله نحو الترف والانغماس في الملذات، بدأ الشعب الميدي يسخط ويغضب بسبب إهماله لأمور الحكم، وتزوج كمبيز بن كورش بن تسبش ابنة هذا الملك مندانا، للتقرب من القبائل الآرية وضمان ولاء مملكة انشان، فهدأت الأوضاع نسبيا، وولدت مندانا زوجة كمبيز كورش الثاني وبذلك أصبح استياجس جدا لكورش الثاني.

لكن استمر الملك الميدي استياجس بطغيانه وظلمه، فبدأت القبائل تطلب الثورة وعزل الملك الظالم، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هو

قتل ابن قائده هرباجوس وتقطيعه أجزاء وإرغام أبيه القائد على أن يأكل من لحم ابنه.

فهب الشعب الميدي غاضبا، وهبت معه طوائف إيرانية أخرى، ولأن العلاقة بين بابل وميديا -المتحالفتين سابقة- قد تصدعت بسبب خلاف حول تقسيم النفوذ، ساندت بابل الثورة التي يقودها كورش الثاني بن كمبيز الاخميني، الذي تولى ملك انشان في حوالي ٥٥٩ ق م، فقاد الثوارضد الجيش الميدي وانتصر عليهم في معركة فاصلة، واستولى على اكبتانا عاصمة الميديين عام ٥٥٠ ق م)، وتقول بعض الدراسات التاريخية: إن الملك استياجس كان سفاحا دمويا حيث إنه يأمر كل يوم بقتل شابين ليُسكت بمخيهما أذى الحيّتين النابتتين على كتفيه، ولا يمكن التحقق من هذا الادعاء ولربما جاء في إطار المزيد من تشويه سمعة هذا الملك لتبرير إسقاطه حكمه.

جاء في مجلة دراسات إيرانية العدد الثالث عشر: (إن سقوط الدولة الميدية الكبير الذي أسقط الدولة الميدية والدولة البابلية فيما بعد، وانحلالها في عهد استياجس راجع إلى عدة أسباب، يذكرها الباحثون بشكل متفرق إلى انه يمكن أن نجمع هذه الأسباب في إطار واحد يمكن من خلاله معرفة سبب انهيار الدولة الميدية ويمكن عرض هذه الأسباب بحسب الأهمية والتأثير، فعلى الصعيد الاجتماعي تروي الأخبار أن الملك الميدي استياجس قد أسرف بالتبذير وحياة الترف والبذخ وتبعه بذلك بقية النبلاء الميديين، فأخذ استياجس يستمتع بما ورث من أبيه. فقد نسيت الأمة الميدية وبالأخص النبلاء منهم أخلاقهم الخشنة وأساليبهم الصارمة وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة وأصبحوا يتنقلون من وليمة إلى أخرى؛ فكان انحطاطهم أسرع من نهضتهم).

الطاغية بريندر

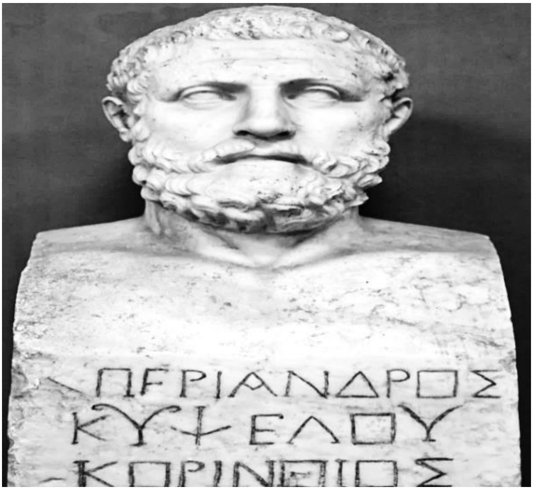

طاغية يوناني حكم بين عامي ٢٠٥٨٥ ق. م – ٢٠٦٢٥ ق. م)، على الرغم من كونه أقر الأمن والنظام واصدر قوانين جميلة ازدهرت من خلالها التجارة والصناعة، وخفض الضرائب، كما أصدر قانونا يحدد بموجبه عدد الأرقاء المسموح بهم، وشجع على الأدب والفنون، إلا أن ميزان طغيانه واستبداده زاد عن عدله وإنصافه، فقد فرض على الأثرياء دفع ما زاد عن حاجتهم من الذهب في صنع تمثال ذهبي لتزدان به "كورنثة" عاصمة ملكه، ودعا نساءهم إلى الاشتراك في حفلات كبرى كان يأخذ في نهايتها حليهن الثمينة وأثوابهن الغالية، وكان هذا ديدنه مع نخبة قومه، مما أدى إلى تكون شريحة معادية له يقودها الأثرياء والإقطاعيين واعيان البلاد، وتعرض لعدة محاولات اغتيال، ما جعله بعد ذلك يتخذ إجراءات أمنية مشددة، فكان لا يخرج إلا بحرس كثير العدد.

وكان يأمر بقتل أحد المشكوك في ولائهم بين الحين والآخر عملا بنصيحة صديقه الطاغية "ثراسيبولس الميليتي" الذي قال له: (بين الحينة والأخرى عليك أن تقطع أطول ما في الحقل من سنابل).

ومن أفظع الجرائم التي ارتكبها قتله لزوجته ونفيه لابنه، يقول المؤرخون: إن بعض إمائه وسوسن إليه في زوجته متهمات إياها بكرهه وخيانته، حتى أشعلن غضبه منها، وفي إحدى مرات غضبه عليها ألقاها من أعلى سلم القصر وكانت حاملا فماتت من شدة الصدمة، وعندما أفاق من سكرة غضبه ذهل مما فعله بها فأمر بقتل كافة سراياه حرقا، وأمر بنفي ابنه "ليكفرون" بعد أن أظهر بغضه له بعد قتل والدته على يديه.

وفي إحدى السنوات ثارت إحدى المدن عليه فسارع إلى إخمادها، ثم أمر بالقبض على ثلاثمائة شاب منها وإخصائهم، ثم أمر بإرسالهم كمماليك لأحد أصدقائه الملوك، ولكن السفينة التي أقالتهم مرت بمدينة غير موالية له، وما أن عرف أهلها بأمر السفينة حتى سارعوا إلى اقتحامها وتحرير الشبان.

سولا السعيد (٢٠٧٨ ق. م - ٢٠١٨٣ ق.م).

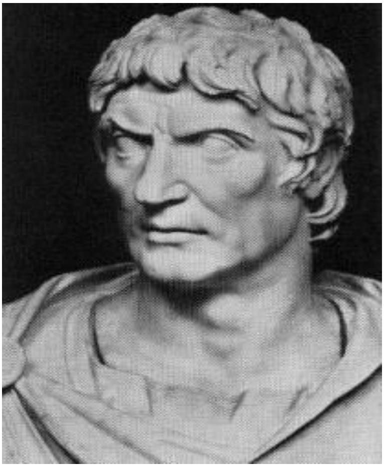

"سولا لوسيوس كورنيليوس" قائد عسكري روماني، تولى السلطة في روما لبعض الوقت قبل أن يتركها طواعية، في بداية أمره عين قنصلا وتولى قيادة الجيش الذي كان يعبأ لقتال "مثرداتس" حاكم بنتس.

جاء في قصة الحضارة في وصف شخصيته: (وكان سولا رجلاً فذاً في منشئه، وأخلاقه، ومصيره. فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف، كما أصبح ابنا جراكس ودروسس وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة. وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في قضاء شهواته، فأطلق لها العنان، ولم يتقيد فيها بعرف، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير. وكان دميم الخلق- له عينان زرقاوان براقتان في وجه أبيض تلطخه بقع شديدة الحمرة، كأنه توت منثور عليه دقيق، لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية.

وكان مولعاً بجمع رو ائع الفن، دقيقاً في اختيارها (مستعيناً على ذلك في العادة بالوسائل العسكرية). وأمر أن تحمل له من أثينا مؤلفات أرسطوطاليس، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائمه، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضل بها الناس من بعده. وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً، وصديقاً كريماً، يدمن الخمر، ويشتهي النساء، ويولع بالحرب، ويطرب للغناء؛ ويقول عنه سلست إنه: "كان يعيش عيشة البذخ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته". وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أن يفوقه في حكمته وشجاعته، ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان، ولكنه يؤمن بالخر افات. وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان و اقعية كما كان أشدهم قسوة، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله. ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد، قضى نصف أيامه في ميادين القتال، وقضى العشر السنين الأخيرة منها في الحروب الأهلية، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته، يشي قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية، ويملأ رومه ضحكاً، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات في فراشه).

لقد بدأ سولا قصة مجده بكونه قائدا عسكريا تمكن من كسب ولاء قطاع كبير من الجنود وذلك بحسن معاملتهم والتقرب إليهم، وإلغاء الحواجز بينه وبينهم، فكان يعاملهم كأنه واحد منهم لا رئيسهم، وكان يشترك معهم في أداء أعمالهم، ويترجل عن جواده ليمشي معهم، وكان يتعرض لما يتعرضون له من أخطار في بعض المهام القتالية الموكلة إليهم وفي المعارك التي يخوضونها.

وكان سولا أحد الرجال المتصارعين على الحكم في روما مع ماريوس وسلبسيوس، أما الأول ففر إلى إفريقيا، أما الثاني فقد قتله خادمه بعد أن أغراه سولا بالمال، ووفى بوعده له ولكنه قتله لغدره بسيده!

وعندما تم له السيطرة على روما عين نفسه قنصلا أولا وأن تراعى حقوق وامتيازات الطبقات المترفة والغنية في كافة القرارات الصادرة عن مجلس الشيوخ، ثم غادر روما وما أن ابتعد عنها قليلا حتى نشب قتال بين طبقتي العامة والمترفة وبين عدة تيارات محافظة بقيادة أكتافيوس ومتطرفة سنا، سعت كل منها للسيطرة على روما والإمساك بزمام السلطة، وسقط ضحية هذا الصراع المتعدد الجو انب أكثر من عشرة آلاف رجل في يوم واحد، في نهاية الصراع استتب الأمر للمحافظين بزعامة اكتافيوس، بينما فر سنا وأعاد تنظيم صفوفه مرة أخرى، ليعود لمهاجمة روما مرة أخرى وتمكن من فتحها وما أن دخلها حتى قتل الآلاف مؤلفة من أتباع اكتافيوس، وأمر سنا بتزيين منابر الخطابة برؤوس أعضاء مجلس الشيوخ الذين أمر سنا بقتلهم، وسار أتباعه في الشوارع صفوفا ورؤوس العشرات من المحافظين فوق رماحهم، فيما أمر سنا بإعدام اكتفايوس، ومصادرة أملاك سولا وعزله عن قيادة الجيش والإعلان بأنه عدو الشعب، وعقدة جلسات محاكمة قتل فيها كافة أتباعه ومؤيديه، وأمر سنا بان لا يدفنون بل تلقى جثثه في شوارع روما لتلتهما الكلاب والطيور الجارحة، وحرر عبيد المحافظين وأطلقهم يقتلون الناس بلا تمييز، ثم جمع سنا أربعة آلاف منهم وآمر بقتلهم، وعين سنا نفسه قنصلا، وحكم روما بدكتاتورية تامة، وعين جميع مقربيه و أتباعه في المناصب العليا، واصدر قانونا بأن يكون قنصلا لأربع سنوات متتالية قابلة للتجديد الغير محدودة، وأمر بتجهيز جيشا لمحاربة سلا والقضاء عليه.

في هذه الأثناء كان سولا يحاصر أثينا فتمكن من فتحها فلما تم له ذلك دخلها جنوده وعاثوا فيها فسادا يقتلون وينهبون، يقول أفلوطرخس وهو كاتب اليوناني عاصر تلك الأحداث: (إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر.. وقد جرت الدماء أنهاراً في شوارع المدينة، وخرجت منها إلى الضواحي النائية).

ثم أمر سولا بوقف المذبحة قائلا انه يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى!، ثم واصل سولا فتوحاته في اثنيا، فقضى على كل مقاومة لحكمه، وكان آخرها قدوم جيشا قوامه مائة ألف مقاتل من جنوب ايطاليا فواجههم سولا بخمسين ألف و انتصر عليهم، ثم أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رميا بالسهام بحجة أنهم إذا ما ظلوا أحياء سيسببون له المتاعب أكثر من كونهم أموات! ولم يجد سولا صعوبة في أن ينصب نفسه دكتاتورا وأمر بعد تنصيبه بإعدام أربعين عضوا في مجلس الشيوخ وألفين وستمائة من رجال الأعمال، وزينت الأسواق برؤوس القتلى وعلقت قوائم بأسماء المحكوم عليهم بالإعدام، و انتشرت أهوال مذابح سولا وأوامره بالنفي ومصادرة الأملاك في كافة أنحاء إيطاليا، وبلغ عدد من أمر سولا بقتلهم أكثر من أربعة آلاف وسبعمائة نفس بشرية.

يصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله: (وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم، والأبناء في جحور أمهاتهم).

ولم يكتفي سولا بذلك بل حكم على الكثير من رجال الأعمال والمحافظين والإقطاعيين بالقتل والنفي، ويقول المؤرخون أن سولا فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم لينفقها على جنوده وملذاته، ويكافئ بها أصدقائه، استخدم سولا سلطاته الديكتاتورية في إصدار عدد من المراسيم، أهمها منح حق المواطنة للرقيق والإسبان حتى يعوض نقص عدد سكان روما جراء

الحروب والإعدامات التي تعرضوا لها، كما أصدر عدد من المراسيم والقوانين التي تنظم شئون الحكم وإدارة الدولة.

وبعد سنتين تخلى سولا عن السلطة واعتزل الحياة العامة عام ٨٠ ق.م. جاء في قصة الحضارة: (وكان في حياته الجديدة آمناً على نفسه، لأنه قد قتل كل من يستطيعون الإئتمار به. ولذلك سرح حرسه وقواده، وكان يسير في السوق العامة لا يخشى أذى، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها له. ثم ذهب ليقضي أيامه الأخيرة في قصره الصغير في كومي، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس، فأحاط نفسه بالمغنين والمغنيات والراقصين والراقصات، والممثلين والممثلات، وأخذ يكتب شروحه ويتسلى بصيد الحيوان والسمك، والانهماك في الطعام والشراب. وأطلق عليه الناس من ذلك الوقت اسم "سولا السعيد" لأنه انتصر في كل معركة، واستمتع بكل لذة، واستحوذ على كل سلطة، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاظي، ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج في القولون بلغ من شدته أن اللحم النتن استحال قملاً، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله، ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه وحماماته وآنيته فحسب، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه، على حد قول أفلوطرخس. ومات سولا على أثر نزيف في الأمعاء).

من أقواله: (لم يخدمني قط صديق، ولم يسئ إلي قط عدو، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إساءته الجزاء الأوفى).

ديـــونـيسيـوس.

بدأ حياته العملية موظفا حكوميا ولكن بسبب إنجازاته في الحرب ضد القرطاج عام ٢٠٤٠٦ ق.م أصبح قائدا أعلى للجيش في سر اقوصة عام ٢٠٤٠٩ ق.م، وعين ستمائة جندي لحراسته بعد فشل محاولة لاغتياله، ثم زاد عددهم إلى ألف عسكري، وبدا يبسط نفوذه شيئا فشيئا وسرعان ما امسك بزمام الأمور فيها وأصبح حاكمها وطاغيتها، حيث بسط سلطته بالقوة والجبروت، وقد أصبح لحرسه و أتباعه من المرتزقة نفوذ وهيمنة في المجتمع وحكم بلاده حكما استبداديا لا يستند على دستور أو شرعية وقمع كل من ينادي بالديمقراطية، جاء في قصة الحضارة: (كانت سر اقوصة طوال القرن الر ابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة، رغم ما كان ينتابها من الاضطر ابات السياسية الكثيرة. وكان ملكها ديونيسيوس الأول مجرداً من الضمير، خائناً غداراً، مختالاً مغروراً، ولكنه كان أقدر رجال زمانه في الشئون الإدارية).

مما يرويه التاريخ عنه أنه لاحظ إسراف نساء سرقوسة في ارتداء الزينة، فخطب يوما أن الآلهة (دمتر) زارته في الحلم! وأمرته أن يجمع حلي نساء سرقوسه وأن يودعها في المعبد الكبير، ثم أمر بجمع الحلي من نساء المدينة اللاتي بادرن إلى تسليمها للمعبد، وبعد عدة أسابيع أعلن أنه اقترض الحلي من الآلهة ليمول بها حروبه.

وكان ديونيسيوس حريصًا على معاشرة أهل الفنون والفلسفة، ويشجع على ازدهارها، إلا أن التاريخ يروي أنه كان يعامل بعضهم بالتعسف والإذلال، ومما يروى عنه في هذا الصدد أنه حكم على الفيلسوف "فيلوكسينس" بالأشغال الشاقة في المحاجر لأنه أبدى امتعاضه من الأشعار التي كان يلقيها في مجلسه!

وبعد إلحاح أصدقائه أطلق سراحه على أن يستمع لأشعاره! وبعد أن ألقى ديونيسيوس شعره انطلق الحضور في التصفيق له! وسال فيلوكسينس عن رأيه فقال: أعدني إلى المحجر!

ويروى أنه استضاف أفلاطون ذات مرة، وأن الفيلسوف المشهور أخذ يطعن في حكم الطغاة فرد عليه ديونيسيوس بقوله: (إن أقوالكَ أقوال عجوز مخرف) فأجابه أفلاطون: (إن هذه اللغة هي لغة الطغاة) ويقال: إن ديونيسيوس أمر بالقبض عليه وبيعه في سوق الرقيق حتى افتداه أحد النبلاء وأطلق سراحه.

وعلى الصعيد العسكري فقد شن ديونيسيوس حروبا عديدة أدت إلى حلول دمار كبير في مدن ايطاليا الجنوبية، مما دفع بإحد الخطباء ويدعى "ليسياس" إلى إلقاء خطبة دعا فيها الجماهير إلى الخروج عليه وإسقاط حكومته، فاندفع الآلاف وهجموا على خيامه المنصوبة في دورة الألعاب الأولمبية التي تقام سنويا في المدن الرئيسية من بلاد اليونان، إلا أن الثورة لم تنجح، وتمكن ديونيسيوس من إعادة السيطرة على مقاليد الأمور.

و أثناء إحدى حروبه استولى على مدينة رجيوم و اتخذ من كل أهلها أرقاء، إلا أنهم جاؤوا له بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ولاستعادة حريتهم إلا أنه استولى على أموالهم وباعهم في أسواق النخاسة.

وكانت نهاية هذا الطاغية في غاية الغرابة إذ يقال انه عندما سمع بخبر فوز مسرحيته *فدية هكتار* في مهرجان لانين في أثينا، احتفل بذلك احتفالا كبيرا وأسرف في شرب الخمر حتى مات، ويروي آخرون أنه مات بسبب الفرح بالفوز!

جاء في قصة الحضارة: (ولم يقضِ على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان يخشى بأسهم بل قضى عليه شعره نفسه، وتفصيل ذلك أن مأساته *افتداء هكتز* نالت الجائزة الأولى في عيد لينيا الأثيني، وسُر ديونيسيوس من هذا الفوز سروراً جعله يحتفل بأصدقائه ويُفرط في الشراب، فيصاب بالحمى ويموت).

الملك عمليق.

الملك قبل الأخير على عرش مملكة اليمامة، وهي احدى ممالك العرب القدماء، تسكنها قبيلتا طسم وجديس في عصور ما قبل الميلاد، عاصمتها "جو"، إحدى مناطق نجد المعاصرة بالمملكة العربية السعودية.

دبر عمليق مؤامرة لقتل الملك ذمار، وتولى الملك بعده، وكانت السلطة في مملكة اليمامة بيد قبيلة طسم، التي كان لأبنائها الحكم والثروة، بينما كانت جديس قبيلة مستضعفة، أغلب أبنائها فلاحين وكسبة، وقد حاول الملك ذمار تقريب القبيلتين وإلغاء الفوارق بينها وكانت سيرته فيهما حسنة، ولكن عندما تملك عمليق طغى على جديس وأذاق أهلها الذل والهوان، حتى بلغ به الأمر أن أصدر قرارا بأن يفض بكارة كل فتاة من جديس قبل أن تزف إلى زوجها، فنالهم منه الخزي والعار، وتوحدوا على خلعه وقتله.

جاء في " الرسالة المصرية" لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي:

(عمليق ملك طسم، بن ولاذ بن إرم بن سام بن نوح. وكان منازلهم "عذرة" في موضع اليمامة.

وكان سبب قتله أنه تمادى في الظلم والغشم، والسيرة بغير الحق، وأن امرأة من جديس كان يقال لها هزيلة ولها زوج يقال له قديس، فطلقها وأراد أخذ ولدها منها، فخاصمته إلى عمليق، فقالت: أيها الملك، إني حملته تسعاً، ووضعته دفعاً، وأرضعته شفعاً، حتى إذا تمت أوصاله أراد أن يأخذه كرهاً، وأن يتركني بعده ورها. فقال لزوجها: ما حجتك؟ قال: حجتي أيها الملك أنها قد أعطيت المهر كاملاً، ولم أصب منها طائلا، إلا وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر بالغلام أن ينزع منهما جميعاً ويجعل في غلمانه، وقال لهزلة: أبغيه ولدا، ولا تنكحي أحداً، واجزيه صفدا. فقالت هزيلة: أما النكاح فإنما يكون

بمهر، وأما السفاح فإنما يكون بلا مهر، ومالي فيهما من أمر! فلما سمع عمليق ذلك منهما أمر أن تباع وزوجها، فيعطى زوجها خمسها، وتعطى هزيلة عشر ثمن زوجها، ويسترقا..

فأنشأت تقول:

أتينا أخا طسمٍ ليحكمَ بيننا... فأنفذَ حكماً في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكّمتَ لا متورِّعا... ولا كنتَ فيما تبرم الحكمَ عالما
ندمتُ ولم أندمْ و أبتُ بعبرتي... وأصبح بعلي في الحكومة نادما

فلما سمع عمليق قولها أمر ألا تزوج بكر من جديس فتهدى إلى زوجها إلا يؤتى بها عمليق فيفترعها هو قبل زوجها. فلقوا من ذلك جهداً وذلا ولم يزل يفعل ذلك أربعين سنة فيهم، حتى زوجت الشموس عفيرة بنت عفار الجديسية، أخت الأسود الذي وقع إلى جبلي طيء وسكنوا الجبلين بعده، فلما أرادوا أن يهدوها إلى زوجها و انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قبله، ومعها الوليدات يتغنين ويقلن:

أبدي بعمليقٍ وقومي فاركبي... وبادري الصُّبح بأمرٍ معجبِ
فسوف تلقين الذي لم تطلبي... وما لبكرٍ عنده من مهربِ

فلما دخلت عليه افترعها، وخلى سبيلها، فخرجت إلى قومها في دمائها، شاقة درعها عن قبلها ودبرها، وهي تقول:

لا أحد أذلَّ من جديس... أهكذا يفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لقومِ حرٌّ... أهدى وقد أعطى وسيقَ المهر
لأخذةُ الموتِ كذا من نفسهِ... خيرٌ منَ أنْ يفعلَ ذا بعرسه

ثم قالت تحرض قومها فيما أتى عليها:

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم... و أنتمْ رجالٌ فيكم عدد النَّمل
وتصبح تمي في الدماء صبيحةٌ... عشيّةَ زفَّت في النساء إلى بعل
فإنْ أنتم لم تغضبوا بعد هذه... فكونوا نساءً لا تغبُّ من الكحلِ
ودونكمُ طيبَ العروس فإنَّما... خلقتم لأثواب العروس وللغسلِ
فلو أنَّنا كنا رجالاً و أنتمُ... نساء لكنّا لا نقيم على الذلّ
فبعداً وسحقاً للذي ليس دافعاً... ويختال يمشي بيننا مشيةَ الفحلِ
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوَّكم... ودبُّوا لنار الحرب بالحطب الجزل

فلما سمع ذلك أخوها الأسود، وكان سيدا مطاعاً، قال لقومه: يا معشر جديس: إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم إلا بملك صاحبهم علينا وعليهم ولولا عجزنا لما كان له فضل علينا، ولو امتنع لانتصفنا منه فأطيعوني فيما آمركم فإنه عز الدهر. فقالوا نطيعك ولكن القوم أكثر منا. قال: فإني أصنع للملك طعاما وأدعوه وأهله إليه فإذا جاؤوا يرفلون في الحلل أخذنا سيوفنا وقتلناهم. فقالوا: افعل. فصنع طعاما فأكثر وجعله بظاهر البلد ودفن هو وقومه سيوفهم في الرمل ودعا الملك وقومه فجاؤوا يرفلون في حللهم، فلما أخذوا مجالسهم ومدوا أيديهم يأكلون أخذت جديس سيوفهم من الرمل وقتلوهم وقتلوا ملكهم وقتلوا بعد ذلك السفلة).

"نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" لابن مقديش:

(اليمامة.. وهي بلاد طسم وجديس. كانا ابنا عم، وهم العرب العاربة. وكان الملك في طسم دون جديس، وكان جديس أكبر من طسم، وكان الملك في طسم اسمه عمليق. وكان جبارا ظالما طاغيا. بلغ في طغيانه وتجبره أنه ألزم

جديس ألا يزف من بناتها إلى بعلها حتى يأتوا بها ليلا أو نهارا إلى عمليق، حتى يفض بكارتها، ثم يمضوا بها إلى زوجها العريس. وفي صبيحة زفافها يعملوا [كذا] وليمة لعمليق ولأصحابه من طسم. فمكث زمانا على هذا الحال.

وكان من أكابر جديس رجل يقال له الأسود. له أخت حسناء مبدعة، تسمى سعاد. وكانت بكرا. فزوجت من رجل من أبناء عمها. فلما حضرت ليلة زفافها، ذهبوا بها إلى عمليق فافترعها على العادة. ثم خرجت من عنده ودمها ظاهر على أثوابها. فنظرت فإذا أكابر جديس وأعيان قومها وأخوها الأسود جلوس في ناحية الحي، مشورون [يتشاورون] في أمر الوليمة للملك في صبيحة تلك الليلة. فقصدت القوم. فما أحسوا بها إلا وهي وسطهم، ثم مزقت ثيابها من طوقها إلى أذيالها، وكشفت عن بطنها وفرجها، وأظهرت دمها، ونظرت إليهم يمينا وشمالا. فقام أخوها الأسود ورمى بثوبه عليها وسترها، وبكى.. وأمر بردها إلى بيتها فلم تفعل. فأخرجوها من بينهم. ودبت في رؤوس القوم خمرة النخوة والمروءة. فقاموا جميعا إلى مكان آخر. فابتدأ الأسود –أخو سعاد– وقال: يا إخوتاه، ويا بني عماه، قد رأيتم ما يصتع ببناتكم وأخواتكم، وقد اتفق لأختي كما اتفق لمن تقدمها، فما الرأي؟ قالوا: فما ترى؟ فقال الأسود: لو اجتمع رأيكم على واحد من بينكم [ولجتموه أمركم لتنكشف عنكم العار] وانتصفتم من الأغيار. فقالوا جميعا: أنت ذلك الواحد، فلا يخالف لك إلا معاند. وتحالفوا. فقال: إيتوني بالغنم والبقر والإبل، وانحروها، وأكثروا من الذبح، وأوقدوا النيران، وعلقوا القدور، واشغلوا النساء بالطبخ، ثم ائتوني بسيوفكم تحت ثيابكم. ففعلوا ذلك. فمضى بهم إلى المكان المعد للضيافة، وكل أرضهم رمال. وكان من عادة عمليق أن كل بكر يفترعها يقف وليها خلف ظهره وهو جالس على السماط في مكان الضيافة، لتعلم طسم من هو ولي العروس وتتحققه، مبالغة في إهانتهم. قال: فدفن الأسود سيفه في الرمل

خلف مجلس عمليق. وقال لقومه من جديس: هكذا فافعلوا، فإذا جلس الملك وقفت خلفه وسيفي تحت قدمي، فإذا اشتغل بالأكل أخذت سيفي وضربت عنق عمليق سكرانا، وكذلك أعيان قومه. وأتى إلى مكان الضيافة في أعظم زينة، وهم مسرورون منشرحون. فلما أخذوا مجالسهم وقدموا الضيافة في أعظم زينة. فرأى عمليق ما لم يره من كثرة الضيافة، فشكر الأسود وبش له. فقال واحد من قوم عمليق: رب أكلة تمنع أكلات. فما استتم كلامه إلا وقد قتل عمليق ومن كان جالسا على الأكل وحضر الضيافة قتلة واحدة. وامتلأت الجفان والمناسف [كذا] بالقتلى.

وقد قيل: إنه قتل في تلك الساعة من طسم ما يزيد على ثمانين ألفا. وما بقي في طسم رجل إلا من غاب عن الوليمة. ووضعت جديس سيوفها فيمن بقي من الرجال، ونهبت وسبت وفتكت.

كليب بن ربيعة (٤٤٠ م – ٤٩٤ م).

من بني تغلب، من القبائل الربيعية العدنانية في تهامة، جعله قومه ملكا عليهم بعد أن قتل التبع اليماني ملك اليمن، مما أدى إلى إنهاء سيطرة القبائل اليمنية وتقاسم القبائل العدنانية التي منها تغلب وبكر وقضاعة النفوذ والسيطرة على بعض أجزاء الجزيرة العربية، ويعتبر أول ملك على بني تغلب، وكانت العرب لا تعرف هيئة الملك بين القبائل، فكان كليب من ملوك الجزيرة العربية القلائل قبل الإسلام.

وبعد أن تملك كليب ملك ربيعة و أبناء عمومتهم البكريين مال شيئا فشيئا نحو التكبر والاستبداد حتى تمكن منه الزهو والغرور، فبغى على قومه لما رأى من نفسه من الملك والقوة ولما هم فيه من الانقياد والطاعة.

خز انة الأدب لعبد القادر البغدادي:

(اجتمعت عليه معد كلها، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته، وغبر بذلك حيناً من دهره، ثم دخله زهو شديد، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة و انقياد معدّ له، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مو اقع السحاب فلا يرعى حماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له، لا يختبئ أحد في مجلسه غيره، ولا يغير إلا بإذنه، ولا تورد إبل أحد، ولا توقد مع ناره، ولم يكن بكرى ولا تغلبي يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى إلا بأمره، وكان يجبر على الدهر فلا تخفر ذمته، وكان يقول: وحش أرض في جواري، فلا يهاج! وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره، وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل به كلأ قذف ذلك الجرو وفيه فيعوى، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب، فضرب به المثل في العز فقيل: أعز من كليب و ائل.

وكان يحمي الصيد فيقول: صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئاً.

وتزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان لمرة عشرون من بنين، جساس أصغرهم، وكانت بنو جشم وبنو شيبان تقيم في داروا حدة إرادة الجماعة ومخافة الفرق..

وحدث أن كليباً دخل على امرأته جليلة يوماً فقال لها: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس. فسكت كليب، ومضت مدة، وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها: من أعز وائل؟ قالت: أخواي جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وخرج.

وكانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ، جاءت ونزلت على ابن أختها جساس، فكانت جارة لبنى مرة، ولها ناقة خوارة، ومعها فصيل لها، فلما خرج كليب غاضباً من قول زوجه جليلة رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله. وعلمت بنو مرة بذلك، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا، ثم لقي كليب ابن البسوس فقال له: ما فعل فصيل ناقتكم؟ فقال: قتلته وأخليت لنا لبن أمه، وأغمضت بنو مرة على هذا أيضاً

ثم إن كليباً أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي! فأضمرها في نفسه وأسرها وسكت، حتى مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس، فأنكر الناقة ثم قال: ماهذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية (أي جساس) أن يجير عليّ بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام، فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها.

وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، وولت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس، فلما رأتها صاحت: وأذلاه! فقال لها جساس: اسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها. فأبت أن ترضى حتى صاروا لها إلى عشرا، فلما كان الليل أنشأت تقول بخطاب سعد أخ جساس وترفع صوتها تسمع جساسا:

يا أبا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل فإني في قوم عن الجار أموات

ودونك أذوادي إليك فإنني* محاذرة أن يغدروا ببنياتي

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ* لما ضم سعد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار معشر متى* يعد فيها الذئب يعدو وعلى شاتي

فلما سمعها جساس قال لها: اسكتي لا تراعي إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً، وهو فحل إبل كليب لم ير في زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقالته كليباً.

ثم ظعن ابنا وائل بعد ذلك، فمرت بكر على نهى أي: غدير يقال له: شبيث، فنفاه كليب عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة، ثم مروا على نهى آخر يقال له الأحص فنفاهم عنه وقال: لا يذوقون منه قطرة، ثم مروا على بطن الجريب (واد عظيم) فمنعهم إياه، فمضوا حتى نزلوا الذنائب، واتبّعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليه، فمر عليه جساس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل، وهو واقف على غدير الذنائب، فقال له: طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشا! فقال كليب: ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون، فقال له: هذا كفعلك بناقة خالتي، فقال له: أوقد ذكرتها أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها أتراك مانعي أن أذب عن حماي، فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضني (الحضن ما دون الإبط إلى الكشح).

فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء، فقال: ما علقت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه، فالتفت إلى عمرو وقال له: يا عمرو، أغثني بشربة ماء، فنزل إليه وأجهزعليه).

الرحلة الثانية

سياحة في سيرة بعض طغاة العصور الوسطى

مجازر الطغاة الصليبيين في القدس.

أثناء الحملة الصليبية الأولى التي بدأت عام ١٠٩٦، كان من نتائجها نشوء الإمارات المسيحية في الشرق العربي المسلم كإمارة الرها وإمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس، وسقوط القدس بيد المسيحيين ونشوء إمارة أورشليم عام ١٠٩٩، التي استمرت ٨٨ عاما حتى تم تحريرها على يد الفاتح صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧.

دخل الصليبيون المسيحيون القدس تحت قيادة القائد الصليبي ريموند، الذي أمر بتنفيذ مجازر مروعة بحق سكانها المسلمين واليهود، جاء في قصة الحضارة: (فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يولية قاد جدفري وتانكرد رجالهما وتسلقوا أسوار المدينة، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا في سبيله الأمرين. وفي هذا يقول القس ريمند الإجيلي شاهد العيان:

وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار، وكانت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل.

ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى؛ يقولون: إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة. أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم،

وأشعلت فيهم النار وهم أحياء. واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما المسيح المصلوب. وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر، وبتحرير المدينة، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز).

جاء في البداية والنهاية: (ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، وفيها أخذت الفرنج - خذلهم الله تعالى - بيت المقدس، لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، استحود الفرنج - لعنهم الله - بيت المقدس - شرفه الله - وهم في نحو ألف ألف مقاتل، فقتلوا في وسطه أزيد من سبعين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا).

قال ابن الأثير في تاريخه: (مَلَك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف).

وقال "ستيفن رنسيمان" في كتابه *تاريخ الحروب الصليبية*: (وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث).

وذكر "غوستاف لوبون" في كتابه *الحضارة العربية* ما رواه رهبان ومؤرخين عاصروا أحداث احتلال القدس في الحملة الصليبية الأولى على بلاد العرب والمسلمين، منهم الراهب "روبرت " الذي قال: (كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث).

ويضيف "غوستاف لوبون": (لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى -الذين كان عددهم ستين ألفا- فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا).

ويقول أيضا: (وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها: ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع و المختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان -في أكثر الرو ايات- و كانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية و غيرها بيد الصليبيين).

وقال الكاهن "ريموند داجميل": (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم؛ فكانوا يضطرون

إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب و أيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا).

فريدريك الثاني (١١٩٤ـ ١٢٥٠).

حاكم إيطاليا من ١٢٢٠ حتى وفاته، اشتهر باضطهاده للملحدين، ومحاربته لحرية الفكر والرأي والضمير، وجريا على ذلك أيد محاكم التفتيش ودعمها ومنحها سلطات واسعة، بيد أن سياساته الخارجية وطموحاته التوسعية أدخلته في حروب شعواء، فقد كان يسعى إلى مد سلطانه في كافة أنحاء إيطاليا، وان يمتد حكمه حتى ألمانيا، وان يعيد مجد روما ومكانتها كعاصمة سياسية ودينية لأوربا، إلا أنه لم ينجح في مساعيه وادخل نظام حكمه وبلاده في حروب مدمرة، على أثرها خرج عليه ابنه هنري، فتمكن منه وسجنه لسبع سنوات وكانت نهايته أنه حاول الهروب فسقط بجواده من مكان عال ليصبح جثة هامدة.

ثم إنه وسع حربه لتشمل دولة البابا جريجوري (الزمنية- الدينية) التي كانت تشمل قطاعا واسعا من الأراضي الإيطالية التي كان فريديرك يحلم بضمها لمملكته، فما كان من البابا جريجوري أن أصدر منشورا شديد اللهجة يتهم فيها فريدريك بالكفر والتجديف والاستبداد والسعي نحو القضاء على سلطة الكنيسة، ثم أصدر فتوى بموجبها يجيز الموالين له بنقض يمين الولاء التي أقسموها له، بالمقابل بعث فريدريك برسالة إلى ملوك أوربا ينفي فيها تهمة الكفر عنه ويتهم البابا جريجوري بسعيه نحو إسقاط حكم ملوك أوربا وضم كافة ممالكهم إلى الدولة الباوبوية، وقد انقسم ولاء الدول والممالك المحيطة بإيطاليا ما بين مؤيد لفريدريك والبابا جريجوري.

وكانت الحرب سجالا بينهما، وكان من أخطائه في الحرب والصراع مع البابا احتجازه لعدد من رجال الدين الذين مات بعضهم في السجن، مما أدى إلى غضب العامة، حتى اعتقد بعضها بأنه المسيح الدجال.

واستمر الصراع حتى توفي البابا جريجوري وخلفه انوسنت الرابع، الذي كان اقل تشددا وأكثر ميلا للمسالمة من سلفه، فسارع إلى عقد صلح مع فريدريك، وقد رفضت الاتفاقية بعض المدن والمقاطعات، إلا أن البابا الجديد ما لبث أن غادر روما سرا وهرب إلى مدينة ليون، مما دفع فريدريك إلى إلغاء الاتفاقية ومواصلة الحرب حتى ضم كافة الولايات البابوية لدولته، إلا أن انوسنت عقد مجلسا في ليون وقرر حرمان فريدريك وخلعه واتهمه بأنه فاسد الأخلاق وعاق وعديم الولاء لسلطة الكنيسة المقدسة، ودعا إلى تنصيب هنري رايس إمبراطورا بدلا عنه، ولكنه توفي سريعا فنادى البابا إلى تنصيب بوليم الهولندي، ثم إن البابا أصدر قرارا بحرمان كل من يساعد فردريك، وحرمان كافة الأقاليم التي يحكمها من خدمات الكنيسة، ثم ما لبث أن أعلنت حربا صليبية ضده، بموجبها يمنح كل من يحاربه كافة المزايا الممنوحة للمقاتلين في فلسطين.

وقد رد فردريك بإصدار منشورا يتهم فيه رجال الدين بأنهم عبيد للدنيا ومنهمكين في ملذاتهم وأن ثرواتهم لم تبق على شيء من تقواهم، وأمر بمصادرة ما للكنيسة من أملاك وان يستخدم ثمنها لصالح الجيش، وأثناء ذلك اكتشف مؤامرة ضده في مدينة ابوليا، فأمر بالقبض على المتآمرين وأن تقتلع عيونهم وتبتر أعضائهم ثم قتلهم، ثم إن الثورة ضده اندلعت في شمال إيطاليا وأجزاء من صقلية، فقاد حملة تأديبية كاسحة، اقتحم بها المدن المنتفضة حتى أخمد انتفاضتها، وأخذ من كل

مدينة أسرى لضمان ولائها وعدم خروج أهلها عن طاعته، إلا أنه أمر بقطع أطرف كل من يثبت أن من بينهم موالين للبابا.

ومن أهم أحداث حروبه أنه كان يحاصر مدينة بارما، فطال حصاره لها، وفي يوم ما أمر بأن يخرج مع مجموعة من الفرسان لصيد الطيور في المستنقعات القريبة من معسكره، وبينما هو في صيده إذ خرج رجال بارما المحاصرين وهجموا على جيشه وتمكنوا من الاستيلاء على أمواله وحريمه ووحوشه، فهرب فريدرك بمن معه وجهز جيشا جديدا لحرب بارما، وأثناء القتال بلغته أنباء أن "بيرو دلي" وزيره وموضع ثقته يتآمر ضده، فأمر بالقبض عليه وفقع عينيه، فما كان من "بيرو" بعد أن فعل به ذلك إلا أن أخذ يضرب برأسه جدران سجنه حتى مات.

وتوالت أحداث حروبه وصراعاته الداخلية والخارجية، وانتكست صحته كثيرا، خاصة بعد محاولة طبيبه الخاص قتله بالسم، وما لبث أن توفي بمرض الزحار (مرض طفيلي يصيب الأمعاء)، وقد طلب قبل موته بأن تغفر ذنوبه، وأجيب إلى ذلك، ورغم ذلك فإن الناس تهامسوا بأن روحه قد حملتها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم.

الإمبراطور شارل الخامس ونهب روما (١٥٠٠ـ ١٥٥٨).

حدث هذا النهب الإرهابي عام ١٥٢٧ على يد جنود مرتزقة محسوبين على الإمبراطور شارل حاكم إسبانيا، كان شارل يخوض حربا ضد فرنسا والولايات البابوية وميلان وحلفائهم، عندما أمر قادته أن يجهزوا جيشا لغزو روما والاستيلاء عليها، وكانت روما في تلك الفترة و اقعة تحت حكم البابا كلمنت، فاتصلوا بمرتزق اسمه جورج فن فرندنسبرج، ومنوه بالغنائم والأموال، فجهز جيشا قوامه عشرة آلاف مرتزق، ودفعوا له بعض المال على أن يكون له ولرجاله النصيب الأكبر من غنائم الحرب، جاء في قصة الحضارة: (ورهن هذا الزعيم المغامر-جورج فن فرندنسبرج- قصره وسائر أملاكه، وحتى حلي زوجته نظير مبلغ ٣٨,٠٠٠ جولدن، واستطاع بهذا المال أن يجمع عشرة آلاف من الرجال الراغبين أشد الرغبة في المغامرة والنهب، ليس منهم من يتردد أن يحطم حربته فوق رأس البابا؛ ويقال: إن منهم من كان يحمل حبلا معقوداً ليشنقه به).

وزحف جيش المرتزقة إلى روما وفي طريقه مر على حقول لمباردي الغنية فنهبوها عن أخرها، وبلغ إرهابهم إن هذه الحقول وصفت بأنها أشقى أرض وجدت في العالم المسيحي في وقت من الأوقات!

ثم إن جيشا تابعا للإمبراطور بقيادة شارل دوق بوربون انضم إلى جيش المرتزقة الذي يقوده فرندنسبرج، وبدؤوا بمهاجمة المدن والحصون والقلاع التي تحت حكم البابا ودمروها تدميرا تاما وصعدوا من وتيرة الحرب، إلا أن البابا كلمنت تمكن من توسيط أحد ملوك أوربا لعقد هدنة، ونجح في الضغط على القائدين شارل وفرندنسبرج للموافقة عليها، وكان من ضمن شروطها أن يدفع البابا ستين ألف دوقة لجيش فرندنسبرج حتى يلتزم بها، وظن البابا أن هذا ما سيحدث، خاصة وأن اتفاق الهدنة وقعه نائب الإمبراطور، فعمل على تخفيض نفقاته العسكرية،خاصة وأن شروط الهدنة جعلت خزينته شبه فارغة، فأصدر أمرا بتخفيض جيش روما إلى ثلاثمائة جندي فقط! إلا أن مسار الأحداث كان كارثيا على روما، قصة الحضارة: (غير أن جنود بوربون السارقين النهابين ثاروا غضباً حين سمعوا بشروط الهدنة. ذلك أنهم ظلوا أربعة أشهر يقاسون آلاف الصعاب وكل ما يأملونه هو نهب روما؛ وكانت كثرتهم الغالبة ترتدي الآن أسمالا بالية، وتمشي حافية الأقدام؛ وكانوا كلهم جياعاً ولم يتناول منهم أحد مرتبه. ولهذا أبوا أن يُشتروا بمبلغ تافه لا يزيد على ستين ألف دوقة، يعرفون أنه لن يصل إلى جيوبهم منه إلا جزء قليل. وإذ كانوا يخشون أن يوقع بوربون شروط الهدنة، فقد حاصروا خيمته، ورفعوا عقيرتهم قائلين: "الأجور! الأجور!" واختفى بوربون في مكان آخر، ونهب الجند خيمته، وحاول فرندسبرج أن يهدئ ثورة غضبهم، ولكنه أصابته نوبة تشنجية في أثناء هذه المحاولة. ولم يشترك بعدها في الحملة حتى مات بعد عام واحد من ذلك الوقت، وتولى بوربون القيادة

العليا على شرط أن يزحف على روما. وفي التاسع والعشرين من مارس بعث برسله إلى لانوي وكلمنت يبلغهما أنه لا يستطيع كبح جماح جنوده، ولهذا فهو مرغم على نقض الهدنة.

ثم إن بوربون طلب من كلمنت أن يدفع له ٢٤٠ ألف دوقة حتى لا يأمر بغزو روما، إلا أن كلمنت رد عليه بأنه عاجز عن دفع هذا المبلغ الضخم، بيد أن جيش بوربون وبعد أن عجز عن فتح عدة مدن وحصون لم يجد أمامه سوى التوجه إلى روما لإشباع دموية جنوده الشياطين، وما هي إلا أياما قلائل حتى كان أكثر من عشرين ألف من الجنود المرتزقة متجمعين أمام أحد أسوار روما، وقد استبسل جنود روما في الدفاع عنها رغم قلة عددهم، حيث أطلقوا على الجيش المعتدي و ابلا من الرصاص أصابت قائده بوربون الذي مات من ساعته، إلا أن جيشه لم يتراجع وأمسك بالقيادة أحد نو ابه ويدعى فليبرت، و اندفع الجنود المرتزقة للقتال حيث لم يكن أمامهم أي خيار سوى الانتصار أو الموت، وبعد بحث عن نقاط ضعف جيش روما اكتشفوا موقعا دفاعيا ضعيفا فاخترقوه عنوة ودخلوا المدينة أفواجا غازيين، وحارب حرس روما والحرس السويسري ببسالة، ولكنهما أبيدا عن آخرهما، وفر كلمنت ومعظم الكرادلة المقيمين في المدينة ومئات من الموظفين إلى قلعة سانت أنجيلو، حيث حاول تشيليني وغيره أن يوقفوا زحف الغزاة بنار المدفعية. ولكن الغزاة دخلوا المدينة من اتجاهات مختلفة أوقعت الارتباك في صفوف المدافعين، فمن المهاجمين من سترهم الضباب، ومنهم من اختلطوا بالفارين اختلاطاً لم تستطع معه مدافع القلعة أن تضربهم من غير أن تقتلهم معهم، وما لبثت المدينة أن أصبحت تحت رحمة الغزاة.

ولما اندفع هؤلاء في شوارعها أخذوا يقتلون كل من واجهوه في طريقهم دون أن يفرقوا بين الرجال، والنساء، والأطفال. واشتد تعطشهم إلى سفك الدماء، فدخلوا مستشفى سانتو اسبيرتو (الروح القدس) وملجأ اليتامى فيه، وذبحوا كل من فيهما من المرضى كلهم تقريباً. ثم اتجهوا إلى كنيسة القديس بطرس، وذبحوا من لجؤوا إلى هذا الحرم المقدس، ونهبوا بعدئذ كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الكنائس والأديرة، وحولوا بعضها إلى إسطبلات لخيولهم، وقتلوا مئات من القساوسة، والرهبان، والأساقفة، ورؤساء الأساقفة، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من أعلاهما إلى أسفلهما من كل ما فيهما، وربطت الخيول في حجرة رافائيل، ونهب كل بيت في روما وحرق الكثير منها عدا اثنين لا أكثر هما قصر الكانتشيلريا الذي كان يشغله الكردنال كولنا، وقصر آل كولنا الذي لجأت إليه إزبلادست، ومعها بعض أغنياء التجار، ونفح هؤلاء زعماء الغوغاء بخمسين ألف دوقة لينجوهم من الهجوم، ثم سمحوا لألفين من اللاجئين أن يحتموا وراء الأسوار. وأدى كل قصر من القصور الفدية نظير حمايته، ولكن هذه القصور نفسها هاجمتها جماعات أخرى واضطرت أن تفتدي نفسها من جديد. وقد حدث في معظم البيوت أن اضطر من فيها جميعاً إلى افتداء أنفسهم بمبلغ محدد؛ فإذا لم يوفوا به كله تعرضوا لألوان من العذاب، وقتل منهم آلاف، وألقي بالأطفال من النوافذ العليا، لكي يضطر آباؤهم إلى إخراج ما اكتنزوه من المال وأخفوه، حتى غصت الشوارع بالقتل. وشهد الثري دومينيكو صاحب الملايين بعينيه أبناءه يقتلون، وابنته يهتك عرضها، وبيته يحرق، ثم انتهى الأمر بقتله هو نفسه. ويقول بعض الواصفين: ولم تكن في المدينة كلها نفس فوق الثالثة من العمر لم تضطر إلى أن تبتاع سلامتها بالمال.

وكان نصف الغوغاء المنتصرين من الألمان، لم يكن يشك معظمهم في أن البابوات والكرادلة لصوص، وأن ثروة الكنيسة في روما سرق ونهب من الأمم، وفضيحة للعالم. وأرادوا هم أم يخففوا من هذه الفضيحة، فاستولوا على جميع ما في الكنائس من ثروة منقولة بما فيها الأواني المقدسة، والتحف الفنية، وخرجوا بها ليذيبوها أو يفتدوا بها أنفسهم، أو يبيعوها. أما المخلفات المقدسة فقد تركوها مبعثرة على الأرض. وارتدى أحد الجنود الأثواب البابوية، ولبس غيره قلانس الكرادلة، وقبلوا قدميه، ونادى جماعة من الغوغاء في الفاتيكان بلوثر بابا. وكان أتباع مذهب لوثر من الغزاة يجدون لذة خاصة في نهب أموال الكرادلة، وتقاضى فديات عالية منهم نظير تركهم أحياء، وتعليمهم مراسم دينية جديدة. ويقول جوتشارديني: إن بعض الكرادلة: أركبوا دواب قذرة حقيرة، وأديرت وجوههم نحو ذيولها وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتها، وطاف الغوغاء ببعضهم في شوارع المدينة معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار. وعذب بعض من لم يستطيعوا جمع كل ما طلب إليهم من مال الفداء تعذيباً قضى على حياتهم في التو والساعة أو بعد أيام قلائل.

وأنزل أحد الكرادلة في قبر من القبور وهدد بأنه سيدفن حياً إن لم يأت بالفدية في زمن محدد؛ وجاء هذا المال في اللحظة الأخيرة، ولم يلق الكرادلة الألمان، الذين ظنوا أنفسهم بمنجاة من شر أبناء وطنهم، خيرا مما لقيه غيرهم. وهتكت أعراض الراهبات والمحصنات من النساء في بيوتهم أو في الأديرة نفسها، أو حملن ليشبع فيهم جماعات من الجند شهواتهم بوحشية في أماكنهم، وهوجمت النساء على أعين أزواجهن أو آبائهن؛ واستبد اليأس بكثيرات من الفتيات بعد هتك أعراضهن فأغرقن أنفسهن في نهر التيبر.

وكان الدمار الذي حاق بالكتب، والمخطوطات، ونفائس الفن يجل عن الوصف. واستطاع فليبرت، أمير أورنج الذي تولى وقتئذ قيادة هذه الحشود المختلة النظام، أو ما يشبه قيادتها، استطاع هذا الأمير أن ينقذ مكتبة الفاتيكان باتخاذها مقراً لقيادته، ولكن كثيرا من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة التهمتها النيران، وضاعت بذلك كثير من المخطوطات القيمة. ونهبت كذلك جامعة روما وبدد شمل موظفيها. وشهد العالم كولوتشي بيته يحترق عن آخره هو وما جمعه فيه من المخطوطات وروائع الفن، وأبصر الأستاذ بالدوس تعليقاته الجديدة على كتاب بلني تتخذ لإشعال نار في معسكر الناهبين. وفقد الشاعر ماروني قصائده، ولكنه كان أسعد حظاً من غيره؛ أما الشاعر باولو بمباتسي فقد قتل؛ وعذب العالم كرستوفور مارتشيلو بنزع أظافر يديه ظفراً بعد ظفر؛ أما الفنانان بيرينو دل فاجا، وماركنتوريو ريمندي وكثيرون غيرهما فقد عذبوا وجردوا من كل ما يمتلكون. وتفرق شمل مدرسة رافائيل فلم يبق لها وجود.

وليس من المستطاع إحصاء عدد من قتلوا في هذه الكارثة المدلهمة؛ وكل ما نستطيع أن نقوله أن ألفي جثة ألقيت في نهر التيبر من شاطئه الذي تقع عليه الفاتيكان؛ وأن ٩,٨٠٠ من الموتى دفنوا؛ وما من شك في أن عدداً آخر كبيراً من الناس قد قتل. وتقدر قيمة المنهوبات تقديراً متواضعاً بأكثر من مليون دوقة، وقيمة ما دفع من مال الفداء بثلاثة ملايين، وقدر كلمنت مجموع الخسائر بعشرة ملايين (١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار).

ودام السلب والنهب ثمانية أيام، كان كلمنت في خلالها يشاهده بعينيه من أبراج سانت أنجيلو؛ ويتوسل إلى الله كما توسل إليه أيوب المعذب: "فلماذا أخرجتني من الرحم، كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين"! وامتنع وقتئذ عن حلق لحيته، فلم يحلقها بعد ذلك أبداً، وظل سجيناً في القلعة من

٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧، وهو يأمل أن تأتيه النجاة من جيش دوق أربينو، أو من فرانسس، أو هنري الثامن. وسر شارل، وكان لا يزال وقتئذ في إسبانيا، عند سماعه بسقوط روما، ولكنه روع حين ترامت إليه أنباء وحشية الناهبين، وتنصل من تبعة هذه المنكرات، ولكنه أفاد كل الإفادة من ضعف البابا وخذلانه. وفي السادس من شهر يونيه أرغم ممثلوه -وقد يكون ذلك على غير علم منه- كلمنت بأن يوقع شروط سلم مهينة، و افق البابا بمقتضاها على أن يؤدي لهم وللجيش الإمبراطوري ٤٠٠,٠٠٠ دوقة، وأن يسلم إلى شارل مدائن بياتشتدسا، وبارما، ومودينا، وقصور أستيا، وتشفيتا فيتشيا، وسانت أنجيلو نفسها؛ وأن يبقى سجيناً في هذه القلعة الأخيرة حتى يسلم المائة والخمسين ألفا الأولى من هذا المبلغ، ثم ينقل بعدئذ إلى جائيتا أو نابلي، حتى يقرر شارل نفسه مصيره. وسمح لجميع من كانوا في قلعة سانت أنجيلو بمغادرتها ماعدا كلمنت وثلاثة عشر من الكرادلة، الذين صحبوه إليها، وعهد إلى الجنود الإسبان والألمان بحراسة الحصن، و أبقوا البابا على الدوام تقريباً محصوراً في جناح ضيق منه، وصفه جوتشيارديني في ٢١ يونيه بقوله: "إنهم لم يتركوا له فيه من المتاع ما يساوي عشرة اسكودوات. وأسلم كل ما كان قد أخذه معه في فراره من الفضة والذهب إلى آسريه ليوفي بذلك مائة ألف دوقة من مال الفداء).

بدرو الغشوم.

أحد ملوك مملكة قشتالة الإسبانية في القرون الوسطى، التي عاصرت الممالك العربية في الأندلس، وتمكنت من فرض جزية على بعضها في العهد الثالث لملوك الطوائف ، حكمها امير اسمه بدرو الغشوم، وصل للحكم بعد وفاة والده الملك ألفونسو الحادي عشر، وسيرة حكمه كانت عبارة عن مؤامرات ودسائس وصراع لا ينتهي على الحكم، انتهى في النهاية بمقتله. أول ما فعله عند اعتلائه العرش هو إبعاد إخوته التسعة وإعدام أمهم "ليونورا ده جزمان"، وتزوج من أميرة فرنسية تدعى "بلانش البوربونية"، وقتلها بعد ليلتين، حيث أمر بأن يدس لها السم متهما إياها بالتآمر ضده، ثم تزوج من عشيقة له تدعى "ماريا ده باديلا".

استمر مسلسل الصراع الدامي بينه وبين إخوته، فكان يسفك الدماء ويسجن كل من يشك في ولائه، وأحاط عرشه ببحيرة من الدماء، إلا أن ذلك لم يردع أعداءه عن محاولة إسقاطه، حتى تمكن منه أحدهم ويدعى "هنري التراستاماري"، إذ نجح في تنظيم ثورة ضده انتهت باعتقاله وقتله عام ١٣٦٩.

محاكم التفتيش في عهد الملك الإسباني فرناندو الثاني.

فرناندو الثاني ملك مملكة ارغون، تزوج من الملكة ايزابيلا، ملكة قشتالة، فتوحدت المملكتان على إثر ذلك تحت اسم "مملكة إسبانيا" عام ١٤٧٩، وتشارك الزوجان في إدارة المملكة الجديدة، التي تمكنت خلال فترة حكمهما من طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية في آخر دولة لهم ألا وهي مملكة غرناطة عام ١٤٩٢، إلا أن إسبانيا وجراء الحروب أصبحت تضم أعدادا غفيرة من المسلمين واليهود وأتباع المذاهب المخالفة للمذهب الكاثلوكي، ولكون الدين أحد أبرز دعائم الحكم في القرون الوسطى فقد أصدر فرناندو أمرا بإنشاء محاكم التفتيش، التي أخذت على عاتقها القضاء على كل معارضة للكنيسة الكاثوليكية، وتحيل المسيحية الكاثوليكية إلى دين الدولة والشعب بشكل مطلق بما يحقق استقرار البلاد، هذا من ناحية، من ناحية أخرى

فقد كانت الملكة ايزابلا تعتقد بأن المسيحية هي دين الله الحق، وأن الإنجيل كلامه وكتابه بالحق والقطع، وأن الله يريد أن يكون جميع البشر مسيحيين، وأن الإيمان بغير المسيحية كبيرة من الكبائر وخطيئة من الخطايا، وأن كل فكرة أو رأي أو دين أو مذهب يخالف المسيحية الكاثوليكية من الواجب أن يحارب، ولم يكن هذا اعتقادها هي بمفردها لكونها ملكة، بل كان الاعتقاد الشائع لدى أتباع الديانة المسيحية بشكل عام، لا سيما في أوساط الكنيسة التي كانت تشكل سلطة قوية لا بد من تكون متصالحة ومتشاركة مع السلطة الزمنية، أما الملك فرديناند فقد كان مقتنعا بأن وجود عقيدة واحدة سائدة ومسيطرة سيجعل إسبانيا أكثر قوة وأسهل إدارة، ووفقا لذلك فقد فوض فريديناد ستة قساوسة لإنشاء محكمة التفتيش الإسبانية وذلك عام ١٤٧٨ ، مهمتها التحقيق في تهم الهرطقة وإصدار الأحكام في من تثبت إدانتهم بها، علاوة على إنهاء وجود أي ممارسات دينية مخالفة للمسيحية الكاثوليكية، وبهذا القرار فقد أصبح الدين كدين وكسلطة تحت ولاية السلطة السياسية الزمنية، فسابقا تعيين رؤساء محاكم التفتيش كان بواسطة البابا، ولكن منذ عهد الملك فرديناند أصبح التعيين من قبل الملك بمصادقة البابا، وأصبحت الدولة مكلفة بدفع نفقاتها وأصبح بأمكانها الحصول على معظم دخلها، وأصبح للملك سلطة مراقبتها، ويحق له استئناف أحكامها.

بدأت محاكم التفتيش الإسبانية في عهد فرناندو مهامها في متابعة المهرطقين المحتملين من المسحيين الأصليين أو المعتنقين لها أو الذين يشك في أنهم عادوا إلى دياناتهم الأصلية، ولم تمس الذين ظلوا على دياناتهم كاليهودية والإسلام، وكان نظام محاكم التفتيش في أنها كانت

توزع منشورات عن طريق منابر الكنائس تطالب من خلالها المواطنين بالكشف عن المهرطقين أو من يشك في هرطقته، باستثناء الإبلاغ عن الأقارب، -حيث لم يكن مسموحا الإبلاغ عن الأقارب- بينما شجعت السلطات بناء على قوانين محاكم التفتيش الإبلاغ عن الجيران والأصدقاء والأقارب البعيدين، وكانت المنشورات تعد المبلغين بالحافظ على السرية وحمايتهم ومكافأتهم أيضا، وكانت منشورات الكنيسة في نفس الوقت تحذر الناس من الحرمان واللعنة والطرد في حال عدم التبليغ عن المهرطقين.

وكان المعتنق للمسيحية من أصول يهودية، الذي يحافظ على قواعد الطعام في شريعة اليهود، ويتخذ من السبت عطلة له، أو احتفل بأعياد يهودية، أو ختن أحد أطفاله أو أسماه باسم عبري، أو بارك أبناءه من دون استخدام علامة الصليب، أو إذا ردد مزامير الكتاب المقدس من دون تمجيد الله في الأعالي، وأشباهها من الممارسات، فإن تلك شواهد على كونه مهرطقا، ولا بد من الإبلاغ عنه فورا، وكان القانون يحث على كل من يشعر بأنه اقترف هرطقة المسارعة إلى إبلاغ المحكمة للحصول على الصفح، والتي كانت تحكم عليه بغرامة أو كفارة بشرط الإبلاغ عن أي مهرطقين أو مهرطقين محتلمين.

وكان المتهم بالهرطقة يصدر أمر بالقبض عليه بالإجماع بعد جمع عدد من القرائن والشواهد، وبعد القبض على المهرطق يسجن في زنزانة انفرادية، ويقيد بالسلاسل، ولا يسمح لأحد بزيارته، ويطلب إليه أن يحضر كافة ما يحتاجه، وأن يدفع كافة تكاليف إقامته في سجن المحكمة، وإن لم يكن يمتلك المبلغ فإن المحكمة تأمر بمصادرة ممتلكاته وبيعها حتى يتم تحصيل تكاليف إقامته، وتودع باقي الممتلكات في أمانات المحكمة لحين انتهاء قضيته، وفي الكثير من الأحيان كانت تباع على دفعات لإعانة أسرة المتهم.

وعلى المتهم إثبات أنه بريء مما نسب إليه، وليس على المحكمة إثبات أنه مذنب! وليس من حق المتهم حتى طلب مجادلة شهود إثبات هرطقته، وكانت المحاكمات سرية وكان على المتهم أن يقسم بأنه إن خرج لن يتحدث عما جرى له على نحو الإطلاق، وكان من واجباته أيضا الإفصاح عن كل من يعرفهم من المهرطقين، والمحكمة في النهاية إن اقتنعت بدفاع المتهم بعد اعترافه بالتقصير، وهو اعتراف ديني لا بد منه لكل متهم، فقد يصدر عليه حكما غير الإعدام، وإن أبى الاعتراف بالذنب سمح له بتوكيل محامٍ للدفع عنه، وفي كثير من الأحيان كان يعذب حتى يعترف، وكان يقيد بالسلال طوال فترة وجوده في السجن الانفرادي.

وكان بعض المحكوم عليهم بالإعدام يحصلون على المغفرة من أحد القساوسة، وكان قضاة المحكمة يعتقدون بأن تعذيب المذنب أمر مهم حتى يعترف بتقصيره وجرمه فيحصل على حكم اخف، وفي بعض الأحيان تأمر المحكمة بتعذيب المعترفين لإجبارهم على الكشف عن شركائهم أو من يعرفون عنهم الهرطقة، وربما كان الشهود يعذبون إذا ما كانت شهادتهم متناقضة للكشف عمن يقول الحقيقة منهم، وقد يعذب العبيد حتى يقروا بجرم ساداتهم، ولم تكن المحكمة ملتزمة بتحديد سن معين لتطبيق قوانين التعذيب، فكانت تعذب فتيات في الثالثة عشرة ونسوة في الثمانين من أعمارهن، بيد أن قوانين المحكمة كانت تمنع تعذيب المرضعات وبعض المرضى أو المتهمين بهرطفات صغيرة، وكان من قوانين التعذيب عدم إصابة الضحية بعاهة مستدمية، ولا بد من إيقافه إذا ما أمر الطبيب المعالج، وكان لا ينفذ إلا بحضور قضاة قضية المتهم وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل، وكان من أساليب تعذيب محاكم التفتيش تقييد يدي المتهم خلف ظهره ويعلق بهما حتى يعجز عن الحركة تماما، ثم يقطر الماء في حلقه حتى يكاد يختنق،

وأحيانا تربط أطر افه حتى تتكسر عظامه ويتقطع لحمه، وإن لم يقر المتهم بما نسب إليه من الهرطقة كان يسجن لفترات طويلة مقيدا بالسلاسل.

وكانت محاكم التفتيش تجبر المقرين بالذنب على الاعتراف أمام العامة والمجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة، وبعض المدانين بالهرطقة يحكم عليهم حضور القداس بانتظام وهم يرتدون لباس الإدانة، وفي بعض الأحيان يطاف ببعضهم في الطرقات وقد جرد الواحد منهم من ثيابه إلى وسطه وحمل شعارا يوضح جريمته المدان بها، ويعاقب إضافة إلى ذلك بالحرمان من تقلد أي منصب عام هو وعائلته إلى الأبد، أو ينفى من مدينته، وأحيانا قليلة من إسبانيا كلها، وقد يجلد عشرات الجلدات، وكان فرديناند قد أوصى بأن يحكم على المدانين بالهرطقة العمل في السفن، أو دفع غرامات مالية، أو مصادرة أمواله، وكان من ينفذ فيهم حكم الإعدام من المدانين بالهرطقة تصادر أموالهم ويمنح المبلغون عنهم نصف ميراثهم، بينما يحرم منها الورثة، الأمر الذي جعل الثروة في إسبانيا خطر على صاحبها إن لم تكن له علاقة قوية مع موظفي الحكومة المتنفذين، مما دفع ببعض الأسر الإسبانية إلى دفع مبالغ ضخمة منتظمة للمبلغين والمتفشيين وموظفي الحكومة الكبار نظير عدم التبليغ عنهم والتغاضي عن أبنائهم، الأمر الذي أدّى إلى استفحال الفساد على نطاق واسع في الجهاز الإداري والأمني لمحاكم التفتيش.

وقد كانت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة، وتطبق على المدانين بالهرطقات العظيمة، أو الذين اعترفوا بالهرطقة وتابوا عنها ثم عادوا إليها، وكان المحكوم عليه بالحرق يساق إلى ساحة عامة وبربطونه على كومة من الحطب، بينما يجلس قضاة محكمة التفتيش على منصة تقابله، وتقرأ عليه الأحكام ويطلب منه الاعتراف بذنبه، فان أقرّ يلغى التنفيذ ويساق إلى السجن بانتظار إصدار حكم جديد عليه، وإن أصر يأمر بإشعال النيران

ليموت حرقا، إلا أن كثرة تنفيذ عقوبات الإحراق أفقدها تأثيرها في ترويع المخالفين في السر وعامة الشعب، فعمدت سلطات محاكم التفتيش إلى جعلها أكثر رهبة وصخبا، فكان يحضرها موظفو البلديات والحكومة وهيئة المحكمة والقسيسين والرهبان، وقبل التنفيذ ينضم هؤلاء الممثلين إلى موكب كئيب يسير في طرقات المدينة الرئيسية ينتهي خط سيرة في الكنيسة الرئيسية، التي تبذل في أرجائها محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المذنبين، فيستسلم الكثيرون منهم، ومن يظل على عناده يساق في اليوم التالي وسط جموع غفيرة إلى إحدى ساحات المدينة الرئيسية، ويعرض الموكب صناديق لحمل عظامهم بعد الحرق وتوابيت لعظام لمن نفذ فيه حكم الحرق سابقا، وإذا ما كان بينهم محكوم عليهم بالحرق غيابيا فإن الموكب يعرض دما تمثلهم.

وعندما يستقر الموكب في الساحة ويجلس قضاة المحكمة ورجال الدين والملك أحيانا وموظفي الدولة يبدأ حفل الإعدام بتلاوة عظة، وبعد انتهائها يردد الحضور يمين الطاعة لمحاكم التفتيش المقدسة وعهدا بمحاربة الهرطقة بجميع أنواعها، ثم يساق المدانين واحدا تلو الآخر أمام القضاة ويتلى على كل واحد منهم الحكم الصادر ضده، فإن حدث ذلك أغلق عليه باب الرحمة ولا بد من حرقه (وإن اعترف قبل تلاوة الحكم عليه يغير الحكم إلى الجلد ومصادرة الأموال والسجن مدى الحياة أو لفترات طويلة) وإن اعترف بعد الحكم رحم بأن يشنق قبل حرقه! جاء في قصة الحضارة في وصف محرقة محاكم التفتيش الإسبانية: (ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة، حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم أحرقوا، بينما يحرق المعاندون أحياء. وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رماداً،

ينتثر على الحقول والجدران. ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين، بأن قرباناً قدم استعطافاً لإله غاضب من الهرطقة).

وقد دون المؤرخون بدايات جرائم محاكم التفتيش في عهد فرديناند في عام ١٤٨٠، حيث فر الكثير من الإشبيليين المتنصرين إلى الريف خوفا من طغيان المحكمة، والتجئوا إلى الإقطاعيين، إلا أن قضاة المحكمة هددوهم بالحرمان من الغفران ومصادرة أموالهم، فاضطروا إلى تسليمهم، وفي داخل اشبيليا نظمت مقاومة مسلحة لمحكمة تفتيش إشبيليا، إلا أن السلطات تمكنت من القبض على قادتها، وامتلأت سجون إشبيليا بالمتمردين، وتبع ذلك إقامة محاكمات سريعة، نتج عنها إقامة حكم الحرق على مائتين وثمانية وتسعين شخصا من الرجال والنساء.

وفي عام ١٤٨٣ عين الراهب "توماس ده تور كيمادا" مفتشا عاما لإسبانيا، وكان مؤمنا متعصبا يحتقر الترف ويعمل بحماسة شديدة وأجمل لحظات حياته هو في القبض والانتقام من الهراطقة، وعرف عنه التأنيب الشديد لقضاة محاكم التفتيش على تساهلهم وتسامحهم تجاههم، وعرف عنه نقضه للكثير من أحكام البراءة التي صدرت بحق المتهمين بالهرطقة، وأصدر تهديدات بالموت للمتنصرين من اليهود إن لم يبلغوا عن المرتدين لليهودية منهم.

ولما كان منه هذا التعصب الرهيب أجبره البابا اسكندر السادس على إشراك مفتشين آخرين في عمله، إلا أنه تجاوزهما وعين نفسه رئيسا عليهما، حتى جعل من محكمة التفتيش وكأنها حكومة مستقلة عن حكومة إسبانيا، وأحرقت محاكم التفتيش في سنتين بدافع منه اثنين وخمسين شخصا وصادرت أموالهم وممتلكاتهم، وأحرقت رفات ألف وستمائة وخمسين تائباً ممن حكم عليه بالشنق ثم الحرق، كما أصدرت أحكام مختلفة بحق المدانين

بالمخالفة أو التقصير، منها أحكام على ٧٥٠ يهوديا متنصر بمصادرة خمس أموالهم والسير أيام جمعة في موكب حاشد وهم يضربون أنفسهم بسياط من القنب.

وقاومت بعض المدن محاكم التفتيش، منها مدينة تيرول، فأصدر فرديناند أمر بحرمان سكانها من رعايته و إيقاف مرتبات موظفيها وسير جيشا لإرهاب أهلها، فاستسلمت المدينة، ولما عادت سلطة الدولة إليها ومن ضمنها سلطة محاكم التفتيش حتى تمردت مدينة أخرى هي سرقوسة، وكان تمردها عنفيا، حيث عمد المتمردون إلى اغتيال بعض موظفي محكمة التفتيش، إلا أن السلطات تمكنت من القبض عليهم وإعدامهم.

وفي مدينة بلنسية رفض المجلس البلدي مزاولة محكمة التفتيش لعملها، فلما وصل أمرها للملك أمر بالقبض على كل من يحول بينها وبين أداء مهامها، مما أدى إلى استسلام المدينة، و إنجاز محكمة التفتيش عملها بإحراق ١٠٠ رجل ومعاقبة ٩٨٣ آخرين بتهم الهرطقة!

وقد قاوم العديد من رجال الدين والأشراف والمتنورين طغيان محاكم التفتيش، إلا أن مساعيهم لم تحقق نتيجة تذكر، في مقدمتهم البابا سكستوس الرابع، حيث أصدر عام ١٤٨٢ مرسوما يقنن الإجراءات المتبعة في ضبط المتهمين بالهرطقة في مدينة واحدة إلا وهي أراجون بعد ضغط من بعض رجال الدين والأعيان، إلا أن الملك رفضه وأمر بالقبض على من سعى لإصداره لدى البابا.

جاء في قصة الحضارة: (أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لو نفذ لوضع حداً لمحكمة التفتيش في أراجون؛ وشكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعاً في الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم

وعبيدهم وأمر بأن على المفتش في المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلي الأسقف المحلي والحصول على موافقتهم؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا في سجون الكنيسة؛ وأن يسمح للشاكين في الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة، وأن يؤجل كل تصرف في القضية حتى يحكم في الاستئناف، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا؛ وبذلك يصبحون في حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة. وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة، وكل من يخرج على هذه القواعد في المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة. لقد كان مرسوما متنوراً وأحكامه توحى بصدقة ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التي أنفق المتنصرون فيها بسخاء في سبيل الحصول عليه. ولما رفضه فرديناند وقبض على مبلغيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخر).

وسعى المتنصرون المفزعون من محاكم التفتيش للحصول على براءات شرعية تجنبهم تعرضها لهم، ودفعوا أموال طائلة للحصول عليها، إلا أن المفتشين لم يعترفوا بها، ولما كان الباباوات الذي أصدروها بحاجة لدعم الملك فقد تخلوا عنها!، وكانت الأموال تدفع بغزارة للحصول على العفو فيصدر ثم يسحب بعد ذلك.

قصة الحضارة: (كيف كان موقف الشعب الإسباني من محكمة التفتيش؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة. وأظهرت الجماهير التي احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضحايا،

وحاولوا في بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعتر افهم من المحرقة. وتجمع المسيحيون لابتياع أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمزاد.

كم بلغت كثرة الضحايا؟ قدر ليورنت. بأنهم بلغوا بين عامي ١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا، وستة وتسعون ألفا وأربعمائة وتسعون عوقبوا، وبين عامي ١٤٨٠- ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة و اثني عشر أحرقوا، ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة، وكانت هذه الأرقام في معظمها تخمينية. ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا في المبالغة، يذهب مؤرخ كاثوليكي إلى أنه قد أحرق ألفين بين عامي ١٤٨٠و١٥٠٤، وألفين آخرين حتى سنة ١٧٥٨. وأحصى كاتب سر إيز ابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا، بألفين قبل عام ١٤٩٠، وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف في أشبيلية وحدها، وهناك ضحايا في معظم المدن الإسبانية، بل في الإمارات التابعة لإسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضي الواطئة وأمريكا. ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠م، ولا تصور الإحصائيات أياً كانت الفزع الذي عاش فيه العقل الإسباني في تلك الأيام والليالي. فقد كان على الرجال والنساء حتى في ستر منازلهم أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدى بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش، لقد كان ضغطا عقليا لا نظيرله في التاريخ.

ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العر افين سوى تعابير عن عصر مصاب بالإيمان، الباعث على القتل، لاختلال ثقته بعلوم الدين، ويجب علينا أن نحاول تفهم مثل هذه الحركات بمصطلحات زمانها، ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجر ائم التاريخية. ذلك لأن عقيدة سائدة لا يجب أن تصبح عدوا مهلكا للعقل الإنساني).

الطغاة الإسبان ومجازر إبادة الهنود الحمر.

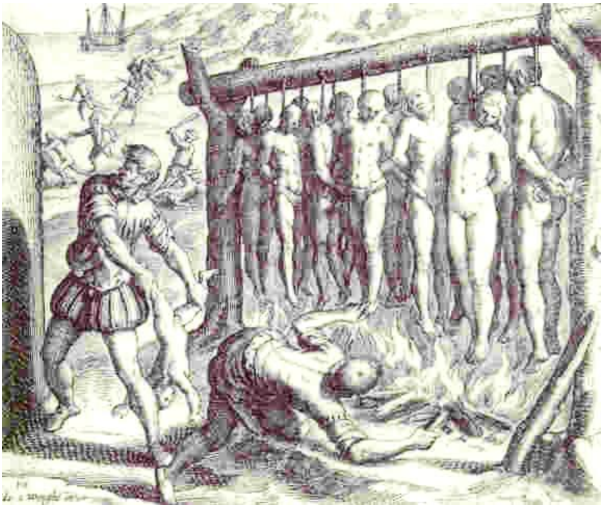

يفترض العديد من علماء الانتربلوجيا أن الهنود الحمر هاجروا إلى الأمريكيتين منذ ١٣ إلى ١٦ ألف سنة، عبر مضيق برينغ الذي يفصل بين قارتي آسيا وأمريكا، ويفترضون أن الهنود الأوائل هاجروا إما سيرا على الإقدام أو بالقوارب البدائية، وذلك في أواخر ما يسمى بالعصر الجليدي، وانتشروا في معظم أنحاء الأمريكيتين ، وأسسوا فيهما مئات الأمم والقبائل والشعوب ذات الثقافات والأنماط المتعددة والمتنوعة.

من أهم حضارات الهنود الحمر حضارة المايا، وكانت تمتلك سجلات ومدونات، إلا أن معظمها كان مصيره الحرق على يد الغزاة الإسبان والأوربيين الآخرين الذين اعتبروها هرطقات، ولم ينج منها إلا وثائق قليلة للغاية.

ومن أهم حواضر الهنود الحمر حاضرة مدينة تينوتشتيتلان، وموقعها بالقرب من مدينة مكسيكو سيتي، وقد عدت من اكبر مدن العالم آنذاك، بعدد سكان يزيد على المائتي ألف نسمة.

وكذلك حضارة "أدنا" في وادي نهر المسيسبي، وحضارة هوبول في الجانب الشرقي منه بجنوب شرق أمريكا الشمالية.

وفي جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية شيدت حضارة صناع السلال، التي عرف عن شعبها بأن بيوتهم كانت من الطين وبقايا الشجر، ويدفنون مواتهم في الكهوف، واشتهروا بصنع الحقائب والصنادل من ألياف النباتات، ثم أصبحوا يبنون بيوتهم من الحجارة وينسجون القطن.

وفي منطقة البحيرات الكبرى (في أجزاء من الولايات المتحدة وكندا حاليا) ظهرت حضارة النحاس، وحضارة صيادين البر والبحر، وكانت شعوبها تصنع من النحاس آلاتها التي تستخدمها في الزراعة والصناعة، وذلك بطرقه على الساخن أو البارد، ولكنها لم تكن تعرف طريقة صهره أو صبه في قوالب كما كان متبعا عند غيرها من أمم عصرها.

وعرف عن الهنود الحمر إنجازات معتبرة في الفلك والرياضيات، وكانوا كغيرهم من بني البشر تسود بينهم العقائد والأساطير، خاصة تلك التي تتعلق بقصة الخلق وأصل وجود الإنسان، فبعضهم كان يعتقد بأن الإنسان وجد منذ الأزل، وآخرون كانوا يعتقدون بأنهم خلقوا من قبل آلهة عظيمة، وبعضهم الآخر كان يعتقد بأن لهم امتدادين، طبيعي وروحي، وأنهم سيشعرون بالامتداد الروحي بعد الموت ومفارقة أجسادهم الطبيعية.

وكان الهنود الحمر يؤمنون بثلاث عشرة أسطورة هي بمثابة كتاب مقدس لهم، تبشر بوصول آلهة بيضاء من الشرق البعيد عبر أمواج المحيط،

ستخلصهم من الخطايا والشرور، وكانوا يجمعون الذهب والمعادن النفيسة ويخزنوها استعداد لتقديمها لهذه الآلهة عند ظهورها.

إلا أنه لم يأتهم الآلهة الموعودة ولم يأتهم حتى الملائكة أو الأنبياء، بل جاءهم بشياطين على صورة بشر مثلهم، وطئوا أرضهم كغزاة طغاة ارتكبوا بحقهم جرائم إبادة رهيبة، أصبحت فيما بعد عارا لم ولن يمحى عن جبين الإنسانية إلى الأبد.

في القرن الخامس عشر تمكن الرحالة "كريستوفر كولومبوس" من الحصول على تمويل مالي ودعم كامل من الملكان الكاثلوكيان في إسبانيا الملك فرناندو الثاني وزوجته إيزابلا، للسفر في رحلة طويلة لاكتشاف طرق جديدة للتجارة والتخلص بذلك من سيطرة الدول المعادية لإسبانيا والممالك الأوربية، وفي مقدمتها الدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر على طرق التجارة الرئيسية في العالم في ذلك الوقت، والتخلص من أعباء ضرائبها الفادحة، والوصول إلى الشرق الأدنى (لا سيما الهند) بسهولة من دون المرور على الشرق الأوسط، الذي كان خاضعا للعثمانيين وحلفائهم، علاوة على تحقيق أهداف أخرى منها نشر الديانة المسيحية.

وقد وطئ كولومبس جزيرة "لوكايس" بالقرب من أمريكا الشمالية عام ١٤٩٣م، فظن ومن معه أنها إحدى جزر آسيا، ثم توغل في الأرض الكبرى، وأخذ يفتش عن الصين! وتحديدا مملكة كاتي، ولكن دون جدوى، ثم عاد إلى إسبانيا ليعلن نتائج اكتشافه، وانتهى أمر رحلة كولومبس لهذا الحد، وفي عام ١٥٠٦ توفي عن عمر يناهز الخامسة والخمسين، ثم جاء رحالة إيطالي آخر هو "أمريكو فسبوتشي" الذي شكك في نتائج رحلة كولومبس، وما لبث أن قدم البراهين على أن ما اكتشفه كولومبس أرض جديدة، وشارك في

رحلات استكشافية أخرى للتأكد من ذلك، وتبث فعلا أن كولومبس وطئ أرضا جديدة أطلق عليها اسم أمريكا نسبة إلى "اميركوفسبوتشي".

ومنذ اكتشاف القارتين الأمريكيتين أرسل الإسبان السفن لاستكشاف وغزو واحتلال العالم الجديد، وسرعان ما توافد المجرمون وقطاع الطرق وأهل البغي والعدوان والإجرام على الأرض الجديدة، سواء كانوا من طرف الحكومة الملكية الإسبانية أم من يعملون لحسابهم الخاص، لا سيما وأن الحكومة الإسبانية لم يكن باستطاعتها فرض سلطتها على تلك الأراضي الشاسعة والجزر التي لا عد لها، ولم تكن تمتلك مشروع لإدارة هذه الأراضي، وكان كل ما ترمي إليه هو الحصول على الثروات والأموال.

وقد ارتكب الإسبان مجازر رهيبة، وجرائم مهولة، وإرهاب فضيع، ضد شعوب القارتين الأمريكيتين، ونورد هنا شهادة المطران "برتلومني دي لاس كازاس" (رجل دين مسيحي ولد في قشتاله عام ١٤٧٤) ففي عام ١٥١٣ سافر ضمن سفن المهاجرين الإسبان إلى القارة الأمريكية الجنوبية، واستقر في مدينة سان دمنيغو (إحدى مدن جمهورية الدومينيك في عصرنا الحاضر) وأصبح أول راهب فيها، وعاش فيها فترة، ثم انتقل إلى جزيرة كوبا، وفي عام ١٥٢٠ انتقل إلى فنزويلا، وقد شهد جرائم الإبادة المروعة التي ارتكبتها القوى الإسبانية المسلحة بحق شعوب الهنود الحمر، وحاول ردع الملوك الإسبانيين وحثهم على وقف مجازر قواتهم بحق الشعوب الهندية المستضعفة، ولكنه لم يفلح، وحاول مع رجال الكنيسة في أن يقفوا إلى صف الشعوب الهندية ضد طغيان بني قومهم، إلا أنهم لم يكونوا يعبدون إلا الذهب، كما وصفهم بذلك أحد زعماء الهنود، وبعد أن شاهد ما شاهد ويأس من نصرة الشعوب الهندية المستضعفة عاد إلى إسبانيا تاركا إياها تواجه مصيرها المحتوم، وقضى السنوات الأخيرة من حياته معتزلا، وأثناءها كتب كتابه هذا، الذي

كان شاهد عيان على مجازر الطغاة الإسبان ضد شعوب الهنود الحمر، وقد دونها في كتابه "المسيحية والسيف" ونورد في الصفحات التالية أهم ما جاء فيه:

(١) إنني أريد أن أحدثكم يا سمو مولاي عن الشرور والآثام عن الدمار والخراب في هذه الممالك الكبيرة، أقصد هذا العالم الجديد المسمى ببلاد الهنود الحمر... وإن المرء لا يستطيع أن يتخيل أبدا أن في قدرة البشر أن يقوموا بمثل هذا التخريب.. لقد عشت في بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر من خمسين عاما وشاهدت بأم عيني ما ارتكبوه من فطاعات وجور.. فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغيانا وجورا يدينهما كل قانون وضعيا كان أم إلهيا، ولهذا عزمت على أن أبرئ ساحتي من هذه الجريمة، بأن لا أسكت عنها، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح وآذوه من أجساد.

(٢) ويتحدث عن قارة أمريكا وشعبها الهندي: (كل هذه الأراضي التي تم اكتشافها عام ١٥٤١ كانت تعج بالحياة والبشر، كأنها خلايا نحل، وخلق الله هذه الشعوب الغفيرة رضية لا تعرف الشر والرياء، إنها شعوب طيعة بالغة الوفاء، بل إنها أكثر الشعوب تواضعا وصبرا ومسالمة... شعوب لا تعرف الضغينة ولا الصخب ولا العنف والخصام.. شعوب مرهفة رقيقة الحاشية، ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الإرهاق، وسرعان ما يهلكها المرض مهما كان... شعوب فقيرة لا تمتلك الوفرة، بل تعف عن متاع الدنيا، لهذا لا تعرف الكبر والجشع والطموح.. إن لهم ذهنا ثاقبا شديد الوضوح، وهم أذكياء منفتحون لكل عقيدة صالحة وتراهم يلحون على معرفة الشاردة والواردة... إن كثيرا من الإسبان –غير الكهنة- يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة

أنفسهم وجميع خصالهم، ولربما كانت هذه الشعوب اسعد أهل الأرض لو أنها عرفت الله.

(٣) ثم يتحدث عن قومه: (لقد غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التي لم تجد طعامها أياما وليالي، ومنذ أربعين سنة وهم يقطعون أوصالها ويتلفونها ويروعونها، ومنذ أربعين سنة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها).

(٤) ثم يذكر بعض جرائم الطغاة الإسبان: (إن جزيرة كوبا خاوية على عروشها، لم يبقَ من أهلها ديار، أما جزيرتا سان خوان وجامايكا، فجزيرتان سعيدتان كبيرتان، ، وهنالك ستون جزيرة مثلهما على تلك الحال، إن أبشع جزيرة فيهما أكثر خصبا و أبهى جمالا من حدائق ملك إشبيلية، وكانت أسلم بلاد الله و أكثرها أمنا وطمأنينة وكان يسكنها نصف مليون من البشر لم يبقَ منهم اليوم أحد فقد أفنى الإسبان أهلها.

أما على اليابسة فأنا على يقين من أن رجالنا الإسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضي كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء، لقد نهبوا أكثر من عشر ممالك أكبر من كل إسبانيا وأرغون والبرتغال مجتمعة، وتبلغ مساحتها ضعف ما بين إشبيلية والقدس وطوال هذه السنوات الأربعين أبيد أكثر من اثني عشر مليونا من الرجال والنساء والأطفال ظلما وعدوانا جراء طغيان المسيحيين وأعمالهم الجهنمية.

إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الوادعة ومحوا ذكرها من وجه الأرض، إما بالاجتياحات الدموية المتوحشة وإما باستعباد من تبقى استعبادا فضا غليظا شنيعا لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب، أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل.

قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البهية، كل ذلك الفتح باسم الدين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات ويصلوا إلى مراكز اكبر من أشخاصهم، إن جشع وتطاول شهواتهم الجامحة أودى بهم إلى احتقار هذه الشعوب المتواضعة الحالمة الودودة، ونهب ثروات هذه الأراضي الخصبة البهيجة، كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات بل أقل قدرا من الدواب وأحط شأنا من الزبل، ولهذا مات منهم العدد الغفير قبل أن يعرفوا حلاوة الإيمان ومن غير أن يتذوقوا القربان المقدس... ثمة حقيقة مؤكدة أجمع عليها الإسبان بطغاتهم ومجرميهم وهي أن الهنود في كل تلك البلاد لم يمسوا مسيحيا بسوء.

في البدء سبوا النساء والأطفال ليستخدموهم كما يشاءون، ثم راحوا يسرقون طعامهم، فلم يكتفوا بما كان الهنود يقدمونه لهم عن رضا ونفس طيبة سخية، فما كان يكفي ثلاث أسر هندية، كل أسرة من عشر أنفس ولمدة شهر، يلتهمه المسيحي أو يفسده في يوم واحد، وحين رأى الهنود كل هذا العنف والتفظيع بدؤوا يعرفون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء، وصار بعضهم يخبئ طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفي في الغابات، وكان المسيحيون يطاردونهم ويختطفون أسياد القرى.

ثم راح الهنود يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين وحملوا السلاح، ولكنه كان سلاحا ضعيفا غير هجومي، عاجزا عن المقاومة والدفاع، لذلك كانت حروبهم أشبه بالعاب الصبيان، أما المسيحيين فعاقبوهم بمذابح لم تعرف في تاريخ الشعوب، كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلا أو حملا أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة... وكانوا يراهنون على من يشنق بضربة سكين، أو بقطع رأسه أو تقطيع أحشائه بالسيف، كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من

أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين.

كانوا يسفكون الطفل وأمه بالسيف وينصبون مشانق طويلة، ثم يشعلون النارويحرقونهم أحياء.

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعا متنوعة، بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعا ناقصا لتبدوا كأنها معلقة بأجسادهم، أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان، يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين.

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة وبما أنهم يصرخون صراخا شديدا أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذي كان نائما فقد وضعوا في حلوقهم قطعا من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النارالهادئة تحتهم، رأيت ذلك بنفسي ور أيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها. أما الذين هربوا إلى الغابات وكهوة الجبال بعيدا عن هذه الوحوش البشرية الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلابا سلوقية شرسة لحقت بهم، وكانت كلما رأت واحدا منهم انقضت عليه ومزقته و افترسه كما تفترس الخنزير.

مرة جاء الهنود لاستقبالنا محملين بالهدايا والخيرات، وقد أعطونا كثير من السمك والخبز والطعام. وماذا فعل المسيحيون لشكرهم؟ استولى الشياطين على قلوبهم فجأة، فراحوا يقتلونهم بالسكاكين بلا سبب ولا مبرر، وقد قتلوا أمام عيني أكثرمن ثلاثة آلاف إنسان رجالا وأطفالا ونساء.

ومرة توجهت مع حاكم المنطقة إلى هافانا وقبل وصولنا بأيام بعث إلى أسياد المنطقة رسلا طمأنهم وضمن لهم أن لن يؤذيهم أحد، وحين وصلنا إلى هافانا استقبلنا الزعماء وعددهم واحد وعشرون، وذهلت حين شاهدت

القبطان يأمر جنوده بالقبض عليهم وإحراقهم إحياء، وقد ذقت الأمرين لإنقاذهم، و أفلح مسعاي، لكن عزيمة القبطان لم تنثن، فقد أمر بإحراقهم بعدها فأحرقوا أحياء.

وحين أدرك سكان كوبا أن مصيرهم مماثل لمصير الجزر الأخرى وأنهم سوف يقتلونهم ويستعبدون قرروا الانتحار الجماعي، كان الآباء يشنقون أنفسهم وأهليهم وأطفالهم قبل وصول الإسبان.

خلال إقامتي في الجزيرة أربعة أشهر توفي أكثر من سبعة آلاف طفل لأن أهلهم كانوا يصطحبونهم معهم إلى مناجم الذهب، ولقد رأيت أمرأ أفظع، كان الإسبان يصطادون الهنود اللاجئين إلى الغابات والكهف. هكذا أبادوا أهالي كوبا عن بكرة أبيهم، لقد شاهدتها عامرة بالناس، وأي أسى ينتاب المرء عندما يراها بعد ثلاثة أشهر وقد أصبحت صحراء موحشة!

في عام ١٥١٤ توجه حاكم جبار إلى اليابسة، كان طاغية فظا لا يعرف قلبه الشفقة أو الرحمة. وكان غيره من الإسبان قد سبقوه إلى اليابسة، فقتلوا ونهبوا، لكنهم لم يتوغلوا بعيدا، أما فقد تجاوز في تعذيبه للهنود كل الذين سبقوه إلى الجزر، فقد أغار على أكثر أراضي الهنود سعادة ورخاء.

وعرفت طاغية قام بحملته في هذه اليابسة فقتل أكثر من أربعة آلاف إنسان.

وكان هذا الطاغية وصحبه قد ارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع، واسترقوا واستعبدوا الكثيرين، مما يصعب على الإنسان وصفه وإحصاؤه، أما المذابح فترتكب وفقا لمزاج الطاغية ولأتفه الأسباب، كان يأمر بذبح الهنود إذا تأخروا في الرد عليه أو في الوصول إلى قصره، أو إذا لم يجيئوا في الوقت المناسب، ولم يكن هنالك هندي يستطيع النجاة من أحصنته الغاضبة، وكان يرسل جنوده في حملات لنهب القرى الهندية ويسمح لهم باسترقاق ما

استطاعوا منهم، وكان هؤلاء يربطون الهنود لكيلا يرموا بما أثقلت به ظهورهم.

وقد أمر الحاكم الطاغية كل زعيم هندي بأن يؤمن له خمسين هنديا في كل شهر لاسترقاقهم، وكان جنوده يذهبون إلى هذا الزعيم في آخر الشهر، فإذا لم يجدوا العدد الكافي رمو بالزعيم إلى كلابهم، وقد اضطر هؤلاء إلى تجميع الرقيق من قبائلهم، وكانت هذه المخلوقات الشقية تنقل في مراكب إلى بلاد البيرو لتباع هناك، وبذلك غادر نيكارجوا أكثر من ٥٠٠ ألف هندي، بينما توفي أكثر من ٦٠٠ ألف داخل الجزيرة وذلك مما عانوه.

ولقد شاهدت حملة استرقوا فيها ستة آلاف هندي من قرية واحدة، فلم يصل منهم إلا ستة أحياء، أما الباقون فقد تساقطوا على الطرق بسبب الجوع أو المرض أو الجراح، وكان الإسباني حين يرى بعضهم يسقط أرضا يقطع رأسه بالسيف، لكي لا يزعج نفسه بفك الحمولة عن ظهره.

وحين كان الإسبان يريدون أن ينهبوا قرية أو يسرقوا ذهبها وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل ومع طلوع الفجر، فكان الإسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء، كما يحرقون الرجال قبل أن يستيقظوا، وكانوا يقتلون من يشاءون ويعذبون من يقبضون عليه حتى الموت، وأما من لا يقتلونه فيسمون على جلده شارة الرق بميسم من حديد.

مرة كان أحد قباطنة الإسبان الأشرار متوجها بجيش من عشرة آلاف أو عشرين ألفا، وكان معه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم عبيدا بعد تعذيبهم، وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذي يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى، هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر، وكان الرجال

يقلون الأطفال ويشوونهم، وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه، قائلين: إنها أشهى لحم الإنسان!

لقد شيد هذا القبطان الطاغية أسطولين أحرق بهما كل الأراضي التي مر بها، وكأن السماء تمطر نارا، آه كم ترك من أيتام، وكم سرق أطفالا من أهلهم، وكم حرم رجالا من زوجاتهم، ونساء من أزواجهن! آه كم ارتكب جنوده الزنا والفسق والدعارة والعنف! كم استعبد بشرا وكم أهرق دما وأسال دموعا!

(٥) كانت أراضي "سانتا مرتا" غنية بالذهب، وكان أهلها الهنود بارعين في استخراجه، من أجل ذلك لم يتوقف الإسبان الطغاة عن الإغارة على هذه المناطق بسفنهم لنهبها وسرقة أهلها واغتنام ما يمتلكون من ذهب.

في عام ١٥٢٣ قرر بعض الطغاة أن يسكنوا في هذه المنطقة، وبما أن الأراضي غنية فقد تعاور عليها الطغاة، وكانت كلما دخلت امة لعنت أختها وفاقتها في ارتكاب الفظائع.

في عام ١٥٢٩ جاء طاغية أسوأ من أسلافه، لم يكن يعرف الخوف من الله أو الر أفة بالعباد، لقد نهب كنوزا هائلة، ثم مات قتلا على يد طاغية آخر، وتوغل الطاغية الجديد ورجاله في البلاد واجتاح وقتل وعذب حتى جمع أكثر ما استطاع تجميعه من الذهب.

لقد استنزف الإسبان هنود هذه المنطقة (سات مرتا) بتحميلهم الأثقال على أهلهم في الجبال الوعرة، وحين يسقط الهندي خائرا من شدة الإرهاق يكسر الإسباني أسنانه بمقبض سيفه، فينهض المسكين وهو يتلوى ألما ويصيح: اقتلني حالا لأنتهي من عذابكم أيها الشياطين. يقول ذلك ويضع يديه على قلبه ويلفظ الروح.

(٦) وعن المجازر التي ارتكبها الطغاة الإسبان في المنطقة الممتدة بين ساحل باريا وخليج فنزويلا، يقول المطران: (لقد نهبوا هذه المنطقة وباعوا سكانها عبيدا للخارج، والحق إنه ليصعب علي أن أروي ما ارتكبه الإسبان على هذا الساحل من ظلم وجور وإذلال وذلك منذ عام ١٥١٠ حتى اليوم.

إن جزيرة "ترينيدادا" مثل أكبر من صقلية، وهي جزيرة كانت سعيدة أنها تلتقي باليابسة عند منطقة باريا، وأن أهلها من أسعد سكان بلاد الهند، في عام ١٥١٦ توجه إليها لص إسباني بصحبة ستين لصا من الشطّار ليسكنوها ويعيشوا مع أهلها، واستقبلهم الهنود كعادتهم كأنهم أولادهم من لحمهم ودمهم، وقد شيد الهنود لهؤلاء منزلا كبيرا من الخشب زعموا أنهم يريدون أن يسكنوا فيه، وكانت تلك وسيلتهم إلى ما كانوا يريدونه، فما إن وضع الهنود القش فوق العوارض وغطوها جيدا، هرع الإسبان وطلبوا إلى كثير من الهنود أن يدخلوا بحجة الإسراع في إنهاء المنزل، ثم توزع الإسبان داخل المنزل وخارجه وكانوا مسلحين مستعدين للانقضاض على كل هندي تسول له نفسه بالخروج، أما الذين كانوا في الداخل من الإسبان فقد سلوا سيوفهم وهددوا الهنود العراة بقتلهم إذا تحركوا، وحين حاول بعضهم الهروب لاقى مصرعه وتمزق إربا إربا، ثم إن الإسبان طوقوا المنزل وأشعلوا فيه النار، وكان فيه مائة أو مائتان وقد أحرقهم الإسبان أحياء، أما بقية الهنود فقد ساقوهم إلى سفينتهم وأبحروا بهم إلى سان خوان، حيث باعوا نصفهم عبيدا، ثم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باعوا النصف الآخر، وحين لمت القبطان في جزيرة خوان على ما فعله أجابني: يا سيدي إن من أرسلني إلى هناك أمرني أن آتي بالهنود سلما أو حربا. واعترف لي هذا الطاغية أنه لم يعرف في حياته أمه أو أباه، وأن الهنود في جزيرة "ترينيداد" كانوا بمثابة الأم والأب، لقد اعترف بذلك ولن يغفر الله له خطاياه.

لقد ساق الطغاة الظالمون إلى الجزيرة الإسبانية والى جزيرة سان خوان أكثر من مليوني هندي بريء أعزل، التقطوهم على طول ذلك الساحل الذي كان يعج بالبشر، وقد مات المليونان كلهم جراء التعذيب الذي لاقوه أثناء عملهم في المناجم.

إنني أعلن حقيقة لا ريب فيها حين أقول أن كل سفينة إسبانية كانت تنقل هنود لبيعهم، ترمى في البحر بثلث حمولتها على أقل تقدير، كان الإسبان يرمون إلى البحر كل هندي ضعيف أو مريض، وكان الهنود يحتضرون في السفن، لأن الإسبان كانوا يرفضون إطعامهم والإنفاق عليهم، وقد أخبرني أحد الطغاة أنه أبحر مرة من لوكايس إلى هذه الجزيرة دون أن يستعين بخريطة أو بوصلة، وكان يقتفي جثث الهنود التي ألقيت بكثرة على طول الطريق بين لوكايس والجزيرة الإسبانية.

وقد رأيت مرة ما يفطر القلوب ويفتت الأكباد؛ رأيت السفينة حين وصلت إلى الجزيرة نزل منها الهنود الذي سيباعون، كان الأطفال والنساء والشيوخ والرجال عراة يتساقطون أرضا من شدة الجوع، بعد ذلك يأتي الإسباني فيعاملهم كما تعامل النعاج، حيث يفصل الآباء عن الأطفال والزوجات عن أزواجهن، ويصنع منهم قطاعنا، كل قطيع من عشرة أنفس أو عشرين نفسا، بعد ذلك تجرى القرعة لتوزيع هؤلاء المساكين على الإسبان من أصحاب السفن والطغاة واللصوص.

ولدى الإسبان نوع آخر من الطغيان لا يوجد له مثيل في هذا القرن، كان الإسبان يمسكون بشعور الهنود ويلقون بهم في البحر من الفجر إلى النجر، ويجبرونهم على أن يبقوا معظم هذا الوقت تحت المياه يصطادون المحار، ثم يرمون به شباكهم الصغيرة ويصعدون ليتنفسوا فقط ويوجد إلى جانبهم عادة جلاد إسباني ينتظر الغواص الهندي، حتى إذا وجد أن الهندي قد

أمضى فوق الماء فترة أطول مما يلزم لتنفسه يمسكه مجددا من شعره ويرميه إلى الأعماق.

وفي الليل كانوا يربطونهم إلى الأرض ويوثقونهم بها حتى لا يهربوا، وكان الهندي المسكين في معظم الأحيان يغوص لصيد اللؤلؤ فتصطاده أسماك القرش والحيتان الكبيرة.

ومن لم يمت تحت المياه فإنه يموت فوق البر بعد يوم أو يومين وهو يبصق الدم بغزارة، أو يصاب بالإسهال الحاد لكثرة ما ابتلع من تلك المياه الباردة، إن شعورهم الفاحمة السوداء تبدو كأنها محروقة أو أشبه بوبر ذئاب البحر، بل ينبت في ظهورهم ما يشبه ملح الباردو، وتتحول هذه الكائنات البرية المسكينة إلى وحوش ذات طبيعة بشرية.

لقد فتك الإسبان بهذا الاستعباد الجهنمي بكل هنود جزر لوكايس.

(٧) يجري في منطقة باري نهر يسمى يايا باري، وذلك على مدى مائتي فرسخ داخل اليابسة، في عام ١٥٢٩ جاء طاغية جبار إلى منابع هذا النهر يصحبه أكثر من ٤٠٠ رجل، وارتكب جرائم عديدة، فأحرق كثيرا من البشر أحياء، وذبح بحد السيف عددا كبيرا من الأبرياء الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة لا يؤذون أحدا ولا يكنون شرا لأحد.

لقد أرعب الأهالي وهجرهم من بلادهم التي لم يتركها إلا قاعا صفصفا، ثم توفاه الله وتفرقت حملته، لكن طغاة أقسى منه قلبا جاءوا بعده فاقوه جبروتا و آثاما.

(٨) وفي فصل "حول المناطق البرية والساحلية المسماة بفلوريدا" يقول: في عام ١٥١٠ وصل ثلاثة طغاة إلى هذه المناطق، فارتكبوا فظاعات، وقد مات ثلاثتهم شر ميتة، وانهارت عليهم البيوت التي شيدوها فوق دماء البشر، وكنت أعرفهم جميعا، ولقد محيت ذكراهم من على وجه الأرض، ويا

ليتهم لم يعيشوا قط، فقد تركوا وراءهم مناطق ترتجف خوفا إذا ذكرت أسماؤهم ويعمها القرف والهول مما سفكوه من دماء.

لكن طاغية رابعا وصل إلى فلوريدا عام ١٥٣٨ مع عدد من رجاله ولم يسمع أحد شيئا من أخباره منذ ثلاث سنوات، لكنني متأكد من أنه ارتكب المذبحة لحظة وصوله ثم اختفى خوفا من الانتقام، وإذا ما كان حيا فإنني أشفق من الخوف على أهالي تلك البلاد لأنه من أكثر الطغاة خبثا وقسوة، فقد قام رجاله بمذابح في عدد من بلا الهند وفتكوا وأحرقوا، ولقد علمت بعد كتابة ما كتبت أنه توفي قبل فترة، وعرفت مدى الجرائم العجيبة التي اقترفها هو وصحبه، كان يربط الهنود وهم يعملون عشرات عشرات، بحبل واحد، فإذا سقط أحدهم من الإرهاق قطع رأسه وترك الجسد على الأرض لكي لا يضطر إلى فك الحبل.

وعلمت أن الإسبان دخلوا قرية فاستقبلهم أهلها بالترحاب، ثم أطعموهم وخصوا لهم ٦٠٠ هندي لخدمتهم، غير أن الإسبان لم يكادوا يرتاحون من وعثاء السفر حتى بدؤوا بتقطيع الرؤوس ولما رأى بعض الهنود قد حذروا منهم ذبحوهم بالجملة، رجالا ونساء وأطفالا، وأحضر الطاغية مائتي هندي وراح يتسلى بهم: منهم من جذع أنفه، ومنهم من قطع شفته السفلى أو شق فكه، وكان يتسلى بتغيير معالم وجوههم، ثم يرسلهم إلى أهاليهم بلا أنوف أو شفاه.

في فصل عن "ريو ديلا بلاتا" (منطقة بين الأرجنتين والأوروغواي) قال: (ابتداء من ١٥٢٢ اجتاح قادة إسبان منطقة ريو ديلابلاتا أربع مرات، وكان في هذه المنطقة ممالك عظيمة وشعوب وهبها الله الحكمة والعقل، إننا نعرف أنهم ارتكبوا فيها المذابح المريعة وأصابوها بالأضرار الفادحة، ولقد علمت أخيرا أنهم أفنوا مساحات هائلة وممالك شاسعة من هذه المنطقة، وارتكبوا

فيها مذابح أفظع مما ارتكبوه في غيرها من البلاد، وقد علمت أنهم قتلوا خمسة آلاف نفس بحد السيف عندما أنهى الهنود تقديم الطعام لهم، ورويت لي حادثة أخرى عن هنود استدعاهم الإسبان لخدمتهم فلم يسرعوا في المجيء أو أنهم تأخروا في الوصول، فجاء إليهم الإسبان لقتلهم، واختبأ الهنود وصاروا يصيحون: لقد جئناكم مسالمين لخدمتكم فها أنتم تقتلوننا، لتبق دمائنا على هذه الجدران تشهد على موتنا دون سبب وتشهد على جوركم.

(١٠) وفي فصل "ممالك عظيمة ومناطق كبيرة من البيرو": (في عام١٥٣١ توجه طاغية آخر مع فرقة من جنوده إلى ممالك البيرو وفعل فيها ما فعله الطغاة الآخرون في الممالك الهندية الباقية، كان من أكثر الطغاة إجراما، لم يعرف قلبه الإيمان وهو منكر لكل قانون بشري أو ديني، ولهذا فقد أفرط هذا المجرم في الفظائع والمذابح في السلب والنهب فدمر القرى وأهان أهلها وقتلهم.

و انطلق الإسبان إلى منطقة "تومبالا" فقتلوا ودمروا ما استطاعوا، وبعد بضعة أيام جاء إمبراطور هذه الممالك كلها واسمه اتاهوالبا ومعه حاشيته، وهم ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم، ويحملون أسلحة تضحك الأطفال، ولم يكن هذا الإمبراطور يعرف بعد كيف تقطع السيوف أو كيف تجرح الرماح أو كيف تغدو الخيول، وصل هذا الإمبراطور الساذج إلى حيث يوجد الإسبان وقال ببراءة: أين هم الإسبان؟ ليتفضلوا ويمثلوا أمامي و إنني لن أتحرك من هنا إلى أن يعوضني عما قتلوه من أتباعي وما أحرقوه من قراي وما نهبوه من ثروات شعبي.

وجاءه الإسبان لا ليمتثلوا أمامه بل ليعطوه درسا في وحشيتهم، وراحوا يقتلون ما استطاعوا من جماعته ثم قبضوا عليه وسجنوه، وبعد ذلك طالبوه بفدية فوعدهم بما يعادل أربعة ملايين قشتالية،

لكنه أعطاهم ما يعادل ١٥ مليون، فوعدوه بإطلاق سراحه ولم يفوا بوعدهم طبعا، وأعلن الإسبان أنهم سيحرقونه حيا، ولكن أصواتا إسبانية نادت بخنقه ثم حرقه، وحين علم الإمبراطور بمصيره قال للإسبان: ولماذا تحرقونني؟ ماذا فعلت لكم؟ ألم أعطكم أكثر مما وعدتكم؟ لماذا لا ترسلوني إلى ملككم في إسبانيا؟

لكن أسئلته لم تلقَ إلا جواب واحدا: الخنق والحرق.

إن يوم القيامة هو اليوم الذي سيثأر فيه الله من هذه الشناعات المزريات في بلا الهند، تلك التي ارتكبها من يحمل لواء المسيحية.

****

ويشير المؤرخ الأمريكي "هوارد زن" إلى أنه (خلال عامين مات حوالي نصف سكان الهنود في هايتي، وعددهم الأصلي ٢٥٠ ألف نسمة، أما عن طريق القتل أو الانتحار، حيث كان يتم تسخيرهم بوحشية في ضياع شاسعة، وبحلول عام ١٦٥٠ لم يعد على الجزيرة أحد من هنود "أراواك" الأصليين، بعد أن كانوا عددهم ربع مليون نسمة).

ويقول "هوارد زن" بأنه حصل على معلوماته عما حدث في جزر الكاريبي بعد وصول كولومبس مما كتبه "لاس كاساس"، وهو قس شاب شارك في غزو كوبا، ثم تخلى عن مزرعة له كان يعمل فيها عبيد هنود وأصبح ناقدا حادا للوحشية الإسبانية، وهو مصدره الوحيد بشأن أمور كثيرة.

ونقل المؤلف عن كاساس وصفه لكولومبس أنه: (كان متهورا إلى حد العمى وكذلك من أتوا بعده. لقد كان همه أن يسعد الملك في إسبانيا، فارتكب ما لا يغتفر من الجرائم في حق الهنود).

ويقول هوارد زن: إن الإسبان كانوا يرفضون السير على أقدامهم حتى لو لمسافات قصيرة فيتخذون من ظهور الهنود مطايا أو يجلسون على محفات يتناوب الهنود حملها، وكان على نفر من الهنود أن يحملوا فروعا من الشجر كثيفة الأوراق يحمون بها راكبي المحفات من لفح الشمس، بينما كان على آخرين أن يتخذوا من أجنحة الأوز مراوح تلطف الجو للراكبين.

ويضيف: (لم يهتز للإسبان طرف وهم يطعنون عشرات الهنود ولم تهتز ضمائرهم وهم يقتطعون من أجساد الهنود شرائح كي يختبروا بها مدى حدة نصالهم... تقابل ولدان من الذين يسمون أنفسهم مسيحيين مع ولدين هنديين يحمل كل منهما ببغاء، فما كان من الولدين المسيحيين إلا أن أخذا الببغاءين لنفسيهما وعلى سبيل التسرية والمزاح قاما بضرب عنقي الولدين الهنديين).

ويقول هوارد زن: إن البريطانيين أيضا قرروا إبادة الهنود حين عجزوا عن استعبادهم أو العيش معهم منذ العام الأول لوجود الرجل الأبيض في فرجينيا عام ١٦٠٧.

يقول: (إنهم استوطنوا جنوبي ما يعرف الآن بولاية كونيتيكت، وكانوا يتفننون في وسائل إبعاد الهنود حتى لو ارتكبوا المذابح أو حرقوهم في أكواخهم، وذات مرة كان نصيب من هربوا من النيران هو القتل بالسيف حتى صار بعضهم مجرد أشلاء).

******

ولقد استمر تدفق المستعمرين الأوربيين على القارتين الأمريكيتين، فتوافد الفرنسيين والبريطانيين والهولنديين وغيرهم، وكان بينهم وبين الهنود الحمر الحروب الطاحنة، انتهك خلالها الأوربيون قوانين وأخلاقيات الحرب ومارسوا ضد الهنود أبشع جرائم القمع والاضطهاد، ثم مارست سلطات الاستعمار الأوربي ضدهم الكثير من جرائم انتهاك حقوق الإنسان (إلا أنها لن تكون بمستوى جرائم الإسبان في القرون الوسطى) حتى نشأت الدول القومية في الأمريكيتين، وأصبح الهنود الحمر جزءا من مواطني تلك الدول، وعددهم يقدر اليوم بثمان وأربعين مليون نسمة، ووفقا للتقارير الحقوقية الدولية فإنهم لا يزالون يعانون من بعض التمييز (ذلك لأسباب قد تكون ناتجة عن طبيعة نظامهم الاجتماعي والقيمي، حيث إن العديد منهم يعيش في مستوطنات منفصلة عن المدن ويديرون شئونهم بمعزل عن الدولة، علاوة على لغتهم المحلية التي لا يتكلم بها غيرهم) إلا أنهم أضحوا اليوم يتمتعون بحقوقهم المدنية والإنسانية، حيث لا تزال أكثر من ألف لغة منتشرة بينهم، يتحدث بها الملايين منهم، كما ظلوا يحتفظون بالكثير من ممارساتهم الثقافية والاجتماعية والدينية، ولا تزال ثمة تجمعات قبلية وعرقية تعيش منعزلة عن المجتمع الوطني في بعض الدول كالولايات المتحدة، وقلة منهم شبه منفصلين عن العالم الخارجي.

ماكسيليمان روبسبير (١٧٥٨-١٧٩٤).

يعتبره معظم المؤرخون سفاح الثورة الفرنسية، ولد عام ١٧٥٨ في أسرة فقيرة بمدينة "راس" الفرنسية، وعاش في ظل الطغيان الحكم الملكي الفرنسي وسلطة الكنيسة الغاشمة ونفوذ النبلاء والإقطاعيين، وقد عانى روبسيير من الفقر والعوز كمعظم أبناء الشعب الفرنسي، وكانت حركة المقاومة ضد النظام الملكي نشطة ومتنامية وكان الفرنسيون يتداولون أفكار "فولتير" و"روسو" و"ديدرو ويتخون" ويتخذون منها قيما ومبادئ في كفاحهم نحو الحرية والعدالة الاجتماعية والقضاء على الطغيان والاستبداد المتمثلين في سلطة الطبقة الحاكمة.

تأثر روبسبير بالبيئة والأحداث التي كان يعيشها باستمرار فشق طريق بسرعة ودرس المحاماة ودافع عن المظلومين والمضطهدين، وسطع نجمه في الأوساط الشعبية الفرنسية، وقد بلغ مكانة كبيرة بين الشخصيات اللامعة في فرنسا، حيث ساعدته مهاراته الخطابية والإنشائية وحماسته الشديدة في بلوغه مكانة كبيرة، حتى أصبح في طليعة المرشحين لتبوؤ مقعد في الجمعية الوطنية الفرنسية وذلك عام ١٧٨٩، وأسس من خلالها حزب ثوريا صنف

كأحد الأحزاب المتطرفة في تلك الحقبة وعرف باسم نادي اليعاقبة، الذي أخذ على عاتقه إزعاج الحكومة وحثها على تحقيق مطالب الشعب بالحرية والعدالة.

في يوليو من نفس العام اندلعت أحداث الثورة الفرنسية باقتحام سجن الباستيل الذي كان يمثل رمز للظلم والطغيان، وبدأ بذلك عصر الثورة الفرنسية وأصبح روبسبير أحد قادتها الذين نالوا تأييدا شعبيا كبيرا، خاصة بين جموع الفرنسيين البسطاء، إلا أنه بدلا من أن يستثمر تأييد الناس له في العمل من أجلهم بدأ في التخلص من منافسيه واحدا تلو الآخر، ففي عام ١٧٩٣ تمكن من السيطرة على لجنة الأمن العام في باريس بعد إعدامه وسجنه لكافة منافسيه أمثال "دانتون" الذي اتهمه بالتآمر لعودة الملكية فأصدر حكما بإعدامه، وقال دانتون قبل تنفيذ الحكم: (الشيء الوحيد الذي ندمت عليه أنني سوف أعدم بالمقصلة قبل الحيوان الذي يُدعى روبسبييرو) و"ديمولان"، الذي كان صحفيا نزيها وقلما حرا، حيث إنتقد الإعدامات والإرهاب الذي مارسته لجنة الأمن العام فكان مصيره الإعدام.

وسرعان ما تحولت لجنة الأمن العام إلى حكومة فرنسا الحقيقية التي أصبح عهدها عهد الإرهاب الأسود والرعب المميت، وأصبح روبسبير بها زعيم فرنسا الأوحد وحاكمها الطاغية الدموي، حيث ارتكب الفظائع والأهوال، كاشفا عن معدنه الحقيقي والوحش البشري في داخله والذي كان يختبئ خلف الخطب المنمقة والابتسامات المزيفة التي انخدع بها الفرنسيون البسطاء، يقول الجنرال "جوفيون دي سان سير" عن المحاكمات التي عقدها روبسيير: (كانت هذه المحكمة لا يقبل أمامها محامون، وشخصية المبلغ لا تظهر أمامها ولا يجئ ذكر اسمه ولا يواجه من أبلغ عنهم، لا أوراق لهم ولا

سجلات وحتى الحكم لا يدون ولا الاستجواب، إنما كان الأمر يجرى شفاهة، يقبض على المتهم في الساعة الثامنة ويحاكم في التاسعة، ويعدم رميا بالرصاص في العاشرة، وكانت ترصد مكافأة مالية للمبلغ دون أن يظهر اسمه بأي حال).

قصة الحضارة: (وهكذا كانت آلاف الرؤوس تقطع لمجرد شبهات ظالمة، ويقدر البعض عدد الذين صدر ضدهم حكم الإعدام خلال عصر روبسبير بنحو سبعة عشر ألفا، أما عدد الذين تم إلقاء القبض عليهم وأودعوا السجون فيزيد عن ثلاثمائة ألف.

وكانت التهمة التي توجه دائما للمتهمين أنهم أعداء الثورة، وهي تهمة واسعة فضفاضة وفي نفس الوقت كافية لوضع رقبة المتهم تحت سكين المقصلة بدون محاكمة، وقد ارتكب روبسبير من الفظائع في سنة واحدة ما لم تشهده فرنسا خلال مائة عام من الظلم والطغيان، وتحول داعية الثورة المتطرف إلى أكبر إرهابي عرفته فرنسا في تاريخها، وكانت الفترة من يوليه ١٧٩٣ حتى يوليه ١٧٩٤ هي أصعب سنوات فرنسا حقا).

استمر روبسبير في طغيانه وسفكه للدماء وإزهاقه لأرواح آلاف المواطنين من دون وجه حق، وإصداره لمجموعة من القرارات الديكتاتورية الغريبة التي تعبر عن نزعته التسلطية وذاته النرجسية، كالغائه للمسيحية ودعوته الفرنسيين لعبادة العقل عوضا عن الله، كما ألغى التقويم الميلادي و ابتدع تقويما بديلا عنه.

وفي يونيو ١٧٩٤ أصدر مرسوما كان بمثابة الخطأ القاتل بالنسبة له، وهو ما يعرف بقانون التشكيك، الذي وصفه المؤرخون بالقانون المرعب، وكان هذا القانون ينص على أن الأشخاص يمكن أن يتعرضوا الآن إلى الاعتقال والمعاقبة بالموت بسبب إما تصرفاتهم، علاقاتهم، كلماتهم،

كتاباتهم، أو ممن يطرحون أنفسهم على أنهم مناصرون للطغيان، إضافة إلى حرمان أعضاء البرلمان من حصانتهم البرلمانية، مما أثار غضب أعضاء البرلمان، حيث اعتبروه سيفا مسلطا على رقابهم ووسيلة للتخلص السريع من أي عضو يبدي أي معارضة لروبسبير، وحينها قرر الأعضاء الإطاحة به مهما كان الثمن، وتزعم العضوان "تاليان" و "باراس" حركة الثورة ضد الطاغية، وتم تجهيز قوة عسكرية توجهت إلى دار البلدية التي كان يقيم فيها وهاجمته على حين غره، وثم القبض عليه بعد إصابته في فكه، وتمت محاكمته وصدر عليه حكم الإعدام بالمقصلة ونفذ في نفس العام، وهكذا شرب روبسبير من نفس الكأس الذي أذاقها للآلاف من الأبرياء من أبناء شعبه.

من الأقوال المنسوبة إليه:

* عندما أيد إعدام الملك لويس السادس عشر قال: (يجب على لويس أن يموت، لأن الأُمّة يجب أن تعيش).

وقبل إعدامه قال: (ما من بريء واحد مات خلال فترة الإرهاب).

(الحرب، هي دائماً الرغبة الأولى لحكومة قوية تريد أن تصبح أقوى).

كاترين الثانية (١٧٢٩ـ ١٧٩٦).

هي الإمبراطورة كاترين الثانية واسمها الحقيقي "اوغستافر دويكا"، ولدت في روسيا عام ١٧٢٩، عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها خطبت لبطرس ابن أخ الإمبراطورة الروسية اليزابيت و أقيم لها حفل زواج كبيرا بهذه المناسبة.

وعندما ماتت الإمبراطورة اليزابيت أصبح زوج كاترين الأمير بطرس إمبراطورا على روسيا وعرف باسم بطرس الثالث، إلا أنه كان ضعيف الشخصية، معظم اهتماماته كانت في الجنس واللهو، مما كان له أعظم الأثر في بروز كاترين كشخصية قيادية، وظلت كاترين تمارس السلطة حتى تمكنت من الإطلاق على نفسها لقب الإمبراطورة كاترين الثانية، ووسعت نفوذها في الجيش مستغلة جمالها الخارق بعلاقات مشبوهة مع قادته، حتى كثرت حولها الإشاعات في أنها كانت عشيقة لقائد حامية بطرسبورغ، عاصمة

روسيا القيصرية، بينما كان زوجها منهمكا في اللهو تاركا سلطته تسحب من بين يديه شيئا وشيئا وتاركا شعبه يعاني من تسلط الإقطاعيين وقادة وضباط الجيش.

وقد تعرض بطرس الثالث لعدة محاولات اغتيال ولكنه نجا منها، كانت أصابع الاتهام تتجه نحو زوجته الإمبراطورة كاترين الثانية، الذي عرف عنها ممارستها للسلطة بشكل واسع وسعيها نحو السيطرة على العرش، ولكنها كانت تنفي هذه الاتهامات ولم يثبت عليها أي دليل يدينها، ولكن إثر هذه الاغتيالات اشتد النزاع بين بطرس وكاترين وظهر للعلن، وصار كل منهما يحيك المؤامرات ضد الآخر، حتى أمر بطرس باعتقال زوجته والزج بها في السجن، إلا أنه تلقى تهديدات من بعض قادة الجيش من الذين كانوا على علاقة غرامية بكاترين، فلم يتمكن من اتخاذ أي قرار بحقها سواء بسجنها أو تطليقها أو حتى تجريدها من أي سلطة أو مسئولية تمكنت من الحصول عليها أثناء ابتعاده عن ممارسة شئون الحكم، بينما كانت كاترين تبني سلطتها من خلال شبكة علاقات غرامية وثيقة ومترابطة بات يصعب القضاء عليها.

وقد استغلت كاترين هذه الشبكة في تحقيق غايتها الكبرى في اعتلاء العرش، فقد غادرت القصر الإمبراطوري والتجأت إلى قادة الجيش الموالي لها وأخبرتهم أن الإمبراطور يحاول قتلها، وطلبت من عشاقها من قادة الجيش حمايتها ومن جنودهم أداء قسم الولاء لها، فتمكنت بذلك من الحصول على ولاء قسم كبير من الجيش لصالحها، ولما علم بطرس بانقسام الجيش ما بين موالٍ له وموالٍ لكاترين، تيقن بأن نهايته وشيكة إن لم يتحرك بسرعة، فجمع مستشاريه للتباحث حول الأمر، فاقترحوا عليه استعطاف الإمبراطورة وإعادتها إلى كنفه، وأن مواجهتها ستكون مكلفة وغير مضمونه، نظرا لكون قادة كثيرين من الجيش أصبحوا موالين لها مع جنودهم.

فكتب لها يستعطفها لمشاركته في الحكم، إلا أنها ردت عليه بإرسال الكونت بانين، أحد مقربيها، لإقناعه بالتنازل عن العرش وكتابة إقرار صريح بعدم صلاحيته للحكم، ولم تترك كاترين لبطرس فرصة للتفكير، فقد أرسلت له أحد القادة العسكريين الموالين لها وأمرته بمحاصرة قصر بطرس ووضعه قيد الإقامة الجبرية تحت حراسة مشددة، ثم أصدرت مرسوما عام يفيد بتعيينها ملكة على روسيا وتكليفها بحامية المذهب الأرثوذكسي وحماية شعب روسيا المهدد بالضياع في ظل إمبراطور مستهتر.

وهكذا أصبحت كاترين الثانية ملكة لروسيا من دون الدخول في حرب أهلية أو إهدار قطرة دم واحدة، ولكن الإمبراطور المسجون ظل يشكل مصدر تهديد لسلطتها، فأمرت بقتله، إذ أرسلت له جنرالين من ضباطها وقاما بخنقه، وفي صباح اليوم التالي جمعت رجال الدولة وأبلغتهم بموت الإمبراطور المعزول قائلة لهم بأن سبب وفاته نوبة حادة من نوبات مرضه المزمن.

إلا أن الكثير من أبناء الشعب والجيش لم يصدقوا كلامها، فقد كان معروفا عن بيتر أنه كان يتمتع بصحة ممتازة ولم يكن يعاني من أي مرض خطير، فانتشرت الإشاعات بين أبناء الشعب والجيش، ووصل إلى أسماعها أن هناك ضباطا وجنودا أعربوا عن ولائهم للإمبراطور السابق، فأصدرت أمرا لقادة الجيش بأن يقوموا باللازم لحماية عرش روسيا، فقام أبرز عشاقها من الضباط بحملات تطهير في صفوف الجيش نتج عنها اختفاء آلاف الضباط والجنود المعروفين بولائهم للإمبراطور السابق، وكان مصيرهم القتل أو السجن أو التسريح، وقامت شرطتها وسر اياها بإرهاب الشعب قتلا واعتقالا لكل من يجهر بولائه للإمبراطور القتيل.

قصة الحضارة: (ادعت كاترين أنها أسست ٢٤٥ مدينة، غير أن حقيقة الأمر أن هذه لم تكن سوى مدن خربت بجهود كاترين الثانية وضباطها، فبدلت أسماءها وأسمتها بالمدن الجديدة، وخير دليل على ذلك التعليق الطريف الذي أطلقه مرافقها جوزيف الثاني على تأسيس مدينة "كاترلينسلوف" حيث قال متهكما: (لقد قامت الإمبراطورة بمساعدتي بعمل جليل، فوضعت هي الحجر الأول لمدينة عظيمة ووضعت أنا الحجر الأخير، فقد وقف البناء عند هذا الحد ولم يعد أحد يذكر شيئا عن المدينة العتيدة).

ونتيجة اغتصابها للممالك التركية زادت الإمبراطورة كاترين الثانية مواردها، فازدهرت التجارة واتسع نفوذها، لكنها كانت تنفق على ملذاتها ومظاهر بذخها أكثر من عائداتها، فقامت بمضاعفة الضرائب حتى أفقرت البلاد، وأدت إلى انتشار المجاعة في صفوف الشعب، مما حدا به لنوع من التمرد، إلا أن آلة القمع التي تأتمر بأمر الإمبراطورة كانت جاهزة لتقود حملة إرهاب جديدة أودت بحياة وحريات آلاف من أبناء الشعب الروسي، مما اضطره للسكوت على مضض).

(وفي عام ١٧٨٧ قامت كاترين الثانية بزيارة لأملاكها الجديدة، جمعت خلال هذه الزيارة أموالا طائلة من الضرائب والإوتاوات التي فرضها جيشها على السكان، وصارت توزع الألماس والذهب على الأشراف من أجل ضمان ولائهم وضمان سكوت الشعب، عبر تعزيز تسلط هؤلاء الأشراف عليه).

(وتقليدا لملوك أوربا مثل لويس الرابع عشر، بنت كاترين قصرا للخلوة أسمته (الهرميتاج) وخصصته لاستقبال عشاقها من ضباط الجيش وقادة حاميات المدن) .

وجاء في سيرة موتها ما يلي (قصة الحضارة): (وعندما شارفت على النهاية اعتزمت كاترين الثانية تزويج إحدى حفيداتها من غوستاف أودولقوس ملك السويد، فدعت ملك السويد تحت ضغطها إلى قصرها، وشرعت في الإعداد للزواج في القصر الشتوي، فتزينت العروس ووقفت إلى جانب جدتها الإمبراطورة، غير أن العريس لم يحضر وطال الانتظار حيث رفض ملك السويد توقيع عقد الزواج بسبب وجود شرط لا يو افق عليه في العقد وهو عدم تغيير مذهبها، كما تتطلب ذلك العادة السويدية.

وعلى الرغم من كل الضغوط رفض ملك السويد التوقيع على العقد، وعندما بلغ الأمر العروس والإمبراطورة كاترين أحستا بالمهانة وتوعدت كاترين بالانتقام، إلا أنه قبل أن تتمكن من حشد جيوشها لمحاربة السويد خرت كاترين مشلولة وماتت في اليوم التالي عام ١٧٩٦) .

من أقوالها: (على الملوك والملكات ألا يعبئوا بصيحات الشعب مثلما لا يعبأ القمر بنباح الكلاب).

وعن علاقتها بزوجها وقتيلها الإمبراطور بطرس الثالث: (لم أكن لأهتم ببطرس أبدا، ولكن اهتمامي كان بالتاج الملكي).

كاتـرين دي ميديشي... سيدة المذبحة (١٥١٩-١٥٨٩).

ولدت في يوم ماطر من شتاء عام ١٥١٩ وتوفيت أيضا في يوم ماطر بعد سبعين عام وذلك سنة ١٥٨٩، وصفها بعض المؤرخين بأنها خلقت من النار والحديد، وبعضهم الآخر بأنها شيطانه متعددة القرون، يقطر الشر من كل قرن من قرونها.

فتحت لها الدنيا آفاق المجد والسلطان عندما ابتسم لها الحظ بزواجها وهي في عمر الرابعة عشرة من هنري الثاني ملك فرنسا، ولكن الدنيا مجبولة على الأخذ مقابل العطاء وكل لذاتها غير كاملة، فقد اتخذ هنري له عشيقة اسمها "ديانا بواتييه"، الأمر الذي جعل كاترين تنعزل وتتوارى، خاصة بعد هيمنة ديانا على شئون القصر، وأصبحت تسير هنري وفقا لرغباتها.

ما لبثت أن أصبحت ديانا سيدة القصر وتمكنت من التحكم بهنري الثاني في شئون كثيرة، وأصبح ألعوبة بين يديها لا يستطيع أن يرفض لها طلبا، حتى أنها طلبت منه إبعاد بعض الشخصيات السياسية و أقنعته بأنهم

معادون له وساعون لإزاحته عن العرش، فأمر بإعدامهم، وكان هذا الإعدام جزءا من خطة ديانا للزواج من الملك ثم التخلص منه والاستيلاء على العرش.

إلا أن كاترين استعادت زمام المبادرة فخرجت من عزلتها وكسرت جدار صمتها وبدأت في دخول حلبة الصراع على السلطة واستعادة مكانتها التي أخذتها منها ديانا، فكان أن بدأت بربط خيوط وصال زائف معها، يقول المؤرخون أن الأحداث اللاحقة بعد ذلك أكدت أن ديانا لم تكن بمستوى دهاء وخبث كاترين التي كشفت عن معدنها الحقيقي كشيطانه، أصبحت سيدة الموقف الأولى بلا منازع.

كان أول دروس الشر التي تعلمتها كاترين هو في احتفال أقامه هنري بعد تتويجه ملكا على فرنسا، فقد أقام احتفالا كرنفاليا صاخبا أحرق خلاله ستة أشخاص ممن اتهموا بمعارضة الملك والسعي إلى إسقاطه، وقد جلس الملك وكاترين في شرفة أحد الفنادق وهو يتابع المنظر الرهيب لحرق معارضيه ويتلذذ بعذابهم، وقد تعلمت كاترين من هذا الموقف الدامي بأن لب السلطة هو الجبروت ولا بد من إبرازه من دون قيود أو حدود.

أثناء الحرب الفرنسية الإسبانية اضطربت المدن الحدودية ودب الهلع والفزع في سكانها، وتناقل الجنود والمدنيين سقوط بعض الثغور الفرنسية بيد الإسبان، فاضطر هنري إلى مغادرة باريس والإقامة في أحد أكبر معسكرات الجيش على الجبهة، أثناء ذلك استجمعت كاترين شجاعتها وتوجهت بصحبة بعض الأمراء وذوي الشأن إلى البرلمان وألقت تحت قبته خطابا حماسيا دعت من خلاله الشعب والجيش إلى الاستبسال في الدفاع عن فرنسا وهزيمة إسبانيا، وسرعان ما انتشرت عبارات خطابها في أنحاء فرنسا، وكان له تأثير كبير على معنويات الجنود الفرنسيون، كما كان له تأثير كبير في حب الملك

وتقديره لكاترين، وعندما عاد لباريس قال لها: تصرفك في غيابي عين الحكمة يا كاترين ولن أنسى لك ذلك أبدا. وردت كاترين قائلة: هذا هو واجبي يا سيدي بل هو أقل من واجبي. فأجابها الملك: لا زالت مكانتك في قلبي يا كاترين.

في عام ١٥٥٩ توفي الملك هنري الثاني أثناء ممارسته لمبارزة السيوف على متن الخيول، فتولى الحكم بعده ابنها فرنسوا الثاني، وفي عهده فقدت كاترين نفوذها وهيبتها لصالح الملكة الجديدة "ماري ستورات"، إلا أنه مات بعد أقل من عام من جلوسه على العرش، وخلفه ابنها شارل، وكان في العاشرة من عمره، وأصبحت وصية عليه نظرا لصغر سنه، وانفردت بالحكم دونه بعد فترة وجيزة.

وكان أعظم ما ارتكبته من جرائم في حياتها تدبيرها وتخطيطها لمذبحة "سانت برثلميو" الرهيبة التي راح ضحيتها ما يناهز مائة ألف مسيحي بروتستانتي، حتى أن ابنها الملك شارل أصيب باضطراب نفسي وعقلي وتأنيب ضمير مهول لفضاعتها ولما جرى فيها من سفك لدماء الأبرياء، ما دفعه للانتحار في نهاية الأمر.

قصة الحضارة: (وشددت قبضتها الحديدية على الحكومة والشعب في آن معا، بعد أن لجأت إلى السير فوق حبال لعبة قذرة هي لعبة الطائفية مستغلة الصراع التاريخي بين الكاثوليك والبروتستانت فلجأت إلى تأجيج العاطفة الدينية لدى الطرفين.

في ذلك الوقت بدأت كاترين تجمد عاطفتها الدينية، وتحييد الوازع الأخلاقي في نفسها منحازة إلى الكاثوليك لأنهم يشكلون الأغلبية الساحقة، بل تولت قيادة الجيش الكاثوليكي في أعقاب مقتل قائدة من قبل شاب بروتستانتي، ونتيجة لذلك مني الجيش البروتستانتي بهزيمة منكرة، ذبح على أثرها زعيمهم "برنس ووكوندية" فهبت ملكة نافار لمساندة الجيش مطلقة

صيحة الحماس المعهودة: الثأر.. الثأر لا يهدأ لكم بال أيها الجنود حتى تنتقموا. لكن البروتستانت هزموا مرة أخرى، وجرح قائدهم الجديد فأمدت ملكة نافار البروتستانت بجنود من عندها مرجحة كفتهم، مما اضطر كاترين لطلب الصلح.

في هذا الأثناء بدأت كاترين تخطط لاستثمار سلاحها الأنثوي، وإحكام مصيدتها حول الأمير هنري أمير نافار، الذي دعته إلى قصرها وفي جو الاحتفال الضخم الذي أقامته على شرفه سألته: ما رأيك بابنتي مارغريت يا أمير نافار الوسيم؟.. فأجابها الأمير: آية في الحسن والجمال يا مليكتي.

وبدأت تستدرجه إلى حبائلها، وتزين له الزواج من ابنتها مارغريت، ثم قالت: مارغريت ابنتي هي هديتي لك؛ فهل تقبل الهدية؟

واحمر وجه الأمير خجلا ولم يكن يملك إلا الموافقة على هذا العرض الجيد، فأومأ برأسه موافقا، وواصلت الملكة كاترين حديثها قائلة: سنقيم حفلا أسطوريا لزواجك من ابنتي مارغريت يا ولدي. وأضافت قائلة: ألا تعلم أن زواجك من ابنتي سينهي كابوس الصراع بيننا وبين البروتستانت، وسيضع حدا لسفك الدماء؟

وعقد حديث كاترين لسان الأمير هنري أمير نافار، فلم ينبس بكلمة، وبدأت كاترين من فورها بترتيب حفل زواج أمير نافار وابنتها مارغريت الوهمي، حيث طلبت من ابنها شارل إرسال دعوات رقيقة إلى جميع زعماء البروتستانت لحضور حفل الزفاف في باريس قائلة: علينا أن نصطادهم هنا في باريس كما يصطاد النور الحارق أسراب الفراش. وأردفت تقول موجهة حديثها لشارل في تهكم واضح: أما خالتك العظيمة المحبوبة ملكة نافار أم العريس فرتب لها وضع يليق بمكانتها. وأجاب شارل بالتهكم والسخرية نفسها: اطمئني اطمئني يا أماه سيكون استقبال ملكة نافار غاية الفخامة .

وتمكن أمير نافار من إقناع والدته الملكة بهذا الزواج ووصلت الملكة إلى باريس، ولقيت من الكلام المعسول ما جعلها تنسى موقفها الشخصي من الكاثوليك وصراعاتها القديمة مع كاترين ومعارضتها في بداية الأمر لزواج ابنها هنري من مارغريت ابنة غريمتها.

واستقبلتها كاترين بخداعها الثعلبي المعروف قائلة: مرحبا بك أيتها الغالية هنا في باريس التي تفتح لك ذراعيها لتستقبلك بكل الدفء وما يتدفق من ينبوع المحبة الصافية.

وكانت كاترين بطبيعة الحال كاذبة فقد لجأت إلى وضع السم في طعام الملكة بعد وصولها بيوم واحد، حيث أصيبت نتيجة ذلك بحمى شديدة وقشعريرة لازمتها تسعة أيام، ثم ماتت بسبب ذلك، ولم يكن ابنها العريس قد وصل إلى باريس بعد ولطمت كاترين خديها وزعقت وولولت، وأظهرت حزنا زائفا على ملكة نافار.

وفعل ابنها شارل الشيء نفسه وكان الاثنان كاذبين ولم يتجرأ أحد على إسقاط القناع الذي كان يخفي كل من الابن والأم وراء سرهما الدفين، وأجل الزفاف عدة أيام حتى اكتمل عقد زعماء أوربا من الكاثوليك والبروتستانت.

وخلال احتفال الزواج بدأت علائم الشر تظهر واضحة، ففي إحدى نوافذ القصر كمن أحد المسلحين ببندقية، وقتل الأمير البروتستانتي كولين، وتظاهرت كاترين وابنها شارل بالغضب والحزن العميقين جراء هذه الأعمال التي تعكر صفو العرس، فقالت كاترين لابنها شارل متصنعة الدهشة والغضب: هل تصدق ما يحدث يا ولدي؟ من هؤلاء الذين يريدون تحويل العرس إلى مأتم؟! وتظاهر شارل بالتجاوب مع أمه: اللعنة على من تسول له نفسه إفساد جو الفرح الذي يرفرف على المكان.

إلا أن حقيقة الأمر كانت غير ذلك فقد تداولت كاترين و ابنها شارل في غرفة سرية، إضافة إلى موضوع هنري (عريس مارغريت) وتساءلا: أيقتلانه أو يبقيانه على قيد الحياة؟

واستقر بهم الأمر على إبقائه على قيد الحياة ومن ثم زجه في أحد سجون باريس بحجة إجباره على التخلي عن عقيدته البروتستانتية.

أما الجانب الأخطر من الخطة فهو أن يقوم جميع الكاثوليك في جميع أنحاء فرنسا بذبح جميع البروتستانت عندما يدق جرس برج العدالة الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وخشية الخطأ، وكي لا يختلط الحابل بالنابل، وخوفا من عدم التمييز بين الكاثوليك وأعدائهم من البروتستانت، فقد أصدرت كاترين أوامر سرية بوجوب ارتداء الكاثوليك صلبانا بيضاء على قبعاتهم، وإلصاق قطع قماش بيضاء على أذرعتهم.

وفي الوقت ذاته تقوم كاترين بإقامة احتفال كبير لتوزيع الهدايا على كبار المدعوين من البروتستانت في باريس، ويدعوهم ابنها شارل إلى احتفال مماثل في قصر اللوفر في باريس.

وبدأ الخوف يسري في عروق الملك الشاب ابنها شارل، فسألته مستنكرة: (هل أنت جبان يا شارل؟. فأجابها قائلا: عندما أرى سيل الدم المتدفق أكاد أقول لك: لا يا أماه. قالت: إذن لا تكن جبانا يا ولدي. قال: أمرك يا أمي.

وكانت مذبحة سانت بارثولوميو في الرابع والعشرين من آب (أغسطس)عام ١٥٧٢ الساعة الثانية ليلا، وقد تصادف موعد تنفيذ المذبحة مع عيد القديس بارثولوميو، لذلك سميت باسمه، ودوت الصيحة المتفق عليها في كافة أرجاء فرنسا اقتل اقتل وسقطت الرؤوس دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال.

كانت شهوة الدم مسيطرة على الجميع وكان المشهد الجهنمي الذي رأته كاترين مسبقا عندما حرق زوجها معارضيه أحياء غاية في البشاعة، كانت الجثث تتطاير من نو افذ البيوت والقصور وتتكدس في الشوارع والأزقة والساحات، وكان جنود الملكة كاترين يتقاذفون الرؤوس المقطوعة التي يسيل منها الدم وكأنها كرات.

ومر أسبوع كامل، وصل عدد المذبوحين فيه إلى أكثر من مئة ألف بروتستانتي، وتوسل شارل إلى أمه أن كفى، لكنها عنفته قائلة: أيها الجبان ألا تعرف كيف تقتل؟.. وأضافت: استمر استمر في المذبحة.

وعم الغضب أنحاء أوربا لهذه المذبحة التي ذهب ضحيتها خيرة زعماء البروتستانت وهي توجه لعناتها إلى كاترين الفاجرة التي ليس لشهوة الدم أي حدود في نفسها.

وتحولت حياة ابنها شارل إلى جحيم لا يطاق، ولم يفارقه منظر جثث المذبوحين أو أشباحهم ليلا أو نهارا، وبدأ يعاني من وخز الضمير إلى أن قرر الانتحار، فوضع حبلا حول عنقه في إحدى الليالي وشنق نفسه.

أما كاترين الفاجرة فقد سكرت بنشوة الدم ولم تفق منها إلى أن ماتت).

ايفان الرابع (الرهيب) (١٥٣٠-١٥٨٤).

توفي قيصر روسيا فاسيلي الثالث عام ١٥٣٣ فتولى الحكم القيصري ولي عهده ايفان وعمره لا يتجاوز الثلاث سنوات، وكانت والدته هيلينا جلنسكى الوصية على العرش، واستمر أمر روسيا حتى وفاتها عام ١٥٣٨، حين داك عادت الفوضى بين الطبقة الحاكمة ودارت رحى معارك أهلية متقطعة راح ضحيتها مئات المواطنين الأبرياء، وظلت روسيا تعاني منها حتى بلغ ايفان سن السابعة عشرة عام ١٥٤٧، فكان عليه أن يبدأ بممارسة مهامه وواجباته، فاستجمع قواه وقضى على نفوذ النبلاء والإقطاعيين المتصارعين وأعاد لسلطة العرش قوتها وهيبتها، ولما أثبت جدارته توجه مطران موسكو بشكل رسمي ووفقا للبرتوكول المتبع قيصرا، وبعد ذلك تزوج ايفان من إحدى الفتيات النبيلات لتكتمل بذلك زينة العرش القيصري.

في عام ١٥٥٠ دعا أول جمعية وطنية روسية للانعقاد، واعترف أمامها بجميع أخطائه في السنوات الماضية من حكمه، سواء في عهد وصاية والدته أم عهده، ووعد بإقامة حكومة عادلة ورحيمة بشعبها، ثم أمر بتعيين الكاهن "سلفستر" مرشداً روحياً له، واتخذ منه ومن "ألكسيس أداشيف" وزيرين له، وبدا في العمل على تقوية الجيش وتنظيم المجتمع لتكون طبقاته أقل ميلا نحو الصراع والتشاحن، وعلى الصعيد الخارج فقد رأى مستشاروه وخبراؤه أن على روسيا أن تضم مناطق كازان واستراخان والقرم حتى تضمن روسيا أمنها ووحدتها وللتحكم في نهر الفولجا ومنابعه، فقرر عام ١٥٥٢ قيادة جيش من ١٥٠ ألف مقاتل حاصر به مدينة كازان لمدة خمسين يوما، وكان سكانها من المسلمين، الذي قاوموا الغزو الروسي بشراسة وشجاعة، وكان جيش الدفاع عن كاران يقوم بغارات عنيفة ضد جيش ايفان، وعندما أسر بعض جنوده علقوا على أعواد المشانق أمام الأسوار، فما كان من إخوانهم سوى أن سددوهم بسهام قتلتهم فورا وهم يقولون: خير لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدي بني وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدي المسيحيين الدنسة.

واستمر الحصار طويلا من دون نصر في الأفق، حتى تم الاستعانة بمهندس ألماني تمكن من تلغيم أسوار المدينة المحاصرة مما أدّى إلى انهيارها، فاندفع الجنود الروس نحو المدينة صائحين: الله معنا! جاء في قصة الحضارة: (واعملوا الذبح في كل من لم يباعوا بوصفهم رقيقاً. وروى أن إيفان ذرف الدمع حسرة على المغلوبين قائلاً: إنهم ليسوا مسيحيين، ولكنهم رجال. ثم استولى في السنتين التاليتين على نهر الفولجا ومدينة استراخان.

وفي عام ١٥٥٧ هاجم ايفان ليفونيا، في إطار مساعيه لتوسيع المملكة الروسية لتكون أكثر قوة وثراء وموقعا مهما بين الممالك الآسيوية والأوربية،

ودخل ليفو انيا بطريقة وحشية، حيث أحرق المنازل والمزارع واستعبد الرجال واسترق واغتصب النساء.

وفي ١٥٥٨ استولى جيش روسي آخر على نارفا (ثالث مدينة في جمهورية استونيا المعاصرة) ، وهاجم بولندا، إلا أن الممالك الأوربية أعانت البولنديين ووقفت جميعها ضد الغزو الروسي، مما أدى إلى هزيمة جيش ايفان في معركة بولتسك عام١٥٥٩، واضطر ايفان إلى إنهاء احتلال ليفونيا أيضا وتسليمها لبولندا.

هذه النكسة المجلجلة علاوة على الهزائم الأخيرة التي تعرض لها ايفان أدّت إلى حدوث ثورات وقلائل ضد حكمه، وشكلت معارضة ضده من قبل التجاروالنبلاء، وتعرض ايفان بعدها إلى مرض كاد يقضي عليه، وخلال أيام مرضه كشف له أن مجموعة قوية من التجاروالنبلاء يعملون على تنصيب ابنه ديمتري ملكا بدلا عنه، وأن مستشاريه المقربين "سلفستر" و"أداشف" ضالعين في الأمر معهم، ولما شفي من مرضه أمر بإبعادهما عن مواقع السلطة، إلا أن مجموعة من النبلاء هاجروا من روسيا خوفا على حياتهم، وأنشئوا جماعات مسلحة تحارب الحكومة الروسية، وفي يوم ما افتقد ايفان صديقه الحميم الأمير كوربسكي، فأرسل من يسأل عنه، فبلغه أنه التجأ إلى هولندا، وبعد عدة أيام جاءه رسول من طرفه وسلمه رسالة اتهمه فيها بأنه مجرم مجذوم، ويورد بعض المؤرخين بأن ايفان عندما قرأ الخطاب ضرب إحدى رجلي الرسول بالمسامير، إلا أن ايفان رد على خطاب صديقه بخطاب من اثنين وستين صفحة، وصف بعض المؤرخون بأنه كان خطابا عاطفيا مليئا بمقتبسات من الكتاب المقدس، وعدد فيه دسائس النبلاء لخلعه.

ثم إن ايفان بعد ذلك قرر التنازل عن عرش روسيا بمحض إرادته، فقد غادر موسكو مع أسرته وممتلكاته مع قوة صغيرة من الجنود، متجها نحو مقره الصيفي في اسكندروفسك، وأرسل إلى موسكو بيانين، الأول اتهم فيه أن النبلاء يتآمرون ضده وضد الدولة، و أنه بسبب ذلك قرر اعتزال الحكم، أما البيان الثاني فأكد فيه أنه أحب أهل موسكو وأن لهم أن يبقوا و اثقين من نياته الطيبة دوما.

إلا أن الآلاف من أهالي موسكو وجمعا غفيرا من أعيانها ورجال الدين والكنيسة وغيرهم شهدوا ضد النبلاء وما كانوا يقومون به من أعمال ضد الدولة والمجتمع، فاضطرت السلطات إلى بعث وفدا من النبلاء والأساقفة يرجونه أن يعود إلى العرش، وتم ذلك، وقبل ايفان أن يتولى شان الدولة من جديد، ولكن هذه المرة بطرق وأساليب مختلفة غيرت اسمه من ايفان إلى ايفان الرهيب.

في فبراير ١٥٦٥ دعا الجمعية الوطنية للانعقاد وأعلن أمام أعضائها بأنه سوف يعدم زعماء المعارضة ويصادر أملاكهم، و أنه سيسير شئون البلاد دون الرجوع للجمعية أو استشارة النبلاء والأعيان، و أنه سينفي كل من يخالف أوامره أو مراسيمه أو قراراته.

قصة الحضارة: (قبض على معارضيه وأعدمهم دون شفقة أو رحمة، وجاء عرض لأحداث هذه السنوات (١٥٦٠-١٥٧٠) دونه أحد الرهبان، ويحتمل أن يكون معادياً، أن عدد قتلى غضبه بلغ ٣٤٧٠، ويقول هذا العرض التاريخي: إن الضحية كان في الغالب يعدم مع زوجته أو مع وزوجته وأطفاله، وفي حالة واحدة مع عشرة من الرجال جاؤوا لمساعدته، وأعدم الأمير فلاديمير مع أمه، أما أولاده فقد أبقى إيفان على حياتهم ووفر لهم أسباب العيش، ويقال: إن القيصر طلب إلى الرهبان أن يصلوا من أجل نفوس ضحاياه،

ودافع إيفان عن إعدامهم بأن هذا هو العقاب المعتاد لجريمة الخيانة وخاصة زمن الحرب، وقد سلم أحد ممثلي بولندة بهذه الحجة، وتضرع إنجليزي شهد شيئاً من هذه المجزرة قائلاً: ندعوا الله أن نتمكن من تعليم ثوارنا العنيدين واجبهم نحو أميرهم بالطريقة نفسها.

وجاءت ذروة هذا الإرهاب في نفجرد، وكان إيفان قبل ذلك بفترة وجيزة قد منح رئيس الأساقفة مبلغاً كبيراً من المال لإصلاح الكنائس، وظن أنه أصبح بذلك محبوباً من رجال الدين هناك على الأقل، ولكنه أبلغ أنه قد وجدت وثيقة، خلف صورة للعذراء، في أحد أديار نفجرد، وفيها عهد بالتعاون بين نفجرد وبسكوف مع بولندة لمحاولة خلع القيصر. وفي الثاني من يناير ١٥٧٠ انقضت على المدينة قوة عسكرية قوية يقودها الأوبرشنيكي، وأعملت النهب والسلب في الأديرة، وقبضت على ٥٠٠ من الرهبان والكهنة، وفي ٦ يناير وصل القيصر إلى هناك، وأمر أن يجلد بالسياط حتى الموت كل من لم يستطع من رجال الدين هؤلاء أن يدفع فدية قدرها ٥٠ ألف روبل، كما جرد رئيس الأساقفة من ثوبه وسجن، جاء في "سجل أحداث نفجرد الثالث: إنه قد أعقب هذا مذبحه الأهالي التي دامت خمسة أسابيع، وفي بعض الأحيان كان خمسمائة فرد يذبحون في اليوم الواحد، وتقول البيانات الرسمية أن عدد القتلى بلغ ٢٧٧٠ ، واحتج إيفان بأنهم ١٥٠٥ فقط. ولما استقر في الأذهان أن التجار، وهم متلهفون على إعادة فتح باب التجارة مع الغرب، قد شاركوا في المؤامرة، فقد أحرق جنود القيصر كل حوانيت المدينة، ودمرت بيوت التجار في الضواحي، وحتى البيوت في المزارع المجاورة للمدينة لحقها التدمير، ما لم يكن رواة الأحداث في الأديار قد بالغوا في وصف المذبحة، واتجه إيفان بعد ذلك إلى بسكوف حيث حظر على جنوده السلب والنهب، ثم عاد أدراجه إلى موسكو حيث احتفل في حفلة تنكرية ملكية بإفلاته من مؤامرة خطيرة).

وكان يعرف عن ايفان التدين والولاء للكنيسة والالتزام بالشعائر الدينية، وكان لديه اطلاع كبير على اللاهوت، وفي يوم ما في سنة ١٥٦٨ أثناء صلاته في كنيسة الصعود بموسكو طلب من فيليب مطران الكنيسة أن يمنحه البركة، ولكنه رفض، فتوسل إليه ايفان لثلاث مرات وكان المطران يرفض في كل مرة، حينها سأله أتباعه بإصرار عن سبب رفضه.. فبدأ بعد جرائم ايفان وفسوقه، فصاح ايفان: هدئ من روعك وامنحني البركة. فأجاب المطران: إن سكوتي يوقعك في الخطيئة ويستوجب هلاكك.

وبعد شهر دخل أحد خدم ايفان الكاتدرائية وقبض على المطران فيليب وساقه إلى أحد السجون، وتؤكد الكنيسة الروسية أنه أحرق حيا، حيث ظلت رفاته موضع إجلال وتبجيل حتى عام ١٩١٧.

في أحد أيام نوفمبر عام ١٥٨٠ أنّب ايفان زوجة أحد أبنائه وضربها، لما بدا من أنها ترتدي ثوبا ينافي الحشمة والوقار، مما أدى إلى إجهاضها، فما كان من ابنه إلا أن وجه اللوم إليه، فضربه القيصر بعصاه الملكية، فمات من فوره، فجن جنون ايفان ندما على فعلته، وقضى أيامه ولياليه يصرخ عاليا من الحزن والأسى، وعقد العزم على التنحي عن الحكم إلا أن كبار رجال الدولة لم يقبلوا بذلك وأصروا على بقائه، وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة أصاب ايفان مرض غريب، جعل جسمه يتورم وتنبعث منه رائحة كريهة، وفي ١٥٨٤ قضى نحبه وهو يلعب الشطرنج.

قصة الحضارة: (ويجدر بنا ألا نظن أن إيفان الرابع كان مجرد غول متوحش. ونظراً لطول قامته وقوته كان يمكن أن يكون وسيماً، لولا أنفه العريض المسطح الذي كان يعلو شارباً منتشراً ولحية كثة حمراء. لقد ترجمت خطأ لفظة Groznyi بلفظة الرهيب Terrible والأرجح أنها تعني "المرعب" Awesome، مثل لفظة أغسطس التي أطلقت على القياصرة

(الرومان). وفي نظرنا، وحتى في نظر معاصريه القساة، كان إيفان الرابع قاسياً تواقاً إلى الانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز، وقاضياً لا يستشعر الرحمة.

لقد كان ثمة أشياء تثير غيظه وحنقه، وتشعل النار في مزاج سريع الانفعال أكسبته الوراثة والبيئة عنفاً، ويقول شاهد عيان: إنه كان في بعض الأحيان يرغي من فمه كما يفعل الحصان نتيجة مضايقة صغيرة أو انزعاج يسير. ولقد اعترف القيصر بخطاياه وجرائمه بل بالغ فيها أحياناً ولم يكن على أعدائه إلا أن ينتحلوا منها اتهاماتهم له.

وأخفق إيفان لأنه لم ينضج قط إلى حد السيطرة على النفس، وكادت أن تنسى في غمرة الانقلاب تلك الإصلاحات التي كان قد خططها. وترك الفلاحين خاضعين لملاك الأرض خضوعاً أشد وأنكى من ذي قبل، وأوصد بالحروب أبواب التجارة، وساق الرجال القادرين إلى أسلحة العدو، وشطر روسيا إلى قسمين متناحرين، وسار بها إلى الفوضى. وضرب لشعبه مثلاً مفسداً للقسوة المتسمة بالورع وللأهواء الجامحة، وقتل أحسن أبنائه مقدرة وكفاية، وأسلم عرشه إلى شخصية ضعيفة أدى عجزها إلى الحرب الأهلية، لقد كان ايفان واحداً من كثيرين من رجال عصره، الذين يمكن أن يقال عنهم: إنه كان من الخير لبلادهم وللإنسانية جمعاء ألا يولدوا قط).

جنكيــز خـــان (١١٦٥ـ ١٢٢٧).

والده "يسوجاي ولأمة آلون" زعيم قبيلة قيات، وهو ابنه البكر، اسمه الحقيقي "تموجين"، أي: الصلب المتين، ولما عظم شانه أطلق عليه اسم جنكيز خان، أي: إمبراطور البشر جميعا.

جنكيز، تمكن من توحيد قبائل المغلول (من أكثر الشعوب الآسيوية دموية في القرون الأولى من الميلاد، تمكنوا من حكم أجزاء واسعة من آسيا بعد تأسيس دولتهم على يد جنكيز خان، يتميز المغول بالانضباط والطاعة التامة لقادتهم، يعرف عنهم مهاراتهم الفائقة في استخدام القوس عند ركوب الخيل، وقد ابتكروا سهاما تخترق الدروع، وشهد لهم التاريخ بقدراتهم العالية على إثارة حماس جنودهم، وشن الحروب النفسية ضد أعدائهم، تعتبر إمبراطوريتهم ثاني أكبر إمبراطورية من حيث المساحة بعد الإمبراطورية البريطانية التي عرفت بأنها التي لا تغرب عنها الشمس) وتأسيس الإمبراطورية المغولية (ضمت دولة المغول معظم أنحاء آسيا وأجزاء واسعة من روسيا والصين، ثم توسعت لتشمل أجزاء من بلاد فارس والبلاد العربية، قبل أن

تتقهقر وتتجزأ جراء الهزائم العسكرية والصراع على الحكم بين أحفاد جنكيزخان) الذي أصبح أول إمبراطور في تاريخها.

عندما ولد جنكيز كانت قطعة من الدم المخثر عالقة في يده، مما أثار ابتهاج والده وتفاؤله ورحب به قائلا: (لقد ولد مخلص المغول).

ويروى أنه عندما كان طفلا صوب قوسه نحو حصان جميل من أحصنة العائلة فقتله على الفور فصاحت به أمه قائلة له: أيها القاتل لقد قدمت إلى هذه الدنيا وبيدك علقة من الدم الأسود.

وينقل أنه كان في صغره يعتلي ظهر فرس بسرعة مثيرة ويهز جذوع الأشجار ويطلق أصواتا شبيها بالذئاب ليبث الذعر في قلوب الرعاة.

وعندما توفي والده مسموما تاركا إياه وأسرته المكونة من أمه وأشقائه الثلاثة في الفقر والضنك، كان جنكيز يبقى من دون طعام لفترات طويلة، وكان يتقوى بقطع وريد أحد خيول العائلة ويشرب قليلا من دمه.

ويقال: إن أحد أشقائه سرق منه عصفورا وسمكة فأقدم على قتله من دون شفقة أو رحمة.

ومرة تنازع مع مجموعة من فرسان القبيلة، فقرروا قتله، فاختبأ في عربة تحمل صوفا، ولما مرت من أمامهم شكوا في أمره، فراحوا يفتشونها برماحهم، التي كانت تنغرز في جسده من دون أن يطلق صرخة ألم واحدة.

وعندما بلغ جنكيز سن الثالثة عشرة رشح لمنصب رئيس القبيلة خلفا لوالده، إلا أن رجال القبيلة استصغروه واستضعفوه وانفضوا عنه ورفضوا طاعته، ولكنه بعد أربع سنوات بقوة شخصيته وحدة ذكائه فرض طاعته على قبيلته، حتى أن رجال القبيلة أصبحوا يتحاشون النظر في عينيه لفرط كاريزميته ولكي لا يكتشف ضعفهم أمامه، مما مكنه من أن يصل لمنصب رئيس القبيلة، إلا أنه واجه معارضة عنيفة من قبل "جاموقا"

منافسه على الزعامة، الذي اقسم على الانتقام منه، فكانت الحرب بين الفريقين في معركة المستنقعات، حيث تمكن جنكيز منه ومن أتباعه وتخلص منهم بوضعهم في مراجل الماء المغلي حتى الموت.

وبعد تثبيت سلطته اقترن بفتاة تترية اسمها (بيسوجين) وقد أخبرته بأن لها أختا أكبر منها تدعى (بيسوي) وأنها أكثر منها جمالا وجعلت تتحدث عنها، حتى هام بها وقرر الزواج بها، فأرسل من يأتي بها إليه، وكان لبيسوي حبيب، ولما عرفت بأمر جنكيز اختبأت معه، إلا أن رجاله تمكنوا من القبض عليها بينما فر حبيبها.

ثم إن جنكيز أقام حفلة كبيرة بمناسبة انتصاراته العسكرية وزواجه بالأختين، وبينما كان جالسا بينهما لاحظ علامات الخوف الشديد في وجه بيسوي، فشك في أمرها، فأمر بحصر الذكور المتواجدين في الحفل والتأكد من شخصياتهم، فقبضوا على شخص مجهول الهوية تبين أنه حبيب بيسوي، جاء ليرى حبيبته، فأصدر جنكيز خان أمر فوريا بإعدامه تقطيعا أمام الحضور، فوضع الحراس القيود في أطرافه، وجعلوا يقطعون جسمه قطعا صغيرة ويقدمونها لجنكيز.

ويحدثنا التاريخ أنه أمر بعض القبائل بتجديد البيعة له فرفض كاهن يدعى "شافان" فأمر جنكيز بكسر ظهره وإلقاء جثته في إحدى زوايا موقف للعربات.

****

بدأت قصة تأسيس الإمبراطورية المغولية، بوجود ست ممالك صينية ذات حكم ذاتي، يحكم كل منها خان نيابة عن الخان العظم الذي يقيم في عاصمته في مدينة طمغاج الصينية، وكان من ضمنهم خان يدعى "دوشي خان"، وكان متزوجا بعمة جنكيز خان، وعندما مات حضر جنكيز خان إلى

عمته زائرا ومعزيا، إلا أنها ما لبثت أن عرضت عليه أن يكون خانا مكان زوجها المتوفي فوافق وانضم إليه جمعا من المغول وكسب مساندة خانين مجاورين له، إلا أن الخان الأعظم لما عرف بأمر تولي جنكيز خان حكم إحدى ممالكه استشاط غضبا وأعلن عدم موافقته على ذلك وأمر بتجهيز جيشا للقضاء عليه، واشتعلت الحرب بينهما وقرر الخانان الآخران دخولهما في الحرب لصالح جنكيز، الذي انتصر فيها وأصبح ملكا على دولة مغولية صغيرة، وعندما مات الخانان الآخران استولى جنكيز على ملكهما فتوسعت دولته وذاع صيته وعظم شانه.

استولى جنكيز على منغوليا الغربية وسائر بلاد قبائل النيمان وعمل في أهلها القتل والاغتصاب والسبي والتخريب.

في عام ١٢٠٤ تمردت قبائل المركيت على جنكيز خان واعتصمت في الغابات، فهاجمهم وقضى عليهم، وثار عليه عدوه السابق " جاموقا"، إلا أنه تمكن من القبض عليه، ولما مثل امامه عرض عليه الدخول في خدمته، ولكنه رفض، فأمر بكسر ظهره ورقبته ثم إلقائها في الغابة لتأكلها الطيور والحيوانات.

في عام ١٢٠٥ دخلت جيوش جنكيز خان الدموية للصين وتحديدا لمملكة التاتخوت واستولى عليها بعد تدميرها.

وفي عام ١٢١١ اقتحمت القوات المغولية سور الصين العظيم في محاولة للقضاء على سلطة الملك الصيني "كيني" الملقب بملك الذهب، وبعد تجاوزه للسور تمكن من الاستيلاء على كميات هائلة من الذهب والحرير والخيول والمواشي وعدد هائل من الأسرى والرقيق.

في عام ١٢١٥ حاصر بكين وارتكبت قواته مذابح، حيث قتلت كل

من كان خارج المدينة من سكانها، ثم أضرم النار في القصر الإمبراطوري وظلت النيران تشتعل فيه لأكثر من شهر.

وعندما أكمل جنكيز خان احتلال الصين ومنغوليا الشرقية والغربية وغيرها من مناطق وبقاع وسط آسيا، توجه نحو بلاد العرب، حيث الثروات الكبيرة والموقع الاستراتيجي الذي يقع وسط العالم القديم (أوربا وآسيا)، فأرسل ثلاث رسل إلى الملك محمد سلطان الدولة الخوارزمية (دولة حكمت أجزاء من آسيا الوسطى وغرب إيران بين سنوات (١٠٧٧-١٢٢٠) تعرض عليه الدخول في طاعته)، فرد على جنكيز خان بأن أعدم ١٠٠ مرافق لهم وتنكيله بهم، ونهب كل ما في القافلة من أموال وبضائع، وكان هذا الرد كفيلا بتحريك شهوة الدم لدى جنكيز خان، يقول ابن الأثير عن هذه الحادثة: (إن كل قطرة من دماء تجار جنكيز ورسله كفر عنها المسلمون بسيل من الدماء كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مئة ألف من أرواحهم).

في عام ١٢١٩ بدأ جنكيز خان غزوه الدموي ضد بلاد العرب والمسلمين، مبتدأ بالدولة الخوارزمية، فدخل مدينة "اترار" بعد حصار طويل وأسر حاكمها، وأمر بصب الفضة المصهورة في عينيه وأذنيه، ثم حاصر تركستان وبعد سبعة أيام دخلها وذبح جميع سكانها.

في عام ١٢٢٠ وصل بخارى وبعد ضربها بالمنجنيق ثلاثة أيام دخلها بعد أن تعهد بأمان أهلها، إلا أنه أمر بطردهم منها وأمر جنوده بنهبها عن بكرة أبيها، ثم دخل مسجدها الكبير وأمر بجلب المصاحف إلى باحة المسجد واستعمالها علفا لخيوله، و أقام حفلة صاخبة داخله وأمر رجاله بإحضار الخمور والقيان والعاهرات وممارسة كافة الرذائل في أرجائه.

ثم توجه إلى سمرقند، وبعد حصار شديد ومقاومة شديدة من أهلها، أمنهم على حياتهم على شرط رحيلهم عنها، وأمر بنهبها وتركها خاوية على

عروشها، وأخيرا وصل إلى كاركانج عاصمة خوارزم، وبعد مقاومة شديدة أدت إلى مقتل ألف جندي مغولي دخلها المغول بعد قصفها بالمنجنيق وقوارير النفط الملتهبة، ودمروها وقتلوا رجالها و اتخذوا ممن تبقى منهم عبيدا ومن فتياتها إماء.

وتكررت مشاهد الغزو الدموي في كل من مدن إقليم خراسان (نسا) و(سبزوار) و(مرو)، وتذكر السير أن ابنة جنكيز خان (توقوشار) دخلت إلى مدينة نيسابور بعد سقوطها بيد جيوش والدها المتوحشة، بحماية عشرة آلاف جندي، وقامت بذبح كل من صادفتهم من سكان المدينة، بما فيهم القطط والكلاب! واستمرت المذبحة لأربعة أيام، ذهب ضحيتها عشرة آلاف من السكان الأبرياء.

وفي هذه المذبحة أصدر حاكم المدينة من طرف جنكيز خان أمرا بقطع رؤوس كافة الجثث، بعد أن سمع بأن لدى السكان حيلة تنجيهم من الذبح وهي الرقود بجوار جثث الموتى!

فكان أن قسمت الرؤوس على هيئة أهرامات! أهرامات لرؤوس الرجال، وأخرى للنساء، وأخرى للأطفال.

وفي عام ١٢٢٢ حاصر جنكيز خان مدينة سغناق (مدينة في جمهورية تركمانستان حاليا) وبعد سبعة أيام دخلها وذبح جميع سكانها.

واستمر جنكيز خان في ارتكاب جرائمه الدموية وقتله للأبرياء في كل بقعة يطأها جيشه الدموي حتى عام ١٢٢٦، حين سقط على الفراش مصابا بالحمى ليموت في مطلع عام ١٢٢٧.

******

جنكيز خان كانت عيناه كعيني الهر، هكذا وصفته بعض أسفار التاريخ، وكان يخضع كل شخص لهيمنته، ولا يتورع عن سفك الدماء، و أبسط شيء عنده قتله الآلاف ببرود تام وهدوء شديد، وكان جيشه كالرياح العاصفة تدمر كل شي أمامها، بل إنه إعصار مجنون يهدم كل شيء من أساسه ويحيل الأرض الخضراء المزدهرة إلى صحراء جرداء، والمدن العامرة إلى أطلال وبيوتها قبور وأهلها موتى مصروعين بسيوف شيطانية التي لا تعرف الرحمة.

يروى عنه أنه سأل أحد أصدقائه: ما أعظم فرصة تسنح للمرء في حياته؟ فأجاب الصديق: هي الصيد في يوم ربيعي و أنت على صهوة جوادك. فعارضه قائلا: إن الفرصة الحقيقية أن ينزل المرء الهزيمة بأعدائه ويسوقهم أمامه كالقطيع راكبا خيولهم سابيا بناتهم وزوجاتهم.

وسأل جنكيز خان يوما ضابطا من ضباطه قائلا له:

ما هي أقصى سعادة يحس بها الإنسان؟ فأجابه الضابط قائلا: أن يكون معه جواد سريع يجوب به السهول الخضراء وعلي رأسه بازيطير ليعود بطراد الصيد. فقال معترضا علي كلامه: كلا بل إن السعادة هي أن تسحق عدوك سحقا حتى يجثو خاشعا عند قدميك ثم تسلبه كل ما يملك ومن حوله أبناؤه ونساؤه يعولن باكيات.

من أقواله:

- إن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة مملكة.

- إن كل من يستطيع أن يحفظ الأمن والطمأنينة في داره في وسعه أن يقر الأمن في الإمبراطورية ومن يضبط عشرة رجال يستطيع أن يتولي قيادة ألف أو عشرة آلاف رجل.

- من تمكن من نظافة بيته يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء.

هولاكو (١٢١٧ـ ١٢٦٥).

هولاكو خان، أحد أحفاد جنكيز خان، ولد عام ١٢١٧، هولاكو معناه الخنزير أو الذئب في اللغة المغولية، منذ ولادته بدأت القسوة تتجسد في شخصيته، وحين شب عن الطوق ظهرت القسوة الدموية على تصرفاته وممارساته، يقول المؤرخون: إنها أول ما ظهرت ضد خيول عائلته، ثم انتقلت إلى كل البشر والحجر، وسرعان ما بنى هولاكو سيرته على جماجم الضحايا ورؤوس الأبرياء ودماء الشعوب التي دمر بلادها واستباح أعراضها، فكان عويل نسائها وصرخات أطفالها طيفا لهذه القسوة الدموية المرعبة حتى آخر يوم من حياته التي بليت بها البشرية في زمنه.

عرف عن هولاكو عيونه الحمراء وقصر قامته المفرط وجسمه الممتلئ، هذه الصفات الجسدية هي من حملت شخصيته الدموية المتوحشة.

في عام ١٢٥٥ كلفه أخيه الإمبراطور منكوخان بغزو جنوب إيران، والشرق العربي وتحديدا العراق والشام ومصر، وضمها لدولة المغول المترامية الأطراف.

يقول د. راغب سرحان: (وتحركت الجيوش الهائلة صوب معاقل الإسماعيلية، و اقتربت من أقوى حصونهم على الإطلاق وهو حصن "آلموت" في غرب فارس، وما هي إلا أيام حتى تم تطويق الحصن المنيع، ولما شاهد زعيم الإسماعيلية "ركن الدين خورشاه" هذه الأعداد التي لا تحصى، طلب أن يقابل هولاكو، وقبل هولاكو ليختصر الوقت؛ فالإسماعيلية ليست إلا محطة صغيرة قبل الوصول إلى بغداد.. والتقى هولاكو بركن الدين خورشاه الذي أعلن خضوعه الكامل لهولاكو، وتسليمه للقلعة الحصينة، ولكن قائد القلعة رفض التسليم، وصمم على القتال عاصياً بذلك أمر قائده ركن الدين خورشاه، ففتح التتار القلعة عنوة بعد ذلك بأيام، وذبحوا كل من فيها، وطلب ركن الدين خورشاه من هولاكو أن يرسله إلى "منكوخان" ليتفاوض معه شخصياً في تسليم كل قلاع الإسماعيلية في مقابل بعض الوعود، وقد أرسله فعلاً هولاكو إلى منكوخان محاطاً بفرقة تترية، ولكن منكوخان رفض أن يقابله واستحقره جداً وقال: إن هولاكو قد أخطأ بإرهاق الخيول التترية الجيدة في هذه الرحلة الطويلة من أجل هذه السفارة التافهة. ثم أمر جنوده بإعادة ركن الدين خورشاه إلى فارس، وفي الطريق قتل ركن الدين خورشاه كما يقولون في ظروف غامضة، وإن كانت الظروف ليست بغامضة فمن الواضح أن "منكوخان" قد أوصى بقتله، ولكن خارج البلاط المغولي لئلا يتهم البلاط بالغدر!

وبعد قتل ركن الدين خورشاه قام "هولاكو" بخدعة خبيثة قذرة في مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم، والتعاون سوياً لدخول بغداد، وطلب من قواد الإسماعيلية أن يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم التتار بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، فإن هولاكو -كما يزعم- يخشى أن يضخم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر، وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية في جمع كل أعوانهم، حتى جاء رجال من العراق ومن الشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير قام هولاكو بمذبحة بشعة فيهم، وقتل كل من أمسكه في يده، ولم ينس أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى "سالقان خاتون" ابنة "جغتاي" وحفيدة جنكيزخان لتقتلهم بيدها لتأخذ بثأر أبيها "جغتاي" المقتول على يد الإسماعيلية قبل ذلك.

وهكذا تم خلال سنة ٦٥٥هـ استئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريباً، ولم ينج منهم إلا الشريد الذي كان يعيش في الشام أو العراق، ولم يأت في عملية الإحصاء المزعومة.

وجاء في سيرة غزوه للعراق ومجازره في بغداد ما يلي:

البداية والنهاية: (ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة وفيها استهلت هذه السنة وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر: لن يغني حذر عن قدر.

وكما قال تعالى: {إن أجل الله إذا جاء لا يؤخرُ} [نوح: ٤]، وقال تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال} [الرعد: ١١].

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة -وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل- إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه و أنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهاً إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه. ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس.

ثم أشير على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق له ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء

والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، و أنزل الباقون عن مراكبهم، ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال: إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت.

ثم عاد إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، فباؤوا بإثمه و إثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الر افضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله و إنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفي قبره، وكان الرجل يستدعى من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد.

ولما انقضى الأمر المقدرو انقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم و أنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق، و انتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم).

يقول د. فؤاد الصياد في كتابه * المغول في التاريخ*:

أوقع سقو بغداد العالم الإسلامي في فزع وذهول وحيرة، فسارع حكامه المستضعفون إلى الطاغية هولاكو، يقدمون له فرو الطاعة و التهنئة، ويتملقونه خوفاً من بطشه، و اتقاء لشره.

ويقول المؤرخ "سفاتوبلوك سوجيك" في كتابه *تاريخ آسيا الصغرى*:

(اعتقد بعض المؤرخين بأن غزو المغول قد دمر الكثير من البنى الأساسية للري والتي كانت موجودة منذ حضارة ما بين النهرين قبل آلاف السنين. قطعت قنوات الري بسبب التكتيك العسكري، وكانت أعظم الأعمال التهديمية التي ارتكبها هولاكو هي التخريب المتقن في السدود والأنهار ونواظم الإسقاء، ولم ترمم بعد ذلك، وتسبب قتل أناس كثيرون وهروب غيرهم إلى عدم تصليح نظام الري ولم تقم بذلك أيضاً أي هيئة أخرى لهذا إما أن تكون دمرت أو ملئت بالطين والطمي).

****

ثم توجه هولاكو نحو الشام وفيها ارتكب المزيد من جرائم الحرب والإبادة...

المغول في التاريخ:

البداية والنهاية – حوادث سنة ٦٥٨ هـ: (تو اترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام إذ دخل جيش المغول بصحبة ملكهم هولاكو خان وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

وامتنعت عليه القلعة شهراً ثم استلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً، لكنه لم يو افقه الجيش على القتال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.).

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي - حوادث سنة ثمان وخمسين وستمائة:

(في المحرم: نزل هولاكو على مدينة حلب وراسل متوليها الملك المعظم تور انشاه بن الملك الناصر يوسف على أن يسلمه البلد برمته ورعيته فلم يجبه إلى طلبه و أبى إلا محاربته، فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى.

وصارت عساكر التتر تمشي على جيف من قتل، فيقال: إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان.

وامتنعت قلعة حلب فنازلها هولاكو حتى أخذها في عاشر صفر وخربها وخرب جميع سور البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها حتى عادت موحشة).

ثم إن الطاغية هولاكو اخذ دمشق، ثم حدث أن مات إمبراطور المغول مونكوا خان، فعاد إلى تبريز، وكلف كتبغا بغزو مصر، فكانت معركة عين جالوت، التي اندحر فيها المغول وطردوا من بلاد الشام، ثم انقسمت دولة المغول فكان أن أسس هولاكو مملكة كبيرة عرفت بالدولة الإيلخانية، كانت العراق جزءا منها، وتوفي هولاكو بعد أن أشبع الأرض قتلا وتدميرا عام ١٢٦٥ وهو في سن الثامنة والأربعين.

من أقواله: إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على مَن حَلَّ به غضبه.

- نحن لا نرحم من بكى، ولا نرقّ لمن شكى، لا نرحم شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، قتل الناس عادة، وشرب دمائهم غاية.

الطاغية تيمورلنك (١٣٣٦- ١٤٠٥).

ولد عام ١٣٣٦، في جنوب سمرقند، في أوزبكستان المعاصرة، جده جنكيز خان من جهة أمه، وهو مؤسس السلالة التيمورية التي حكمت أجزاء واسعة من وسط آسيا من عام ١٣٧٠ حتى عام ١٥٠٦، تيمور تعني في اللغة الأوزبكية: الحديد، ولنك أي: الأعرج، يقول أحد المؤرخين المعاصرين له: إنه في ليلة مولده شوهد شيئا كأنه شبيه الخوذة طائرا في عنان السماء ثم هوى على الأرض وتطاير منه الجمر والشرر، وتراكم حتى ملأ البدو والحضر، فسأل أهله عن أحواله في مستقبل أيامه العرافين والمتنبئين والكهنة فقال بعضهم: إنه يكون شرطيا. وقال الآخر: لصا. وقال آخرون: إنه يصبح قصابا سفاكا.

وقال المؤرخ ابن تغريدي: إن تيمورلنك عندما خرج من بطن أمه كانت كفاه مملوءتين بالدم، فأخبروا أحد الكهنة فقال: إنه سيصبح سفاكا للدماء.

وقد عاش تيمورلنك أيام صباه في قبيلة "البرلاس"، وقد أتقن فنون الحرب والصيد والفروسية ورمي السهام، ويقول بعض المؤرخين: إنه كان لصا ماهرا، و إنه سرق في إحدى الليالي غنمة وحملها معه ولما انتبه له الراعي وجه له سهما أصابه في كتفه ثم بآخر فأصاب فخده، فأصبح منذ ذلك اليوم أعرج، إلا أنه استمر في السلب والنهب وقطع الطرق، وقد كان قائدا لمجموعة من اللصوص من أبناء قبيلته، وقد فقد في إحدى معاركه إصبعيه السبابة والوسطى من يده اليمنى.

وعندما أصبح تيمورلنك في سن الشباب أصبح زعيما لقبيلته "البرلاس" و أقام علاقات وصداقات مع القبائل الأخرى وحكام الدول المحيطة بقبيلته، الأمر الذي اوجد له الفرصة الواسعة لتأسيس دولته فيما بعد.

في عام ١٣٥٧ قام حاكم مدينة "قشغر" (مدينة تابعة للصين اليوم) بغزو بلاد ما وراء النهر (منطقة تاريخية في آسيا، أصبحت اليوم جزءا من جمهورية أوزبكستان والجزء الجنوب الغربي من كازاخستان) وجعل ابنه "اياس" قائدا للحملة وأرسل معه تيمور نائبا له، ثم حدث خلاف بينهما، فقرر تيمور الانضمام إلى الأمير حسين آخر حاكم لمملكة تاكستان، وتقرب إليه ونال عنده منزلة كبيرة وصار من أتباعه وأمر ائه وتزوج من أخته، وخاض معه الحروب حتى توسعت مملكة تاكستان، إلا أن الخلاف دب بين الرجلين، فكانت الحرب بنيهما، التي انتصر فيها تيمورلنك وتمكن من قتل الأمير حسين، وأمر بقتل زوجته معه أيضا، وأصبحت معظم تاكستان خاضعة له، وسيطر

على معظم المناطق القريبة من قبيلته، ودخل سمرقند عام ١٣٧٠ وأعلن نفسه حاكما عليها وأعلن أنه سيعيد إحياء دولة المغول التي أسسها جده جنكيز خان مرة أخرى، ونظم شئون البلاد و أنشأ مجلس شورى مكونا من كبار الأمراء والعلماء.

وبدأ تيمورلنك بوضع الخطط الحربية الإستراتيجية الكبرى لتوسيع رقعة دولته و إنشاء إمبراطورية مغولية جديدة، في الأعوام من ١٣٧٢-١٣٧٩، غزا خوارزم ونواحيها عدة مرات، حتى تمكن من الاستيلاء عليها وضمها إلى ملكه، بعد أن دمر العديد من مدنها وقراها، كما نجح في احتلال خراسان، واستمرت جيوش تيمورلنك بغزو وسط آسيا حتى أخضع كل بلاد ما وراء النهر لسلطته، بعد أن أسبغ في أهلها القتل والتدمير والهلاك، فعندما هاجمت جيوشه مدينة سبزوار في خراسان، واجه مقاومة باسلة من أهلها، وعندما دخلها جنده، أمر برفع الرايات السوداء، التي تعني القتل العام حتى غروب الشمس، فكانت حصيلة القتلى ٩٠ ألف قتيل، ثم أمر تيمور المتبقين على قيد الحياة من أهالي المدينة بفصل رؤوس القتلى عن أجسادهم، وأمر المعماريين من جيشه ببناء برجين مكونين من هذه الرؤوس، جاء في مكتبة التاريخ الإلكترونية:

(ومن الأدلة على جرائمه تلك ما حدث في إقليم خراسان، عندما هاجم تيمورلنك مدينة سبزوار في خراسان، وقد استمات أهلها في الدفاع عن مدينتهم، ولكن في نهاية الأمر استولى تيمور على المدينة وأمر برفع الرايات السوداء ومعناها الأمر بالقتل العام الذي استمر حتى الغروب، ثم أمر بعد القتلى من أهل المدينة فكانوا ٩٠ ألف قتيل، عندئذ اجبر تيمور الباقين على قيد الحياة من أهالي المدينة بفصل رؤوس القتلى عن أجسادهم وأمر المعماريين والمهندسين في جيشه بأن يبنوا برجين من هذه الرؤوس، يقول

الباحث إياد بيطار في بحثه التاريخي *تيمورلنك سلطان التتار*: وقد قام هؤلاء بتنفيذ أمره بحيث كانوا يستعملون الرؤوس كالآجر مستعملين الملاط في ذلك، وتكون سيماء كل وجه إلى الخارج بحيث أن الناظر يرى برجين من الوجوه، وجعلوا في كل برج درجاً لكي يضيئوا مصباحاً عليه ليلا، وعندما أكملوا البناء وضع تيمور لوحة أمام كل برج كتب عليها بأمر تيمور بني هذا البرج من رؤوس أهالي سبزوار).

ثم أمر طاغية عصره تيمورلنك بدفن ٢٠٠٠ رجل من الأسرى وهم أحياء وبتسوية المدينة بالأرض، حتى تكون عبرة وعظة للمدن الأخرى، ويكون ما حل بأهلها عقوبة لكل من يجرؤ على مقاومته وتحدي سلطته.

ثم إن تيمور وصل في غزو اته الدموية إلى أصفهان، التي حاصرها لعدة أشهر حتى تمكن من دخولها بعد مقاومة باسلة، إلا أن أهلها ظلوا يقاومون جنوده في الشوارع والأزقة وتمكنوا من قتل عدد كبير منهم، فما كان من تيمور إلا أن أمر بهدم المنازل وقتل كل سكان أصفهان وأن لا يرحم أحدا منهم أبدا، ويروي المؤرخون فظائع مهولة وجر ائم رهيبة تفوق كل تصور ارتكبها الجيش التيموري في أصفهان، فقد كان جنود تيمور يبقرون بطون الخلق ويستخرجون أحشائهم، وأمر تيمور بهدم مسجد المدينة وقتل من فيه، ويروى أن أحد رجال الدين جمع الأطفال على طريق موكب تيمور في محاولة منه لبث الرحمة في قلبه، إلا أن تيمور أمر بدهس الأطفال حتى قتلهم جميعا، وأن لا يتوقف الجند عن القتل عن الناس حتى يجمعوا له سبعين ألف رأس، فلما فنيت الرجال ولم يوفوا بالعدد المطلوب أخذوا يقطعون رؤوس النساء والأطفال حتى جمعوه، ثم أمر تيمور ببناء ٢٤ منارة من رؤوس ضحاياه تزين بها الشوارع وعلقت على أسوار المدينة لكي تكون عبرة لكل من يجرؤ على مقاومته وتحدي حكمه.

ثم إن تيمورلنك خاض الحروب والملاحم فدانت له معظم بلاد فارس والعراق، ففي عام ١٤٠٠م بدأت حملة تيمورلنك ضد سوريا مبتدئا بحلب، وفي طريق مر على أرمينا وأذربيجان وجورجيا وقتل وسف الدماء و أباد العباد ونشر الرعب بين المخلوقات، قال ابن تغري في النجوم الزاهرة: ٢٦١/١٢: (ثم سار حتى نزل قرا باغ في سابع عشر شهر ربيع الأول فقتل وسبى ثم رحل منها، ونزل تفليس في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة وعبر بلاد الكرج وأسرف فيها أيضاً في القتل والسبي، ثم قصد بغداد ففر منه صاحبها السلطان أحمد بن أويس في ثامن عشر شهر رجب إلى قرا يوسف، فعاد تيمور من بغداد وصيَّف ببلاد التركمان، ثم سار إلى ماردين فعصى صاحبها عليه الملك الظاهر مجد الدين عيسى، فتركه تيمور ومضى إلى سيواس، وقد أخذها الأمير سليمان بن أبي يزيد بن عثمان فحصرها تيمور ثمانية عشر يوماً حتى أخذها في خامس المحرم من سنة ثلاث وثمانمائة، وقبض على مقاتلتها وهم ثلاثة آلاف نفر، فحفر لهم سرداباً وألقاهم فيه وطمَّهم بالتراب بعدما كان حلف لهم ألا يريق لهم دماً، وقال: أنا على يميني ما أرقت لهم دماً! ثم وضع السيف في أهل البلد وأخربها حتى محا رسومها! ثم سار إلى بهسنا فنهب ضواحيها وحصر قلعتها ثلاثة وعشرين يوماً حتى أخذها. ومضى إلى ملطية فدكها دكاً.

ثم قصد حلب ثم سار حتى بلغ حلب الشهباء، وأرسل لسلطانها رسل الوعيد والتهديد وكانت تحت حكم المماليك البحرية، فرد عليه نائبهم بقطع رؤوس الرسل جوابا عليه، وأرسل يريد المدد من فرج بن برقوق سلطان المماليك البحرية في القاهرة، ولكن السلطان تقاعس ولم يهتم بعظم الخطر وفداحة الأمر، ثم إن تيمور حاصر حلب الشهباء وجرت بينه وبين قوات المماليك المناوشات والمعار كالصغيرة، حتى يأس جيش المماليك من النصر ففروا تاركين حلب لمصيرها، الذي كان فظيعا!

فعندما دخلها المغول التيموريين قتلوا كل من كان يساند حكم المماليك ولم يرحموا أحدا منهم البتة، واغتصبوا النساء والفتيات والغلمان، وأجهزوا على من ظفروا به من الرجال والأطفال والشبان، ثم أشعلوا النار في المدينة وأخذوا يقتلون الناس لثلاث أيام بلياليها، وبنى تيمور كعادته برجا من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل: إن عدته أكثر من عشرين ألف رأس موجهة جميعا لخارج المدينة.

ثم إن حماة فتحت أبوابها لتيمور من دون قتال خوفا من سيوف المغول، إلا أن اثنين من جنودهم قتلوا غيلة، فأمر تيمور بالعودة للمدينة ووضع السيف في أهلها وحرقها عن بكرة أبيها، وفي عام ١٤٠١ وصلت شياطين المغول إلى دمشق، وكان سلطان المماليك فرج بن برقوق قد قدم للدفاع عنها، إلا أنه كان قليل خبرة بشئون الحكم والسياسة، وكان قادته متنافرين متصارعين فيما بينهم على الجاه والنفوذ، وكان تيمور يعرف ذلك، فاستثمره لإيقاع الهزيمة به، وهكذا حدث، فيعد أن تظهر بالانسحاب والتقهقر، علما بأن المماليك قد انسحبوا هم أيضا عائدين إلى القاهرة، فعاد إلى دمشق وحارب من تبقى فيها من الجيش، ورأى تيمور أن لا بديل عن الخداع، فأرسل إلى أهلها بأنه يطلب الصلح، فأخرجوا له أحد علمائهم وهو قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي، فتلطف له تيمور في الكلام وأخذ يكيل المديح لدمشق وأهلها و أنه سيعتقها إذا ما عقد أهلها الصلح والدخول في طاعته، فعاد تقي الدين إلى الناس ممتدحا تيمور وأخذ يخذلهم عن القتال، وتمكن من إقناعهم بترك الحرب والكف عن القتال وبدفع المبلغ الذي يفرضه المغول على المدن المفتوحة صلحا، وكان مقداره مليون دينار، وقد تمكن الأهالي من جمعها بسرعة، وذهب وفدٌ إلى تيمور لمقابلته وإعلان الولاء له ودفع المال له.

ولكن هل وفى طاغية المغول بما وعد؟ جاء في النجوم الزاهرة في مصر والقاهرة: (فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويفر في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً.

واستمر جحيم دمشق لثلاثة أسابيع، ثم أمر تيمور باستباحتها لثلاثة أيام أخرى، وأمسك بعدد غفير من النساء والأطفال والغلمان واتخذهم رقيقا وعاد بهم إلى سمرقند، وأمر بعد مغادرته دمشق أن تشعل فيها النار، فأقامت النيران في دمشق لثلاث أيام حتى أتت على

غالبية دورها وأمكنتها وغدت مدينة خراب وموت تعيث فيها الجرذان والكواسر بحثا عن ما خلفه طاغية المغول من جثث ومزابل).

ومن بعد دمشق جاء دور بغداد هذه المرة، ابن عماد في شدرات الذهب: (ثم على بغداد وحصرها أيضاً حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر من السنة ووضع السيف في أهلها، وألزم جميع من معه أن يأتي كل واحد منهم برأسين من رؤوس أهلها، فوقع القتل حتى سالت الدماء أنهاراً، وقد أتوه بما التزموه فبنى من هذه الرؤوس مائة وعشرين مأذنة، ثم جمع أموالها وأمتعتها، وسار إلى قرى باغ فجعلها خرابا بلقعاً).

النجوم الزاهرة (ج ١٢): (وكان رحيله عن دمشق في يوم السبت ثالث شعبان من سنة ثلاث وثمانمائة المذكورة، واجتاز على حلب وفعل بها ما قدر عليه ثانياً، ثم سار منها حتى نزل على ماردين يوم الاثنين عاشر شهر رمضان من السنة، ووقع له بها أمور، ثم رحل عنها وأوهم أنه يريد سمرقند يوري بذلك عن بغداد، وكان السلطان أحمد بن أويس قد استناب ببغداد أميراً يقال له فرج وتوجه هو وقرا يوسف نحو بلاد الروم، فندب تيمور على حين غفلة أميرزاده رستم ومعه عشرون ألفاً لأخذ بغداد، ثم تبعه بمن بقي معه ونزل على بغداد وحصرها حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر من السنة ووضع السيف في أهل بغداد.وقال المقريزي: تسعين ألف إنسان، وهذا سوى من قتل في أيام الحصار، وسوى من قتل في يوم دخول تيمور إلى بغداد، وسوى من ألقى نفسه في الدجلة فغرق وهو أكثر من ذلك).

موسوعة العذاب (ج٦): (وفي سنة ٨٠٣ لما فتح تيمورلنك بغداد فرض على كل واحد من عسكره أن يحضر له رأسين! فكان الواحد مهم إذا عجز عن إحضار رأسين يقطع رأس امرأة ويزيل شعرها ويقدم الرأس).

كان حلم الأحلام بالنسبة لتيمورلنك هو أن ينشئ إمبراطورية تفوق إمبراطورية الإسكندر، ولا يكون له ذلك إلا بالسيطرة على الصين، فعمل على تجهيز حملة عسكرية ضخمة لتدمير الإمبراطورية الصينية والاستيلاء عليها، وخرج على رأسها، على الرغم من تحذيرات قادته العسكريين من خطورة شن الحرب في فصل الشتاء القارص، وكانت النتيجة فشل الحملة وموت الآلاف من الجنود وهلاك الطاغية تيمورلنك في نهاية الأمر، وهكذا انتهت حياة طاغية عصره وأوانه ولكن وصمات العار التي لحقت جراء انتسابه للأنانية ظلت علامة على جبين الحضارة البشرية حتى يومنا هذا، قال ابن تغريد في المنهل الصافي:

(وخرج من سمرقند في شهر رجب أي: من هذه السنة قاصداً بلاد الصين والخطأ وقد اشتد البرد، حتى نزل على سيحون وهو جامد فعبره ومر سائراً، واشتد عليه وعلى من معه الرياح والثلج وهلكت دوابهم وتساقط الناس هلكى، ومع ذلك فلا يرقُّ لأحد ولا يبالي بما نزل بالناس، بل يجد في السير! فلما وصل إلى مدينة أنزار أمر أن يستقطر له الخمر حتى يستعمله بأدوية حارة و أفاويه، لدفع البرد وتقوية الحرارة، وشرع يتناوله ولايسأل عن أخبار عسكره وما هم فيه، إلى أن أثرت حرارة ذلك في كبده وأمعائه فالتهب مزاجه حتى ضعف بدنه وهو يتجلد، ويسير السير السريع وأطباؤه يعالجونه بتدبير مزاجه، إلى أن صاروا يضعون الثلج على بطنه لعظم ما به من التلهب وهو مطروح مدة ثلاثة أيام، فتلفت كبده وصار يضطرب ولونه يحمر إلى أن هلك في يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان، وهو نازل بضواحي أنزارولم يكن معه من أولاده سوى حفيده خليل بن أميران شاه بن تيمور، فملك خزائن جده وتسلطن وعاد إلى سمرقند برمة جده إلى أن دفنه حفيده محمد سلطان بمدرسته، وعلق بقبته قناديل الذهب من جملتها قنديل زنته عشرة أرطال

دمشقية، وتقصد تربته بالنذور للتبرك من البلاد البعيدة، لا تقبل الله ممن يفعل ذلك! وإذا مرَّ على هذه المدرسة أمير أو جليل خضع ونزل عن فرسه إجلالاً لقبره، لما له في صدورهم من الهيبة! وتوفي عن نيف وثمانين سنة، وخلف من الأولاد أميارن شاه والقان معين الدين شاه رُخّ صاحب هراة، وبنتاً يقال لها سلطان بخت، وعدة أحفاد. انتهى باختصار).

لقد كان تيمورلنك ماهرا في التدمير والقتل والإبادة والإرهاب ولكنه لم يكن ماهرا في الحكم والإدارة، وقد خلف دولة إقطاعية طاغوتية تحكم بالسيف وتدار بالدم، لم تخلف للإنسانية إرثا يذكر سوى صفحات سوداء في التاريخ الإنساني، مكتوبة بدماء الأبرياء ورؤوس الضعفاء وجماجم البؤساء، وما أن مات حتى تمزقت دولته ولم يبق منها إلا أجزاء تملكها أبناؤه وأحفاده من بعده، أما سائر البلاد التي احتلها فإنها سرعان ما عادت إلى أصلها وحكم أهلها بعد رحيله عنها، فقد كان تيمورلنك وجيشه الجرار أشبه بالجراد التي تهاجم المناطق وتأكل ما فيها ثم تغادرها إلى غيرها.

لقد كان تيمورلنك لعنة على البشرية في حياته وفي مماته، ففي عام ١٩٤١ نبش عالم الآثار الروسي ميخائيل جيرازيموف قبره فوجد تهديدا منقوش على القبر نصه ما يلي: (كل من يفتح قبري سيطلق العنان لقوة غاشمة أكثر فظاعة مني تجتاح أرضه). وبعد يومين فقط اجتاح هتلر الاتحاد السوفييتي!

وبعد أن أنهى ميخائيل أبحاثه على جثمان تيمورلنك وتم دفنه بعد ممارسة الطقوس الإسلامية أثناء الدفن جاءته الأنباء عن انتصار الاتحاد السوفييت على هتلر!

قال ابن العماد في شذرات الذهب ٦٥/٤ عن الطاغية تيمورلنك الآتي:

(كان تيمورلنك مغرم بقتل المسلمين وغزوهم وترك الكفار، وكان شيخاً طوالاً شكلاً مهولاً طويل اللحية حسن الوجه بطلاً شجاعاً جباراً ظلوماً غشوماً سفاكاً للدماء مقداماً على ذلك، وكان أعرج سُلَّت رجله في أوائل أمره، وكان يصلي عن قيام، وكان جهوري الصوت يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح. وكان يقرِّب العلماء والصلحاء والشجعان والأشراف وينزلهم منازلهم، ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه).

(في سنة ٨٠٣ قتل الفقيه أبو عبد الله أحمد قتله تيمورلنك لأنه لقيه بكلام شديد.

وكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب، وما أخرب البلاد إلا بذلك! وكان من أطاعه في أول وهلة أمن، ومن خالفه أدنى مخالفة وهن! وكان له فكر صائب ومكايد في الحرب وفراسة قلَّ أن تخطئ، وكان عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعها، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفراً ولا حضراً. وكان مغرى بمن له صناعةٌ ما إذا كان حاذقاً فيها. وكان أمياً لا يحسن الكتابة، وكان حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة. وكان يقدم قواعد جنكيز خان ويجعلها أصلاً، ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع أن شعائر الإسلام في بلاده ظاهرة، وكان له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم، فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها! وبلغ من دهائه أنه كان إذا قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فيأخذ أهل تلك الجهة المذكورة حِذْرَها ويأنس غيرها، فإذا ضرب بالنفير وأصبحوا سائرين

ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين، فلا يصل الخبر الثاني إلا ودَهَمَ الجهة التي يريد وأهلها غافلون!).

ومن حديث ابن خلدون مع تيمورلنك:

(إني ألفت كتاباً في تاريخ العالم. قال له تيمورلنك: كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع أننا خربنا العالم؟! فقال له ابن خلدون: أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة. أو نحو هذا من العبارات فأعجبه ذلك).

من أقواله: إن للكون إلها واحدا فيجب أن يحكم الأرض حاكم واحد.

من كتاب له لأحد لسلاطين: إن الله سلطني على ظلمة الحكام وعلى الجائرين من ملوك الأنام ورفعني على من ناوأني، ونصرني على من خالفني ومن عاداني، وقد رأيت وسمعت، فإن أجبت وأطعت فبها ونعمت وإلا فاعلم أن في قدومي ثلاثة أشياء: القتل والسبي والخراب. وإثم كل ذلك عليك).

من قول له لأهل قبيلته أيام صباه: لا بد أن أملك الأرض و أقتل ملوك الدنيا.

الشاه إسماعيل الأول مؤسس الدولة الصفوية (١٤٨٧- ١٥٢٥).

تنتسب العائلة الصفوية إلى الشيخ الصوفي صفي الدين الأردبيلي، وكان متصوفا على المذهب الشيعي وداعيا للتشيع، وقد تمكن من جعل الآلاف الناس تعتنق التشيع تحت إمرته، إلا أن الدعوة الدينية سرعان ما تحولت إلى دعوة سياسية أيضا، حيث كان أحفاده وأتباعه يسعون إلى تأسيس دولة شيعية في أنحاء فارس، وقد تحولوا إلى قوة سياسية ودينية في المناطق التي كانوا يتواجدون فيها، إسماعيل الصفوي كان أحد أبناء هذه القوى الصاعدة، وكان الأردبيلي جده الخامس، ولد عام ١٤٨٧، وعاش بعد وفاة أبيه تحت رعاية حاكم لاهيجان الذي كان محبا للصفويين، وقد تلقى منه الرعاية والاهتمام، فنشأ متلقيا تعليم الفروسية والقتال، ومن خلال مخالطته لديوان الحاكم أصبح يمتلك مهارات الإدارة والقيادة.

وكانت معظم أنحاء فارس تشهد اضطرابات وحروبا وقلاقل، وكانت معظم المناطق تعاني من عدم وجود دولة مركزية قوية ومحكمة، مما ساعد الصفويين على جذب المزيد من الأنصار لتحقيق حلمهم بإنشاء دولتهم العتيدة.

كان يقودهم الشيخ جنيد بن إبراهيم، الذي قتل في إحدى المعارك التي كانوا يخوضونها من أجل بسط سلطتهم ونفوذهم في ظل حالة الفوضى والشتات التي كانت تعيشها بلاد فارس، فخلفه ابنه حيدر (والد إسماعيل) الذي بدأ بتعزيز قدرات ومهارات أتباعه السياسية والدينية والحربية، واتخذ لهم شعارا يتميزون به وهو "قلنسوة حمراء ذات اثنتي عشرة ذؤابة" كدلالة على الأئمة الاثني عشر.

في عام ١٤٨٨ خاض حيدر معركة في طبرستان وفيها قتل مخلفا ثلاث من الأبناء هم إبراهيم وعلي وإسماعيل، ولما كان الأخير مهيأ أكثر من إخوته لقيادة جموع الصفويين، فقد اختير ليكون قائد الدعوة الصفوية وجيشها، وقد كان عمره يوم تولى القيادة أربعة عشر عاما، وقد تمكن من خوض عدة معارك ناجحة ضد حكام بعض المناطق واستولوا عليها، وتساقطت في يده الكثير من المدن الإيرانية، حتى استولى على المدينة الكبرى تبريز، التي أعلنها منها نشوء الدولة الصفوية واتخذها عاصمة لها، وتوج إسماعيل الأول ملكا ولقب بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي وذلك سنة ١٥٠٢.

لقد ارتكب الشاه إسماعيل جرائم مروعة في سبيل تأسيس دولته، أبرزها فرض المذهب الشيعي بحد السيف، علاوة على سفكه للدماء وإزهاقه لأرواح الخلق من دون وجه حق.

يقول د. إبراهيم باستاني باريزي في كتابه *السياسة والاقتصاد في العصر الصفوي*: (في الحقيقة إن مظالم جيش الشاه إسماعيل وسلوكه المنحط تلوث القلم بالعار عند كتابتها، فإنهم بعد ارتكاب المذابح كانوا يوزعون الزوجات على القلزلباشية) (القلزلباشية اسم يطلق على جنود الشاه إسماعيل).

جاء في كتاب إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي للدكتور نصر الله فلسفي ما يلي:

في سنة ٩٠٦هـ عندما استولى الشاه إسماعيل على شيروان وأسر ملكها شيروان شاه، وضع جسده في قدر كبير ووضعه على النار وطهاه ثم أطعمه للكلاب انتقاما منه لمقتل أبيه السلطان حيدر أثناء هجومه على شيروان.

عندما دارت معركة تبريز قتل من جيش الوند ميرزا حتى الظهر نحو عشرة آلاف رجل، وبقي على قيد الحياة عشرون ألفا، فقال الشاه إسماعيل لرجاله: كل من يقول منهم: علي ولي الله أمنوه على حياته ومن يرفضها فاقتلوه.

وقد قتل من تبقى من جيش الوند ميرزا الذين رفضوا التشيع، وكان عددهم نحو أربعة عشر ألف في الفترة من الظهر حين انتهت المعركة إلى غروب شمس ذلك اليوم، وبلغ مجموع من قتل في ذلك اليوم الدامي أربعة وعشرين ألف مقاتل من رجال الوند ميراز لرفضهم قول: "علي ولي الله".

جرت مراسم فرض المذهب الشيعي في مدينة تبريز العاصمة، وتقول كتب التاريخ: إن رجال الشاه إسماعيل الصفوي كانوا حذروه من خطورة الإقدام على ذلك الأمر، وقالوا له: إن ثلثي سكان مدينة تبريز من أهل السنة، وإن إعلان المذهب الشيعي قد يؤدي إلى قيامهم بالثورة ضده،

مما يعرض ملكه للخطر، ولكن إسماعيل الصفوي قال لهم: إن الإمام علي قد كلفه بهذه المهمة.

ثم أمر القلزلباشية بالتواجد في المسجد الجامع في يوم الجمعة الذي حدده لإعلان المذهب رسميا، وذهب الشاه إسماعيل وحمل القلزلباشية سلاحهم كاملا، وصعد إسماعيل الصفوي المنبر وهو شاهرٌ سيفه، وعندما قرأ الخطبة باسم الإمام علي و أئمة الشيعة، حدثت همهمة بين المصلين، فأطبق عليهم القلزلباشية وقال لهم الشاه إسماعيل: تبرئوا وإلا فإن القتل جزاء من يرفض التبرؤ. فتبرئوا جميعا من شدة الخوف، وخرج قائد التبرائيين يسير أمام الشاه إسماعيل الصفوي وهو يردد عبارات التبرؤ وكل من لا يرددها ويلعن الخلفاء الثلاثة يقطع رأسه على الفور.

غادر إسماعيل بن حيدر الصفوي وأخوه إبراهيم ومر افقوهما الذين يقال: إنهم كانوا سبعة من كبار المريدين في ولاية جيلان وتوجهوا إلى اردبيل فاجتمع حولهم أثناء الطريق ثلاث آلاف من قدامى المريدين، دخل بهم مدينة اربيل وحاصر بيت الحاكم ثم أحضره أمامه ووعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهي: "أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن عليا ولي الله". ولكن الوالي السني رفض قبول التشيع، فأمر بإحضار كمية من الأخشاب والحطب من كل منزل في المدينة، حتى تجمع حطب كثير وأضرم فيه النار، ثم ألقى فيها حاكم مدينة اردبيل، وكانت هذه أول نار تبعتها نيران كثيرة أحرق فيها مخالفيه.

بعد هذا أمر بجمع أهل المدينة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع، فمن قالها ضمه إلى رجاله، ومن رفضها ألقاه في النار مع حاكم اردبيل، وقد خاف كثير من الأهالي من الحرق فنطقوا بشهادة التشيع.

- بعد أن استقرت أمور العاصمة تبريزوما حولها توجه الشاه إسماعيل إلى مازندران سنة ٩٠٩هـ فتحصن حاكمها حسين كيا في قلعة حبلة رود، فقطع إسماعيل الصفوي الماء عنها حتى استسلم كل من كان بها وأمر رجاله فأحرقوها جميعا رجالا ونساء وأطفالا وكهولا مع بيوتهم وحصونهم، أما ملكهم حسين كيا فسجنه في قفص من حديد وأخذ في تعذيبه حتى مات أو انتحر كما تذكر الروايات المختلفة، فاحتفظ بجثته حتى أحرقت بعد ذلك.

-بعد هزيمة الشاه إسماعيل في معركة نشبت بينه وبين العثمانيين عاد بمفرده إلى مدينة درجزين في الطريق إلى تبريز وأثناء سيره على غير هدى دخل فرسه في مستنقع موحل وكان كلما حاول الخروج منه ازداد غوصا فيه حتى كاد يهلك، وقد مر على مقربة منه خليل خان ذو القدر والي إقليم فارس فارا من المعركة فناداه الشاه إسماعيل لينقذه ولكن خليل تغافل عنه وانطلق في طريقه، وبعد فترة رأى الشاه شخصا آخر فأنقذه... فلما خرج الشاه من الوحل ركب حصانه وانطلق وقد جزاه الشاه بأن منحه ولاية "داراب جرد" أما خليل فقد أرسل له امرأ بأن يقتل نفسه ففعل.

إسماعيل الثاني (١٥٣٧ـ ١٥٧٧).

حكم ما بين ١٥٧٦-١٥٧٧، سجنه والده الشاه طهماسب الأول لمدة عشرين عاما بسبب قسوته وعناده، ولما توفي حدث صراع على العرش أخرجه من سجنه وأوصله إلى الحكم، وكان أول ما قام به قتله لإخوته وكافة منافسيه المحتملين على السلطة، علاوة على العديد من حاشية قصره، ولكنه لم يدم طويلا، فقد تآمر عليه جماعة من العائلة الصفوية فسموه ثم دخلوا عليه وقتلوه

جاء في تاريخ الدولة الصفوية في إيران د. محمد سهيل طقوش ما يلي:

ظروف اعتلاء الشاه إسماعيل الثاني العرش الصفوي

في الوقت الذي توفي فيه الشاه طهماسب الأول، دخل عليه ابنه حيدر ووضع التاج على رأسه بناء لأمر منه أو نتيجة لنصيحة والدته أو أعوانه من قبيلة استاجلو وأعلن نفسه ملكاً على إيران، وأبرز بعد ذلك وصية ممهورة بخاتم والده المتوفى تُثبت أنه اختاره ولياً لعهده[1]، لكن تعذَّر عليه الخروج من القصر أو الاتصال بأتباعه لأن الحرس كانوا من طوائف روملو وأفشار وبيات القزلباشية المؤيدة لأخيه إسماعيل، فتزيا بزي امرأة وحاول الهرب متخلياً عن حلمه بالملك، لكن اكتُشف أمره وقُتل. وبذلك انتهى هذا الأمير كمنافس قوي لإسماعيل في الصراع على العرش، وقوي في المقابل، موقف الأخير الذي كان لا يزال مسجوناً في قلعة قهقهة الحصينة، والمعروف أن والده سجنه فيها لإبعاده عن ممارسة الحكم مبكراً بسبب قسوته وعناده، وما إن علم بالتطورات المستجدة في قزوين حتى سيطر على القلعة بمساعدة أنصاره مستغلاً غياب حاكمها خليفة أنصار قراداغلو في رحلة صيد، ثم غادرها في (٢٢ صفر ٩٨٤هـ/ ٢١ أيار ١٥٧٦م) قاصداً أردبيل لزيارة مقابر أجداده، ثم توجَّه إلى العاصمة قزوين فوصل إليها في (١٧ ربيع الأول/ ١٤ حزيران) إلا أنه لم يدخل إلى القصر الملكي وذلك بناء على رأي المنجمين الذين حدَّدوا موعد تتويجه في (٢٧ جمادى الأولى/ ٢٢ آب)، وأقام في منزل حسين قولي، خليفة الخلفاء، نائب السلطنة، ومنزل أخته پريخان خانم، وكانا من مناصريه. وعندما حان الموعد الذي حدَّده المنجمون، تُوِّج إسماعيل ملكاً على إيران في قاعة چهل ستون بالقصر الملكي بقزوين تحت اسم إسماعيل الثاني[2].

ويبدو أن المدة الطويلة التي قضاها الشاه في السجن والبالغة عشرين عاماً، أثَّرت على نفسيته وانعكست على أفعاله، فزادته قسوة وعناداً، أو أنه تأثَّر بما كان يجري في بلاد العثمانيين من إقدام السلطان الحاكم على التخلص من إخوته حتى لا ينافسوه على السلطة، وما حقَّقته هذه الظاهرة من الاستقرار السياسي؛ فما إن تحقَّق أمله باعتلاء العرش، لم يُبق على أخ أو صديق خشية على نفسه، وأطاح بكل من وقف في طريقه، فقتل إخوته مصطفى المؤيد لحيدر، وسليمان شقيق پريخان خانم، وقولي وأحمد، وأولادهم، وأغلب الأمراء الصفويين ممن لهم الحق بادعاء السلطنة، ولم يُبق على قيد الحياة سوى شقيقه الأكبر محمد خدابندة الكفيف البصر وأولاده. ولكن سرعان ما تغلَّبت عليه طبيعته القاسية، فقتل حسين، الابن الأكبر لمحمد خدابندة، وهدَّد هذا الأخير مع أولاده. وما جرى في (رجب ٩٨٥هـ/ أيلول ١٥٧٧م) من إنجابه لولد سمَّاه محمداً، أن ازداد تعطشه إلى سفك الدماء من واقع التخلص ممن تبقَّى من الأمراء الصفويين خشية أن ينافس أحدهم ابنه على العرش في المستقبل، فأمر علي قولي بك كوركان، أحد قادة طائفة شاملو القزلباشية، بقتل عباس ابن أخيه محمد خدابندة[١].

وراح الشاه يُسيئ الظن حتى بأقرب المقربين إليه، فقبض على حسين قولي ووضعه في الإقامة الجبرية، وسمل عينيه، ومنع أخته پريخان خانم من التدخل في شؤون الحكم، وقتل كل الذين ساندوا أخاه حيدر، وطال القتل طائفة الصوفية التي كان أفرادها متمسكين بالتعاليم الروحية التي خلَّفها الآباء الأوائل، بحجة أنهم:

- عدُّوا الملك الصفوي مرشداً كاملاً ولم ينظروا إليه كملك مُتوَّج.
- ارتبطوا بحسين قولي الموضوع في الإقامة الجبرية.

كما قتل ما يقارب من ثلاثين ألفاً من قادة أبيه ورجال حاشيته.

تمَّت كل هذه المذابح في مدة لا تزيد عن ثمانية عشر شهراً وهي مدة حكمه الدموي، والملفت أن الشاه كان يُعدُّ نفسه عادلاً ورؤوفاً، فكان يوقع أوامره بالعادل ويتخلَّص في شعره بعادلي.

وينقل أن الشاه إسماعيل الثاني كان يميل إلى المذهب السني ويرفض الإساءة للخلفاء وأم المؤمنين عائشة (ﷺ) وأصدر مراسيم تحرم سبهم والإساءة إليهم، كما قرب من بلاطه بعض علماء السنة وعينهم مستشارين، وقد واجه بسبب ذلك معارضة شديدة وجاءته جماعة من كبار أمراء العائلة المالكة ورجال الدولة ورجال الدين الشيعة تهدده بالخلع من العرش وتنصيب ابن شقيقه حسن ميرزا مكانه، ولما علم بالأمر استدعاهم فأنكروا ما نسب إليهم وادعوا بأنهم معترضون فقط على ميله للسنة وتركه للشيعة، وقبل منهم الشاه ذلك، إلا أنه أمر بقتل ابن أخيه حسن ميرزا فقتل خنقا، ثم إنه خفف من نزعته نحو السنة إرضاء للشيعة فسلم من خطر الخلع والقتل بسبب ذلك، إلا أنه قتل في نهاية الأمر جراء الصراع على الحكم وما تسببت به قسوته ودمويته من أحقاد ضده، حتى من أقرب أرحامه وأهل بيته.

تاريخ الدولة الصفوية:

وفاة الشاه إسماعيل الثاني

كان طبيعياً أن لا ينج الشاه إسماعيل الثاني من مؤامرات القزلباش بسبب سوء سيرته وإدمانه على الشرب وتعاطيه الأفيون، ودخلت أخته پريخان على خط التخلص منه، وقد أساءها أن يعاملها بقسوة وهي صاحبة الفضل في تنصيبه على العرش. فقد جرَّدها من ثروتها وأبعد عنها غلمانها وجواريها، ومنعها من مقابلة زعماء المملكة، وفرض عليها العزلة التامة، ولم يتوان عن قتل شقيقها سليمان، فاتفقت مع أمير خان وعدد آخر من قادة القزلباش، مثل حسيب خان ومحمد خان وخليل خان وخالها شمخال خان، على أن يتخلَّصوا منه وأقسموا على ذلك، فسموه في حبات الأفيون بواسطة امرأة كان قد ضمَّها إلى عشيقاته بعد مقتل زوجها، ثم دخلوا عليه وقتلوه في (١٣ رمضان ٩٨٥هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٥٧٧م)، فمات عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين عاماً قضى منها ما يناهز العشرين عاماً سجيناً في قلعة قهقهة وحكم ثمانية عشر شهراً[٢].

الشاه عباس الكبير (١٥٧١- ١٦٢٩).

تولى الحكم لمدة ٤٢ سنة من عام ١٥٨٧ - ١٦٢٨، ويعده الإيرانيون بطلا قوميا وناصرا للمذهب الشيعي، إلا أنه كان طاغية سفاكا للدماء، فإذا ما أسلمنا بأن سفك الدم أمر لا بد منه تجاه كل من يشكل خطرا على الدولة، سواء في الداخل أم الخارج، فلماذا أزهق هذا الشاه أرواح أبنائه والعديد من أمراء البيت الصفوي وقادة الدولة علاوة على آلاف الأبرياء من رعايا الدولة الصفوية من الأكراد والسنة؟

كان الشاه عباس حاكما طائفيا بشكل مقزز، فقد بلغ تعصبه المذهبي مبلغا شنيعا، حيث حاول إقناع الإيرانيين بالتخلي عن أداء فريضة الحج بسبب وقوعها تحت إدارة الدولة العثمانية، التي كانت تفرض رسوم عبور على الحجاج القادمين لمكة لأداء العمرة أو الحج، وأشاع بأن زيارة الإمام الرضا بسبب ذلك تعادل أداء فريضة الحج!

تقول أسفار التاريخ: إن الجيش الصفوي قتل أكثر من سبعين ألف كردي ورحل خمس عشرة ألف أسرة كردية إلى خراسان وفرض عليهم الإقامة في منطقة في جبهة الحرب مع أعدائه الاوزبك، حتى يكونوا أول ضحايا أي مواجهة بينه وبينهم.

وعلى النقيض من ذلك ولأغراض سياسية و اقتصادية كان يكرم المسيحيين ويحسن وفادتهم وكانوا في عهده يمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية، حتى إنه كان يسامرهم الطعام والشراب في نهار رمضان، ومنع رجال الدين الشيعة من إزعاجهم وقام بإعفائهم من دفع العديد من الضرائب.

جاء في تاريخ الدولة الصفوية في إيران د. محمد سهيل طقوش: (أضحى الشاه عباس مطلق الصلاحية فحكم حكما مطلقا وراح يبطش بكل من يخالف أوامره حتى أفراد أسرته فخشيه رجال الدولة واضطروا إلى الخضوع لأوامره ونواهيه من دون نقاش، وبفضل هذه السلطة المطلقة اتهمه المؤرخون بأنه وصل إلى درجة جعلت مواطنيه يقدسونه ويؤلهونه خوفا من بطشه وتجبنا لشره وبخاصة أنه أطلق على نفسه لقب (ظل الله).

التخلص من أفراد أسرته

كان الشاه عباس الأول قاسياً في معاملة أفراد أسرته وبخاصة أبنائه، وكانت هذه القساوة سمة العصر في القرن السادس عشر في الدولتين المغولية في الهند والعثمانية في آسيا الصغرى، وحجته في ذلك أنه كان يخشى أن يظهر مِنْ أفراد أسرته مَنْ يفرض نفسه عليه وينتزع العرش منه كما فعل هو بوالده، وكانت سياسته تلك من الشدة لدرجة أعمته عن الكوارث التي ستحل بدولته من بعده حيث لن تجد من هو كفئاً ليتولى الحكم، وهذا ما حدث فعلاً، فساهم بذلك في إضعاف الدولة ومن ثَمَّ زوالها.

عندما اعتلى الشاه عباس الأول العرش الصفوي لم يكن من الأسرة الصفوية على قيد الحياة سوى خمسة أشخاص، هم: والده الشاه محمد خدابندة وأخواه، أبو طالب وطهماسب وابنا أخيه حمزة ميرزا، إسماعيل وحيدر، فقبض عليهم وسجنهم في قلعة أَلَمُوتْ، وعندما هدَّده مرشد قولي خان بإطلاق سراحهم، نقلهم إلى قلعة ورامين وشدَّد الحراسة عليهم[٤]. وعندما عاد إلى العاصمة قزوين بعد طرد الأوزبك من هراة أمر بإحضار والده إليها ليعيش تحت رقابته، فحجبه عن العامة ومنعه من الخروج أو الاختلاط بقادة القزلباش، وكان إذا سافر اصطحبه معه. وظل الوضع على هذا الحال حتى توفي الشاه محمد خدابندة في عام (١٠٠٤هـ/١٥٩٦م)[٥].
وأمر بسمل عيون الأمراء الأربعة حتى يحول بينهم وبين تولي أحدهم الحكم،

وأعادهم إلى قلعة أَلَمُوتْ حيث بقوا فيها إلى أن توفوا[١]، وأرسل حيدر إلى بلاد العثمانيين كرهينة في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) وظل هناك حتى أصيب بالطاعون ومات في عام (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م)[٢].

وتمادى الشاه عباس الأول في قساوته حتى طالت أولاده الخمسة: محمد باقر، المعروف بصفي، وحسين وخدابندة وإسماعيل ومقلي. وقد توفي كل من حسين وإسماعيل في صغرهما، وقتل ابنه الأكبر محمد باقر في (٣ محرم ١٠٢٤هـ/ ٢ شباط ١٦١٥م)، وقد خشي أن يؤدي الدور نفسه الذي أدَّاه هو ضد أبيه وبخاصة أنه اكتسب شعبية بوصفه ولي العهد المرتقب والوريث الشرعي لأبيه[٣].

واكتسب ابنه خدابندة شعبية كبيرة، وحاز على مكانة مرموقة بين أفراد الحاشية والقزلباش الذين نظروا إليه على أنه الحاكم الموعود بعد أبيه، ما أثار والده فقتل مربيه وسمل عيني ابنه الذي انتحر بعد ذلك بشرب السم[٤].

ولم يكن مصير الابن الخامس مقلي بأفضل من مصير أخويه، فقد أمر الشاه بسمل عينيه في عام (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م) حتى يحرمه من ولاية العهد[٥].

ونتيجة للتخلص من أبنائه على هذا الشكل، واجه الشاه عباس الأول في أواخر حياته مشكلة اختيار ولي للعهد، فلم يجد إلا سام ميرزا بن محمد باقر، صفي، الذي أنقذته أمه من القتل بأن أبعدته عن مجلس الشاه وعن رجال بلاطه، وهو الذي خلفه بعد وفاته.

ـ أوقع الشاه عباس الأول بالأكراد الإيرانيين السُنَّة، ذلك أن القبائل الكردية السُنَّة، التي كانت تقطن المناطق الشمالية الغربية من أذربيجان ومنطقة كردستان، أعلنت تعاطفها مع العثمانيين عندما استولوا على أجزاء واسعة من أذربيجان، وعندما طردهم الشاه من المناطق التي سيطروا عليها، صمَّم على الانتقام من الأكراد وتشريدهم. وما حدث في عام (١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م) من ثورة قامت بها قبيلة مكري الكردية ضد الحكم الصفوي؛ أن أمر الشاه جيشه بالتحرك صوب المنطقة الثائرة والاستيلاء على القلاع التي تحصَّن بها الأكراد ومنها قلعتي بسك وماكو، والفتك بالثائرين، فنفَّذ الجيش الصفوي عمليات عسكرية ضد القلاع الثائرة، وأجرى فيها مذابح جماعية، وشرَّد الكثير من الأكراد وسبى النساء والأولاد[٢] وتمادى حين هجَّر قسراً عدداً كبيراً من الأكراد إلى مناطق أخرى، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية من كردستان إلى شرقي خراسان، واتخذ منهم حاجزاً يفصل بينه وبين الأوزبك، ويتلقون ضرباتهم الأولى، فيتخلَّص بذلك من كليهما معاً، كما فرض عليهم ضرائب باهظة، ووضعهم تحت رقابة صارمة حتى لا يتيح لهم أي فرصة للخروج عليه مجدداً[٣].

- في عهده فتحت بغداد، وعندما غنهما احضر بين يديه بكر الصوباصي، والي المدينة من قبل العثمانيين، وأمر بأن يوضع في قالب ملي بالزيت والكبريت وأن يضرم فيه النار ليحترق ثم يذوب فيه أمام مرأى من أهل بغداد، ثم أمر باعتقال ابنه محمد الصوباشي وإرساله إلى خراسان وقتله هناك، بعد أن أوهمه بأنه سوف يعينه حاكما من طرفه على بغداد إذا ما ساعده في احتلالها، ولكنه لما استولى على المدينة خشي من أن يغدر به كما غدر بأبيه فأمر بقتله.

موقفه من النصارى:

عامل الشاه عباس الأول النصارى بمعاملة على النقيض من معاملة أهل السنة، فتغاضى عن نشاط المبشرين الأوروبيين الذين يفدون إلى إيران للتبشير بالدين النصراني، وقد ذكرنا أنه شكَّل جيشاً خاصاً من النصارى القاطنين في إيران والمناطق الخاضعة لها، ويتودَّد إليهم براً بهم، وعمد إلى نقل ستين ألفاً من سكان أرمينيا من ديارهم، لحمايتهم من العثمانيين الذين هاجموا أذربيجان في عام (١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م)، ووزَّعهم على ولايات إيران المختلفة، وأنزل بعضهم في ضاحية جديدة بناها خصيصاً لهم بجوار العاصمة أصفهان، عُرفت باسم جلفا وهو اسم عاصمتهم التي هُجِّروا منها في أذربيجان، وبنى لهم فيها كنيسة كبيرة حتى لا يشعروا بتغير المناخ الجديد الذي يعيشون فيه، وحصر الإقامة فيها بالنصارى فقط.

وبالغ الشاه عباس الأول في تعاطفه مع النصارى القاطنين في إيران، كما أحسن استقبال النصارى الأوروبيين الوافدين إلى قصره. ولعل هذه المعاملة الجيدة من ضمن سياسته التجارية والعسكرية من خلال:

- استقطاب عطف الدول الأوروبية النصرانية والتحالف معها ضد العدو المشترك، وهو الدولة العثمانية.

- الإفادة من خبرة النصارى في بلاده، ولا سيما الأرمن، في تنشيط الحركة التجارية وبخاصة تجارة الحرير.

وأضحت جلفا الجديدة مركزاً نصرانياً نشطاً في إيران، وقد أدَّت دوراً فاعلاً في المحافظة على الوجود النصراني فيها والتبشير بالتعاليم النصرانية، وبقي هذا المركز حتى وقت متأخر يعج بالبعثات النصرانية والتجار الأوروبيين[١]. وأصدر أوامره في عام (١٠١٧هـ/١٦٠٨م) بعدم التعرض لهم، والسماح لهم بحرية التنقل في أراضي الدولة الصفوية. وقد شجعت هذه السياسة، هؤلاء على زيارة إيران أملاً في عقد صفقات تجارية معها.

ويبدو أن الشاه عباس الأول لم يكتف بالمعاملة الجيدة مع النصارى، وحرص على مشاركتهم في احتفالاتهم الدينية. ففي عام (١٠١٨هـ/١٦٠٩م) أحضر من بلد الكرج عدداً من الخنازير ليقدمها هدية لنصارى جلفا في عيدهم، ثم زارهم ليهنئهم بالعيد، وشاركهم في احتساء الخمر، وأمر جميع مرافقيه بالمشاركة في ذلك على الرغم من وقوع ذلك العيد في الخامس عشر من رمضان، غير عابئ بحرمته[٢].

وحاول النصارى من جانبهم الإفادة من هذا التقارب، فعمَّقوا صلاتهم بالشاه، وطلبوا منه السماح لهم بالتبشير بالديانة النصرانية في إيران، وبناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية، فوافق على طلبهم، وأمر ببناء كنيسة في جلفا على نفقته الخاصة.

- على الرغم من الأعمال المجيدة التي اقترنت باسمه فقد ارتكب الشاه عباس الأول أخطاء فادحة دفعت الصفويين في النهاية إلى هاوية الضعف من ذلك:

- اعتمد على نفسه فقط، وبدلا من أن يحيط نفسه بأولاده و أفراد أسرته ويعينهم في المناصب الإدارية ويدربهم على فن الحكم ويشركهم معه في حروبه فقد أقدم على قتلهم أو حرمانهم من نعمة البصر أو سجنهم بسبب الخوف من منافستهم له على الحكم فلم يمنحهم الفرصة لكي يتمتعوا بمباهج السلطنة وتركهم يقاسون الشدة والمشقة والحرمان، فعد مسئولا عن سبب مهم من أسباب انحطاط وزوال أسرته وبالتالي الدولة الصفوية.

ـ اتصف أحياناً بالظلم والاستبداد من دون سبب مقنع إلا الرغبة في سفك الدماء حتى خشيه ندماؤه وأفراد حاشيته، وكان يبادر بقتل أبناء من يقتلهم وكذلك من يعيشون معهم وفي كنفهم حتى لا يبقى أحد قد يثأر منه في المستقبل، كما فعل عندما قتل مرشد قولي خان. ومن مظاهر قسوته أيضاً إصداره الأوامر للآباء بقتل أولادهم وبالعكس، وما فعله مع الأكراد دليل واضح على قسوته وجبروته حيث نكَّل بهم في كردستان ثم هجَّرهم إلى خراسان.

الشاه صفي الصفوي (١٥٧١ـ ١٦٤٢).

تولى الحكم بعد وفاة جده عباس الأول، ودام حكمه ثلاثة عشر عاما (١٦٢٩-١٦٤٢)، وقد عرف بضعف إدارته وميله للهو وعدم الاهتمام بشئون البلاد، وقد اقتدى بجده الشاه عباس الأول، فكان قاسي القلب جبارا، سافكا لدماء أقرب مقربيه، فبعد أن أمسك بالسلطة انهال بالسيف على أهل بيته ورجال دولته، فكانت السنة تنقضي تلو الأخرى من سنين ولايته ويطفئ معها أبصار عدد من أسرته أو قادة دولته أو رعيته، وتساوى في ذلك الصغاروالكبار، والراشدين والرضع، والرجال والنساء.

من ذلك في عامه الأول قتل عمه بحجة أن بعض الأمراء كانوا يخططون لتنصيبه مكانه، وفي عام ١٦٣٠ قتل قائد جيوشه بتهمة التقصير في حرب العثمانيين، وفي ١٦٣٤ قتل الوزير الأول، وأمر بقتل حاكم إقليم فارس وجميع أفراد أسرته.

في عام ١٦٤٢ مات جراء إسر افه في الشراب.

مراد الرابع (١٦١٢ـ ١٦٤٠).

السلطان الثامن عشر في الدولة العثمانية، حكم ما بين (١٦٢٣ - ١٦٤٠) في بداية أمره تولت والدته شئون الحكم لمدة تسع سنوات، ولما توفيت أصبح مطلق اليدين في إدارة الدولة، حقق إنجازات تقليدية كإعادة الأمن والقضاء على المعارضين، ويقال: إن عدد ضحايا تحقيق هذين الغرضين بلغ أكثر من عشرين ألف ضحية، بينهم الكثير من الأبرياء التي أزهقت أرواحهم ظلما، ويقال: إنه كان مهووسا بالقتل حتى نهاية عمره فكان يصدر أوامرعشوائية بالقتل لأتفه الأسباب و أبسطها.

طبق عادة دموية مجازة من قبل بعض فقهاء الدولة العثمانية، تجيز للسلطان قتل إخوته الذكور حتى لا ينافسوه على العرش، صدرت في عهد بايزيد الأول، وقد عمل بها مراد الرابع على غرار من سبقوه على العرش، فقتل شقيقه وولي عهده بايزيد، وقتل أخاه سليمان، ثم أمر بقتل أخيه الثالث قاسم، ولم يتبق من إخوته الذكور سوى شقيقه إبراهيم الذي أصبح وليا للعهد.

إلا أن الحماقة ركبته وعزم على قتله هو أيضا على الرغم من موت كافة أبنائه وهم صغار، ولولا تدخل نساء القصر ورجال الدولة لكان قتله و انقرضت به سلالة آل عثمان.

ومما يرويه التاريخ عن سيرته أنه أصدر مرسوما بتحريم تعاطي الخمر والتبغ والقهوة، وعقوبة المخالفين الإعدام! وكان يجوب شوارع اسطنبول ليلا متنكرا ليتأكد من تطبيق مرسومه، وإذا ما وجد أحدا متعاطيا للتبغ أو شاربا للخمر أو القهوة يقوم بقتله على الفور باستخدام عصاه!

وأمر بإعدام قاضي ازنك بسبب شائعات حول أخذه الرشوة وسوء استغلال منصبه، ولما اعترض عليه شيخ الإسلام "أخي زاده حسين أفندي" قام بقتله.

في عام ١٦٣٦ قام عالم تركي اسمه أحمد جلبي بمحاولات طيران نجحت جميعها، ثم بدأ يعد للطيران لمسافة كبيرة من فوق أحد أبراج اسطنبول، وقد دعا السلطان مراد الرابع وكبار رجال الدولة وعامة الناس لمشاهدته، وفي اليوم المقرر قفز من أعلى البرج وطار مسافة يعتد بها حتى نزل في إحدى بساتين اسطنبول وقد استقبله السلطان مراد الرابع وكافئه بكيس من الذهب إلا أنه نفاه إلى الجزائر قائلا: لا يجوز بقاء مثل هذا الشخص هنا!

لم يعمر طويلا فقد قصب عمره ورحل عن الدنيا ولم يبلغ الثامنة والعشرين في سنة ١٦٤٠م.

الملك نقفور الثاني (٩١٢ـ ٩٦٩).

ولد عام ٩١٢، والتحق بالجيش البيزنطي وهو في سن مبكرة، وبفضل مهاراته الحربية والقيادية تدرج سريعا في المناصب العسكرية حتى أصبح ملكا على الإمبراطورية البيزنطية عام ٩٦٣، لقب بـ"الموت الشاحب للعرب" بسبب حملاته العسكرية الدموية والعدوانية ضد المدن والحواضر العربية كحلب، جاء في *البداية والنهاية* الجزء العشرين في ترجمته ما يلي: (واسمه الدمستق الذي توفي في سنة ثنتين -وقيل خمس وقيل ست- وخمسين وثلثمائة لا رحمه الله.

كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلبا، وأشدهم كفرا، و أقواهم بأسا، وأحدهم شوكة، وأكثرهم قتلا وقتالا للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه لعنه الله على كثير من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسرا، واستمرت في يده قهرا، وأضيفت إلى مملكة الروم قدرا.

وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام منهم، وفشوا البدع فيهم، وكثرة الرفض والتشيع منهم، وقهر أهل السنة بينهم، فلهذا أديل عليهم أعداء الإسلام، فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع الخوف الشديد ونكد العيش والفرار من بلاد إلى بلاد، فلا يبيتون ليلة إلا في خوف من قوارع الأعداء وطوارق الشرور المترادفة، فالله المستقان.

وقد ورد حلب في مائتي ألف مقاتل بغتة في سنة إحدى وخمسين، وجال فيها جولة.

ففر من بين يديه صاحبها سيف الدولة ففتحها اللعين عنوة، وقتل من أهلها من الرجال والنساء ما لا يعلمه إلا الله.

وخرب دار سيف الدولة التي كانت ظاهر حلب، وأخذ أموالها وحواصلها وعددها وبدد شملها، وفرق عددها، واستفحل أمر الملعون بها فإنا لله و إنا إليه راجعون.

وبالغ في الاجتهاد في قتال الإسلام وأهله، وجد في التشمير، فالحكم لله العلي الكبير.

وقد كان لعنه الله لا يدخل في بلد إلا قتل المقاتلة وبقية الرجال، وسبى النساء والأطفال، وجعل جامعها اصطبلا لخيوله، وكسر منبرها، واستنكث مأذنتها بخيله ورجله وطبوله.

ولم يزل ذلك دأبه وديدنه حتى سلط الله عليه زوجته فقتلته بجواريها في وسط مسكنه.

وأراح الله منه الإسلام وأهله، وأزاح عنهم قيام ذلك الغمام ومزق شمله، فلله النعمة والأفضال، وله الحمد على كل حال).

البداية والنهاية – جزء ٢٠ ـ سيرته في أحداث سنة أربع عشرة وثلاثمائة:

(وثب ملك الروم، وهو الدمستق -لعنه الله- إلى أهل السواحل أن يحملوا إليه الخراج وإلا قاتلهم، فأبوا عليه، فركب إليهم في أول هذه السنة، فعاث في الأرض فسادا، ودخل ملطية فقتل من أهلها كثيرا وأسر، و أقام بها ستة عشر يوما، وجاء أهلها إلى بغداد يستنجدون الخليفة عليه).

البداية والنهاية – جزء ٢٠ ـ سيرته في أحداث سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة:

(وفي ربيع الأول من هذه السنة جاء الدمستق ملك الروم إلى رأس العين في ثمانين ألفا، فدخلها ونهب ما فيها، وقتل أهلها وسبى منهم نحوا من خمسة عشر ألفا، و أقام بها ثلاثة أيام، فقصدته الأعراب من كل وجه، فقاتلوه قتالا عظيما حتى انجلى عنها).

ـ البداية والنهاية – جزء ٢٠ـ الملك نقفور في أحداث سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة:

(فيها دخل الدمستق ملك الروم -لعنه الله- إلى حلب في مائتي ألف مقاتل، وكان سبب ذلك أنه ورد عليها بغتة، فنهض إليه سيف الدولة بن حمدان بمن حضر من أصحابه، فقاتله فلم يقو به لكثرة جنوده، وقتل من أصحاب سيف الدولة خلقا كثيرا، وكان سيف الدولة قليل الصبر، ففر منهزما في نفر يسير من أصحابه، فكان أول ما استفتح به أن استحوذ على دار سيف الدولة ظاهر البلد، فأخذ منها أموالا عظيمة وحواصل، وعددا للحرب لا تحصى كثرة، ثم تدنى فحاصر السور، فقاتل أهل البلد دونه قتالا عظيما، وقتلوا خلقا كثيرا من الروم، وثلمت الروم في السور ثلمة عظيمة، فوقف

فيها الروم، فحمل المسلمون عليهم، فأزاحوهم عنها، فلما جن الليل جد المسلمون في عمارتها، فما أصبح الصباح إلا وهي كما كانت، وحفظوا السور حفظا عظيما، ثم بلغ المسلمين أن رجالة الشرط قد عاثوا في البلد ينهبون الدور، فرجع الناس إلى منازلهم يمنعونها منهم، وغلبت الروم على السور، فعلوه ودخلوا البلد يقتلون من لقوه، فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، وانتهبوا الأموال والأولاد والنساء، وخلصوا من كان بأيدي المسلمين من أسارى الروم، وكانوا ألفا وأربعمائة، فأخذوا السيوف فقاتلوا مع قومهم، وكانوا أضرى على المسلمين، وأسروا نحوا من بضعة عشر ألفا ما بين صبي وصبية، ومن النساء شيئا كثيرا، ومن الرجال ألفين، وخربوا المساجد وأحرقوها، وصبوا في جباب الزيت الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض وهلك، وكل شيء لا يقدرون على حمله أحرقوه، و أقاموا في البلد تسعة أيام يفعلون هذه المفاسد العظيمة، ثم عزم الدمستق على الانصراف خوفا من رجوع سيف الدولة، فقال له ابن أخته: أتذهب وتترك القلعة وراءك؟ فقال له: إنا قد بلغنا فوق ما كنا نؤمله، وإن بها مقاتلة ورجالا غزاة، فقال: لا بد لنا منها. فقال له: اذهب إليها. فصمد إليها ليحاصرها فرموه بحجر، فقتله في الساعة الراهنة من بين الجيش كله، فغضب الدمستق عند ذلك وأمر بإحضار من كان في أيديهم من أسارى المسلمين، وكانوا قريبا من ألفين، فضربت أعناقهم بين يديه، ثم كرّ راجعا، قبحه الله ولعنة الله عليه.

وقد دخلوا عين زربة قبل ذلك في المحرم من هذه السنة، فاستأمنهم أهلها فأمنهم الملك، وأمر بأن يدخلوا كلهم إلى المسجد، ومن بقي في منزله قتل، فصار أهلها كلهم في المسجد، ومن تأخر منهم قتل، ثم قال: لا يبقين أحد منكم اليوم إلا ذهب حيث شاء، ومن تأخر قتل، فازدحموا في خروجهم من المسجد، فمات كثير منهم، وخرجوا على وجوههم لا يدرون أين يذهبون،

فمات في الطرقات منهم خلق كثير، ثم هدم الجامع، وكسر المنبر، وقطع من حول البلد أربعين ألف نخلة، وهدم سور البلد والمنازل المشار إليها منها، و أقام بها مدة، وفتح حولها أربعة وخمسين حصنا، بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، وقتل خلقا كثيرا، وأسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان نائب منبج من جهة سيف الدولة، وكان شاعرا مطبقا، له ديوان حسن. وكان مدة مقامه بعين زربة أحدا وعشرين يوما، ثم سار إلى قيسارية فلقيه أربعة آلاف من أهل طرسوس مع نائبها ابن الزيات فقتل أكثرهم، وأدركه صوم النصارى فاشتغل به حتى فرغ منه، ثم هجم على حلب بغتة، فكان من أمره ما ذكرناه أيضا).

ومع تصاعد القلائل ضده وشيوع الكراهية نحوه اتفقت زوجته "ثيوفانو" مع عشيقها الجنرال "يوحنا تزيميسكس" على التخلص منه، واشترك معهما جمع من الناقمين عليه، وفي إحدى ليالي الشتاء القارصة دخل المكلفون باغتياله للقصر، وكان نقفور قد علم بأمر مؤامرة قتله فأمر بتفتيش القصر، إلا أن التفتيش استثنى غرفة زوجته، وعندما كان نقفور نائما هجموا عليه وجرحوا وجهه وجروه جرا إلى الجنرال تزيميسكس الذي صاح به قائلا: قل لي، أيها الطاغية الشرير، عديم الإحساس، ألم تكن أعمالي هي التي مكنتك من بلوغ ذرى السلطة الرومانية؟ كيف إذن لم تعر انتباهاً لتلك الخدمات الجليلة؟ كيف، وقد أعماك الشر والجنون، تجرؤ على إقالتي، و أنا عونك، من قيادة الجيش؟

ثم قطع رأسه وطيف به في الشوارع على رمح بينما رمي جسده من النافذة ودفن في كنيسة رسل المقدسين، وكتب على قبره عبارة منقوشة له يقول فيها: لقد هزمت الجميع إلا امرأة.

إسكندر الثاني.... بابا المجزرة.

بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في إسبانيا، من ١٠٦١ حتى وفاته ١٠٧٣، يعتبر مبتدع عقيدة صكوك الغفران في الحرب، وقد أصبحت هذه العقيدة دافعا لبث الحماسة والاستبسال في القتال لدى الجيوش الأوربية، خاصة في الحروب الصليبية وحروب الأندلس.

وكان من أخطر ما نتج عنها "مجزرة بربشتر" في الأندلس عام ١٠٦٤، وبربشتر مدينة أندلسية على الحدود ما بين الأندلس والممالك المسيحية، وقد جرت أحداثها الدامية في عصر ملوك الطوائف الثاني، وكان البابا إسكندر الثاني الشخصية الروحية المسيحية الرئيسية التي حث المسيحيين على قتال المسلمين وتدمير مدنهم، وتخليص إخوانهم المسيحيين، الذين يعيشون في ظل حكمهم.

في هذه الأثناء كانت بربشتر تابعة لدولة سرقسطه، ويحكمها بنو هود، ولما مات ملكها سليمان بن هود، تنازع الملك خمسة من أبنائه، فانقسمت المملكة بينهم، وكانت مدينة بربشتر من نصيب يوسف بن سليمان الملقب بالمظفر بالله.

وبرعاية وبركات البابا إسكندر الثاني نشأ جيش مسيحي من فرنسا و إيطاليا، قوامه أربعون ألف مقاتل، بقيادة الفارس "جيوم دي مونري" قائد الجيوش البابوية، واتجهوا محفوفين بصلواته ودعواته وحاصلين على صكوك غفرانه إلى سرقسطة الأندلسية، وكانت بربشتر على الطريق إليها، فحاصروها، طلب المظفر بالله المدد من إخوته، خاصة شقيقه الأكبر المقتدر بالله، إلا أنه رفض مساعدته، ثم أرسل المظفر لكل الدويلات يستغيثها ويطلب العون، فرفضت جميعها مساعدته، واشتد الحصار عليه، وبعد أربعين يوما، تمكن الجيش المسيحي من احتلال مورد الماء الرئيسي الذي يغذي المدينة،

فانقطع الماء واشتد العطش بالجيش المدافع والأهالي، واندلع بين بعضهم قتالا عليه، ولما انقطع الأمل في النصر، عرض ممثلين عن المدينة تسليمها مقابل الأمان لأهلها، إلا أن المسيحيين رفضوا واقتحموا المدينة بالقوة، وعلى رواية أخرى أنهم منحوهم الأمان ثم غدروا بهم، في نهاية الأمر تمكنوا من احتلال بربشتر واستباحوا دماء أهلها، فقتلوا أربعين ألف نسمة، وفي بعض الأخبار مائة ألف، وسبوا وغنموا واغتصبوا النساء والفتيات، فكانوا يغتصبون النساء أمام أزواجهن، والفتيات أمام آبائهن، وأمام العطش الرهيب الذي حل بالأهالي فقد تسبب التدافع المهول على الماء إلى موت الآلاف.

وبعد أن سبوا الآلاف الفتيات والجواري والصبيان، اختاروا خمسة آلاف فتاة وقدموهن هدية لملك القسطنطينية، كما أهدى بابا روما إسكندر الثاني، مؤلب الحرب ومدبر أمرها، المئات من الفتيات والمماليك، ثم تركوا فيها حامية لهم وعادوا إلى بلادهم. (تمكن المسلمون بعد عدة فترة ليست بالطويلة من استرجاع مدينة بربشتروطرد الحامية المسيحية منها).

جاء في "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لأبي الحسن علي بن بسَّام التغلبي الشنتريني ١٠٦٧(-١١٤٧م):

(تقدم جيش النورمان من سرقسطة ونازلها وحاصرها، وقصر يوسف ابن سليمان بن هود في حاميتها، ووكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوما، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتصل ذلك بالعدو، فشدد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع، فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة؟، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي.

ويئس أهل المدينة من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر بهم، وقتل الجميع، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه -وهو قائد خيل روما- نحو ألف وخمسمائة جارية أبكار. ومن أوقار الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل. وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس).

ويضيف: (كان السبب في قتلهم أن العدو خاف من يصل لنجدتهم، وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل حتى قتل منهم نيفا وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين من بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، وكان من أهل المدينة جماعة قد عادوا برؤوس الجبال، وتحصنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم، وبرزوا فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة، فقتلوهم. وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أعطاهن خوله -أتباعه- وغلمانه يعيثون فيهن عيثه، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة).

الرحلة الثالثة:

سياحة في سيرة بعض طغاة الشرق العربي والإسلامي.

جاء الإسلام كدين سماوي كريم يدعو للخير والعدل والمحبة وسائر القيم الإنسانية، وأصبح دين أغلبية العرب بالتزامن مع نشوء الدولة التي شيدها النبي محمد (ﷺ) في المدينة المنورة عام ٦٢٢ م، وكان أحد أعمدتها الركينة، وبالدولة العربية الإسلامية بقيادة محمد النبي (ﷺ) جمعت القبائل العربية في دولة واحدة وخضعت لحكومتها في يثرب، وانتهت بذلك السلطة القبلية الزمنية بما كان لها من سيطرة على الأرض وبما كانت تشرع من قوانين تجيز السلب والنهب والغزو اللا شرعي.

وقد أحدث الإسلام كدين والدولة كمؤسسة قفزة هائلة في المجتمع العربي وأعاد تدوير كافة قيمه وأخلاقياته ونظمه وأعرافه، وإنتاج قوة اجتماعية وعسكرية وروحية ووجودية عربية قوية وطموحة، مما جعل الدولة العربية الإسلامية في مدة قصيرة تتمكن من ضم العراق والشام ومصر، وكانت هذه البلدان تحت حكم أعتى القوى في ذلك العصر، الدولة الفارسية في الشرق، والدولة البيزنطية في الغرب.

لقد كان الإسلام كأي دين سماوي أو أرضي آخر يدعو إلى الفضيلة وإلى حكم العدل والحق وينبذ الظلم والجبروت والطغيان، ومنذ وفاة مؤسس الدين والدولة اختلف بعض المسلمين حول النظام السياسي الذي يجب أن يسود بينهم، وكانت النتيجة ابتعاد المسلمين شيئا فشيئا عن مبادئ الحكم الرشيد واتجه نظامهم السياسي نحو الطغيان والاستبداد، على غرار معظم الحكومات السائدة في عصور ما قبل الديمقراطية.

اختلف العرب المسلمين على الحكم وتصارعوا على السلطة، وانعكس ذلك على دينهم الذي انقسم إلى مئات الطوائف والمذاهب، التي حملت تصورات متباينة حول نظام الحكم المتوافق مع الإرادة الإلهية والسنة النبوية، فالشيعة قالوا بأن الحكم بعد النبي لفرع من قريش وهم آل علي،

ولو أن المسلمين اتبعوا الوصية لما آل واقعهم السياسي إلى تحكم الطغاة والجبابرة والمستبدين طوال أكثر من ألف عام، إلا أن هذا الرأي لا صحة عليه ولا دليل، فلو أسلمنا بصحته وتم العمل به، وآل الحكم بعد وفاة النبي للإمام علي، ومن بعده لأبنائه الأئمة المهديين، ابتداء بالإمام الحسن وانتهاء بالإمام المهدي بن الحسن العسكري، فإن السؤال المطروح هنا: ماذا سيحدث بعد انتهاء فترة حكمهم؟ ومن سيستلم زمام الأمور بعدهم؟ هل نسلهم من آل البيت؟ أو الفقهاء ورجال الدين من أتباعهم؟ وهل وجودهم في حكم الدولة التي أسسها النبي (ﷺ) ستضمن عدم ظهور قوى سياسية ومذهبية واتجاهات عقائدية تخالف إسلام أهل البيت؟

إن سنة الحياة البشرية تقضي ظهور قوى ومذاهب سياسية ومذهبية متنافسة، ومخالفين ومعارضين في مختلف الاتجاهات الفكرية والفلسفية والدينية والعقائدية والتشريعية، بل وفي النظريات والآراء العلمية، هذه هي سنة الحياة البشرية منذ وجدت، ولن يمنع وجود خلفاء بالحق للنبي من ظهورهم، ولن يكون وجودهم في سدة الحكم سببا في مرور الدولة التي أسسها النبي محمد (ﷺ) بكافة الأدوار الطبيعية التي تمر بها الأمم والشعوب من قوة وضعف واضمحلال، ولن تكون فترة حكمهم سببا في عدم الهجوم المدمر للتتار والصليبيين على البلاد العربية والإسلامية.

من ناحية أخرى فإن ما يقول به بعض فقهاء السنة من طاعة الحكام ولو كانوا ظالمين، بهدف المحافظة على كيان المسلمين السياسي والاجتماعي غير مقبول وفاسد دينيا وتاريخيا، وقد ظهرت عشرات الدعوات وخرج مئات الخارجين على سلطة الخلفاء وحكام الدول والممالك العربية والإسلامية لأسباب ودعاوى مختلفة بسبب ظلمهم وجورهم على رعيتهم.

كان الحكم بعد النبي (ﷺ) لقريش، ويعتقد السنة أن القيادة في دولة محمد النبي (ﷺ) لقريش عامة لا لفرع مخصوص فيها، وقد كان في عهد الراشدين كذلك، وقد كان حكمهم الذي استمر ثلاثين عاما رشيدا وعادلا، خاصة في عهد أبي بكر وعمر، إلا أنه في عهد عثمان مال إلى الفساد، مما أدى إلى مقتله، وفي عهد علي كان وضع الدولة مضطربا، حيث خاض علي العديد من الحروب ضد معارضيه، لا سيما من معاوية بن أبي سفيان، والي الشام الذي رفض الاعتراف بخلافته واستقل بالشام، وقد حاربه علي في وقعتي صفين والنهروان ولم ينجح في استعادة الإقليم، وانتهت حرب علي ومعاوية بإبقاء الشام إقليما مستقلا عن سلطة الخلافة تحت سيادة الأمويين بزعامة معاوية بن أبي سفيان، والأمويون فرع من فروع قريش، وبعد استشهاد علي آل الحكم إلى معاوية، الذي وضع الدولة كلها تحت سلطة الأسرة الأموية، مستعينا بالإجماع على كون الخلافة في قريش حصرا، وقول العديد من المسلمين بأنها في قريش عامة لا في سلالة النبي على وجه الخصوص، وبدأ بذلك تحول الدولة العربية الإسلامية إلى الملكية منذ تولاها معاوية بن أبي سفيان، وفي الحقيقة فإن كون الملك وراثيا كان أمرا محسوما، باعتباره النظام السائد بصورة شبه مطلقة في تلك العصور، وقريش قبيلة النبي، والحكم في دولته من بعده من حقها دون شك أو ريب، إلا أن الاختلاف بين المسلمين هو في أي فرع منها تكون الخلافة؟

فالشيعة قالوا بأنها في آل علي حصر، أما بقية المسلمين فيقولون بأنها (أي الخلافة) تجوز في أي فرع من قريش.

في نهاية الأمر، ونتيجة لعوامل وأسباب متداخلة ومتشعبة دخل المسلمون في مسلسل الطغيان والاستبداد مرة أخرى، بعد أن خرجوا منه أثناء العهدين النبوي والراشدي، والسبب من وجهة نظري يعود إلى

افتقادهم منذ البداية –على غرار غيرهم من النحل- إلى النظام السياسي الذي يقوم على مبادئ الحكم الرشيد المتعارف عليها في تلك العصور والتي صاغتها سيرة النبي (ﷺ) ومن سبقه من الأنبياء والمصلحين، علاوة على ما كان منهم من تشتت وتضارب في تفسير أحكام ومبادئ الإسلام، و افتقاد كل من النظامين السياسي والديني إلى وجود بيئة نمو طبيعية، من خلالها ينهض المجتمع العربي الإسلامي ويكتسب الخبرات وتصقله التجارب التي بها ينهض ويتمكن من تطوير نظمه السياسية والدينية، من ناحية أخرى لا ينكر أن الإسلام يدعو إلى الحكم الرشيد بشكل عام، وذلك من خلال نصوصه وسيرة نبيه وأهل بيته وصحابته، ولكنه لم يوضح شكله وكيفيته، بل تركه عاما عائما، ولم يتمكن المسلمون من ابتكار نظام حكم رشيد يلتفون حوله إلا في العهدين النبوي والراشدي.

لقد كانت الملكية المطلقة نظاما سائدا في العالم، وقد انجر إليه العرب المسلمون بعد خمسين عاما من تأسيس دولتهم، ويمكن القول: إن محمدا النبي (ﷺ) جاء بدين ولم يأت بدولة ذات شكل محدد وواضح المعالم يمكن الركون له والاطمئنان به، وهذا ما وقع فيه الإسلاميون من لبس، حيث يتصورون بأن محمدا (ﷺ) جاء بدولة ودين، إلا أنه على غرار المسيح جاء بدين ولم يأت بدولة، و إنما تأسست دولته كتحصيل حاصل، وكمستلزمة من مستلزمات توفير البيئة الضرورية اللازمة لنشر الدين بين الشعوب والأمم والأقوام، نعم احتوت نصوص الإسلام الدامغة الصريحة على وجوب العدل في الحكام والولاة، إلا أن ذلك لا يعني أنه وضع نظاما سياسيا خاصا بالمسلمين، وهذا ما اكتشفه الأوربيون بعد ألف عام، عندما فصلوا ما بين النظامين الديني والسياسي، ووضعوا نظاما سياسيا مستقلا عن الدين والأنماط الروحية، وتمكنوا بذلك من التخلص من الطغيان المركب الذي يعانون منه بسبب

تحالف كلا النظامين، حيث كان الملوك متحالفين مع رجال الدين من أجل إحكام سلطتهم على الشعوب الأوربية، وهذا ما كان من شأن المسلمين أيضا، فالنظام السياسي العربي لم يكن قائما على أي شرعية غير الشرعية الدينية، فامتزج الدين بالسياسة، وسخر الدين لخدمة أغراض سياسية، وسخرت السياسة لخدمة أغراض دينية،، فتسلط الحكام ورجال دينهم على الأمة والمجتمع وبرروا كافة أشكال الطغيان والجبروت الذي يمارسونه في المجتمع، مما أدى إلى رسوخها وتجدرها منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا.

نعم كانت مستويات الطغيان متفاوتة ونسبية، فقد ظهر حكام مستقيمون وورعون، سواء في العالم العربي أم الأوربي، إلا أن الطغيان كنظام وثقافة وممارسة احتل جزءا كبيرا جدا من فترات التاريخ العربي والأوربي، الشرقي والغربي، لقد تجسد الطغيان بمستوياته المختلفة وأصبح ممارسات راسخة في المجتمع، من ناحية أخرى كان الطغيان مستويات، فلم يكن كل الحكام طغاة وجبابرة بل كان بعضهم صالحا كأبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز إلا أنهم كانوا يمارسون سلطتهم في ظل نظام سياسي منحهم مطلق الصلاحيات ولم يردعهم عن ممارسة الظلم والاستبداد سوى إيمانهم، وبما أن النفس البشرية تميل للبغي إن لم يكن لها رادع يردعها، فقد مال معظم الحكام للبغي بمستوياته المتدرجة، ابتداء من الاستبداد السلبي و انتهاء بالطغيان، فكان بعض الحكام طغاة جبابرة لم تر منهم الأمة خيرا، وبعضهم كان طاغيا في غير الصراعات السياسية، كالخليفة المأمون الذي أرهق الأمة وقتل بعض رجال دينها بسبب معارضتهم له في عقيدة خلق القران، في نهاية الأمر كان الطغيان بمستوياته صفة عامة ومنظومة راسخة في عموم الدول والممالك والمجتمعات في تلك العصور، سواء في المسلمين أم غيرهم،

حتى تمكن الفكر الإنساني من إيجاد نظام سياسي راسخ يحقق أمله في الحرية ألا وهو الديمقراطية.

يقول الأستاذ حسن الغريب في كتابه *الردة في الاسلام*: (أصبح من الواضح أن العلاقات بين رجال السلطة كانت مشوبة بالحذر والشك، فلا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة، لم تكن تربطهم أية مواثيق دينية أو أخلاقية، فالسلطة كانت أساسا لا غنى عنها في سبيل امتلاك الثروة، ومواطن الثروة كانت في إيرادات الأمصار، وأمن الأمصار كان أمنا للثروة وتأمينا عليها، كانت الشعوب العاملة في الأمصار قاعدة لإنتاج الثروة، لذا كان التسابق يتم على قدم وساق في سبيل المحافظة على أمن السلطة، بدءا بالخلافة وانتهاء بإمرة الجيوش والحظوة بإمرة مصر من الأمصار، مرورا بالتسابق على كرسي الوزارة أو رئاسة الدواوين، وكان السيف والقوة أداة السلطة وأمانا لاستمرارها، فمن خضع طائعا لأولي الأمر كانت حياته في مأمن، ومن لم يخضع فكان السيف خير المؤدبين، وقلما كان السيف يستريح في غمد.

فإذا ما قمنا بفتح كتب التراث لشعرنا بأنفسنا تنقطع ونحن ننتظر السنة التي لا نقرا فيها عن حدوث فتنة أو أكثر، فتنة تذهب ضحاياها بالآلاف، فتنقطع الأنفاس ولا تجد محطة تستريح فيها من متابعة أخبار الفتن والقتل والسبي وقطع الأيدي والأرجل والرؤوس، فلا يهنأ بال الخليفة أو وزير أو عامل على مصر من الأمصار إذا لم يتوج انتصاراته بالرؤوس المقطوعة والأرجل المبتورة والبطون المبقورة...

اقتتل الأخ مع أخيه، والعم مع ابن الأخ،وابن العم مع ابن عمه.

اقتتل الخليفة مع وزرائه وتآمر الوزراء على الوزراء.

اقتتل الخليفة مع عماله على الأمصار، و اقتتل العمال مع العمال.

اقتتل الخليفة مع الثائرين على ظلمه، و اقتتل الثوار مع الثوار.

نهب الخليفة جميع الموارد ووزعها على قصوره وأهله وحاشيته.

ونهب الوزراء الواسطة بين الناهب والمنهوب و اتخموا.

نهب العمال على الأمصار أداة القمع المباشر وتربعوا على عروش من الجماجم المجبولة بالدم والعرق.

ضاعت الخلافة وأصبحت الغاية امتلاك السلطة بأي غطاء أو أي ستار في سبيل امتلاك المال، وأصبحت الخلافة التي أرادها المسلمون أداة لفرض الشريعة السماوية في سبيل خير البشر عبئا على الشريعة وعلى البشر معا).

في التالي أبرز طغاة الأمة العربية التي سفكوا الدماء وقتلوا على الظن، وأوغلوا في الدماء، نستعرضهم في الصفحات التالية.

عبيد الله بن زياد (٣٣ هـ - ٦٧ هـ).

ابن زياد ابن أبيه، تولى ولاية العراقيين، البصرة عام ٥٥ هـ في عهد معاوية، والكوفة عام ٦٠ هـ في عهد يزيد بن معاوية، وكان طاغيا شريرا عديم الرحمة، قتل على يديه خلق كثيرون، أشرفهم وأرفعهم الحسين بن علي وأصحابه و أنصاره في كربلاء يوم عاشوراء عام ٦١ هـ ، قتل بعد ستة أعوام من مصرع الحسين في معركة الخازر على يد إبراهيم بن الأشتر النخعي.

من سير طغيانه وسفكه للدماء ما يلي:

- ما كان بينه وبين مسلم بن عقيل قبل مقتله:

(ثم أدخل مسلم بن عقيل على ابن زياد بعد أن امسك به الجند، فلما وقف بين يديه لم يسلم عليه، فقال له الحرسي: ألا تسلم على الأمير؟! فقال: لا! إن كان يريد قتلي فلا حاجة لي بالسلام عليه، وإن لم يرد قتلي فسأسلم عليه كثيرا. فأقبل ابن زياد عليه فقال: إيه يا ابن عقيل، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على قتل بعض؟.. قال: كلا لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب.

قال: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لم لا كنت تعمل بذلك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟

فقال: أنا أشرب الخمر؟! والله إن الله ليعلم أنك غير صادق، و أنك قلت بغير علم، و أنت أحق بذلك مني، فإني لست كما ذكرت، وإن أولى بها مني من يلغ في دماء المسلمين ولغا، ويقتل النفس التي حرم الله بغير نفس، ويقتل على الغضب والظن، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا.

فقال له ابن زياد: يا فاسق إن نفسك تمنيك ما حال الله دونك ودونه، ولم يرك أهله. قال: فمن أهله يا بن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد.

قال: الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم.

قال: كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئا؟

قال: لا والله ما هو بالظن ولكنه اليقين.

قال له: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام من الناس.

قال: أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السيرة المكتسبة عن كتابكم وجهالكم.

و أقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينا وعليا، ومسلم ساكت لا يكلمه

ثم قال له ابن زياد: إني قاتلك.

قال: كذلك؟

قال: نعم.

ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل فأصعد إلى أعلا القصر وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران، ثم ألقي رأسه إلى أسفل القصر، و أتبع رأسه بجسده.

ثم أمر بهانئ بن عروة المذحجي فضربت عنقه، وصلب بمكان من الكوفة يقال له الكناسة، ثم إن ابن زياد قتل معهما أناسا آخرين، ثم بعث برؤوسهما إلى يزيد بن معاوية إلى الشام، وكتب له كتابا صورة ما وقع من أمرهما.

- ولما قتل عبيد الله بن زياد مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة دعا بعبد الأعلى الكلبي وكان قد قبض عليه وهو يريد أن يمضي إلى مسلم بن عقيل لينصره، فقال له: أخبرني بأمرك فقال: أصلحك الله إنما خرجت لأنظر ما يصنع الناس. فاستحلفه يمينا أنه صادق في قوله فأبى أن يحلف فأمر به فضربت عنقه، وكان عمارة بن صلخب الأزدي استعد لنصرة مسلم بن عقيل فلما قتل أحضره عبيد الله بن زياد قال له: ممن أنت؟ قال: من الأزد؟ قال: انطلقوا به إلى قومه، فضربت عنقه فيهم. (الطبري ٥/ ٣٧٠ و ٣٧٩).

- أقبل قيس بن مسهر الصيداوي بكتاب الحسين إلى الكوفة، حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى عبيد الله بن زياد فقال له ابن زياد: اصعد إلى أعلا القصر فسب الكذاب ابن الكذاب علي بن أبي طالب و ابنه الحسين، فصعد فحمد الله و أثنى عليه

ثم قال: أيها الناس! إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ و أنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر من بطن ذي الرمة، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا.

ثم لعن عبيد الله بن زياد و أباه، واستغفر لعلي والحسين.

فأمر به ابن زياد فألقي من رأس القصر فتقطع، ويقال: بل تكسرت عظامه وبقي فيه بقية رمق، فقام إليه عبد الملك بن عمير البجلي فذبحه، وقال: إنما أردت إراحته من الألم.

- أمر ابن زياد فنودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، فقال: ويحك يا ابن زياد تقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب.

- وولي بعد زياد ولده عبيد الله فكان مثلاً لوالده في القسوة والفسولة والبغي، فقد أخذ عبيد الله بن زياد عروة بن أدية، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم أمر أن يصلب على باب داره فصلب، ثم قطع رأسه وبعث به إلى ابنته فجاءت الابنة وجثة أبيها مطروحة بين يدي ابن زياد، لتأخذها فتدفنها، فقال لها ابن زياد: أنت على دينه؟ فقالت: كيف لا أكون على دينه وما رأيت قط خيرا منه، فأمر بها فقتلت مع أبيها. (انساب الإشراف ٤/٢/).

- وكان عبيد الله بن زياد، يتلذذ بتعذيب النساء وقطع إطرافهن بمحضر منه وقد جيء إليه بامرأة فقطع رجلها، وقال لها: كيف ترين؟ فقالت: إن الفكر في هول المطلع لشغل عن حديدتكم هذه، ثم أمر، فقطعت رجلها الأخرى وجذبت، فوضعت يدها على فرجها، فقال: لتسترينه، فقالت له: لكن سمية أمك لم تكن تستره. (بلاغات النساء).

- وقتل عبيد الله بن زياد، الدلجاء من بني حرام بن يربوع، وكانت من مجتهدات الخوارج، فلما طلبها يقتلها، قيل لها: إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية فاستتري فأبت، فوجه إليها عبيد الله فاحضرها وقطع يديها ورجليها وطرحها في وسط السوق. (إعلام النساء).

- قتل الحسين بن علي بأمر من عبيد الله بن زياد، قال شريك، عن مغيرة قال: قالت مرجانة لابنها عبيد الله: يا خبيث، قتلت ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا ترى الجنة أبدا. (البداية والنهاية ج١٢).

وقد ارتكب جيشه فظائع مروعة ضد الحسين وأهل بيته وأنصاره وكانوا جمعا قليلا لا يقدم ولا يؤخر، وقد رفض ابن زياد إلا أن يأتيه الحسين صاغرا ذليلا أو يقتله بجيشه، يقول ابن كثير في بدايته ونهايته (ج١٢): (من جراءته إقدامه على الأمر بإحضار الحسين إلى بين يديه وإن قتل دون ذلك.

وكان الواجب عليه أن يجيبه إلى سؤاله الذي سأله فيما طلب من ذهابه إلى يزيد، أو إلى مكة، أو إلى أحد الثغور، فلما أشار عليه شمر بن ذي الجوشن بأن الحزم أن يحضر عندك و أنت تسيره بعد ذلك إلى حيث شئت من هذه الخصال أو غيرها، فو افق شمرا على ما أشار به من إحضاره بين يديه، فأبى الحسين أن يحضر عنده ليقضي فيه بما يراه ابن مرجانة، وقد تعس وخاب وخسر، فليس لابن بنت رسول الله (ﷺ) أن يحضر بين يدي ابن مرجانة الخبيث).

وقد منع الجيش الأموي الماء عن الحسين و أنصاره، يقول ابن مخنف: (حدثني سليمان بن أبي راشد عن حميد بن مسلم الازدى قال: جاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد: أما بعد فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان. قال: فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. قال: ونازله عبد الله بن أبي حصين الأزدي وعداده في بجيلة فقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا.

فقال الحسين: اللهم اقتله عطشا ولا تغفر له أبدا.

و أقدم الجيش الأموي على قتل أطفال الحسين، يقول القزويني في فاجعة ألطف: (وبرز غلام من أخبية الحسين، وفي أذنيه درّتان وهو مذعور فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، وقرطاه يتذبذبان فحمل عليه هاني ابن ثبيت الحضرمي فضربه بالسيف فقتله، فصارت أمه تنظر إليه ولا تتكلّم كالمدهوشة).

يقول القزويني: (فنادى الحسين: يا قوم قتلتم أنصاري وأولادي، وما بقي غير هذا الطفل، إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل (يعني عبد الله ابنه من زوجه ليلى وكان له من العمر ستة أشهر) لقد جفّ اللبن في صدر أمّه.

فرماه حرملة بسهم فوقع في نحره فذبحه من الوريد إلى الوريد. ثم عاد بالطفل مذبوحاً وحفر له بجفن سيفه ودفنه.

وولد للحسين ابن وقت الظهر، فأتي به إلى الحسين وهو قاعد بباب الخيمة فأخذه في حجره فأذن في أذنه اليمنى و أقام في اليسرى، فرماه لعين فذبحه في حجر الحسين.

فخرج عبد الله بن الحسن وهو غلامٌ لم يراهق من عند النساء، فشدّ حتى وقف إلى جنب عمّه الحسين، فلحقته زينب بنت علي لتحبسه. فقال لها الحسين: احبسيه يا أختي. فأبى وامتنع عليها امتناعاً شديداً وقال: والله لا أفارق عمي. وأهوى أبحر بن كعب إلى الحسين بالسيف فقال له الغلام: ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمّي. فضربه أبحر بالسيف فاتقاه الغلام بيده وأظنها إلى الجلد فإذا هي معلّقة. ونادى الغلام: يا عمّاه يا أبتاه فأخذه الحسين فضمّه إليه وقال: يا ابن أخي صبراً على ما نزل بك واحتسب في ذلك الأجر فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين. فرماه حرملة بسهم فذبحه في حجر عمّه الحسين).

وبعد مقتل الحسين (عليه السلام) داست الخيول جثمانه وسلب رداؤه ورضت أضلاعه وسبيت نسائه، يقول ابن مخنف:

(فاخذ سراويله بحر ابن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وكانت من خز، وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل بن دارم فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل.. ومال الناس على

الورس والحلل وانتهبوها... ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها).

قال أبو مخنف: (حدثني سليمان بن أبي راشد عن حميد بن مسلم قال: انتهيت إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر وهو منبسط على فراش له وهو مريض وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجالة معه يقولون: ألا نقتل هذا؟ قال: فقلت: سبحان الله أنقتل الصبيان؟ إنما هذا صبي. قال: فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كل من جاء حتى جاء عمر بن سعد فقال: ألا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئا فليرده عنهم، قال: فوالله ما رد أحد شيئا.

ثم أن عمر بن سعد نادى في أصحابه من ينتدب للحسين ويوطئه بفرسه؟ فانتدب عشرة منهم.. فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره.

ثم أخرج النساء من الخيمة وأشعلوا فيها النار فخرجن حواسر مسلبات حافيات باكيات يمشين سبايا في أسر وذلة).

عن ابن طاووس: قال الصادق (ع) وجد في الحسين (ع) ثلاثة وثلاثين طعنة وأربعة وثلاثون ضربة،وأخذ سراويله بحر بن كعب التميمي وأخذ خاتمه جدل بن سليم الكلبي وقطع أصبعه (ع) مع الخاتم.

مسلم بن عقبة.

في السنة الأولى لحكم الخليفة الأموي يزيد بن معاوية كانت و اقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي، وفي السنة الثانية كانت وقعة الحرة التي استبيحت فيها مدينة النبي (ﷺ) وعاصمة دولته ثلاثة أيام، وقيل افتضت فيها ألف عذراء من بنات المهاجرين والأنصار، وقتل من اللائذين بحرم النبي (عليه الصلاة والسلام) أكثر من عشرة آلاف رجل، وقتل من النساء والصبيان الكثير، وكان الجندي يأخذ الطفل الرضيع فيجذبه من أمه ويضرب به الحائط فتنتشر دماؤه على الأرض وأمه تنظر إليه.

وكان قائد الجيش الأموي في هذه الو اقعة هو مسلم بن عقبة (سيرته شحيحة في المصادر).

البداية والنهاية (ج ٩): قلت: وكان سبب وقعة الحرة أن وفدا من أهل المدينة قدموا على يزيد بن معاوية بدمشق، فأكرمهم وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم، وهو عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، قريبا من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهليهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي من أكبرها ترك الصلاة عن وقتها بسبب السكر، فاجتمعوا على خلعه، فخلعوه عند المنبر النبوي، فلما بلغه ذلك بعث إليهم سرية يقدمها رجل يقال له: مسلم بن عقبة. و إنما يسميه السلف مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غبون هذه الأيام بشرا كثيرا حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها، وزعم بعض علماء السلف أنه افتض في غبون ذلك ألف بكر. فالله أعلم.

وقال عبد الله بن وهب عن الإمام مالك: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن. حسبت أنه قال: وكان فيهم ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ. وذلك في خلافة يزيد.

البداية والنهاية (ج ٩)-: (ثم دخلت سنة ثلاث وستين، ففيها كانت وقعة الحرة: وكان سببها أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية وولوا على قريش عبد الله بن مطيع، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر.

فلما كان في أول هذه السنة أظهروا ذلك واجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه، ويلقيها عن رأسه.

ويقول الآخر: قد خلعته كما خلعت نعلي هذه، حتى اجتمع شيء كثير من العمائم والنعال هناك، ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ابن عم يزيد، وعلى إجلاء بني أمية من المدينة.

وكتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر والإهانة، والجوع والعطش، وأنه لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم، وبعثوا ذلك مع البريد.

فلما قدم بذلك على يزيد وجده جالسا على سريره ورجلاه في ماء يتبرد به مما به من النقرس في رجليه، فلما قرأ الكتاب انزعج لذلك وقال: ويلك! ما فيهم ألف رجل؟

قال: بلى.

قال: فهلا قاتلوا ساعة من نهار؟

فبعث البريد إلى مسلم بن عقبة المزني وهو شيخ كبير ضعيف فانتدب لذلك وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارس.

وقيل: اثنا عشر ألفا وخمسة عشر ألف رجل، وأعطى كل واحد منهم مائة دينار.

وقيل: أربعة دنانير، ثم استعرضهم وهو على فرس له.

فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين ولني عليهم أكفك -وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة- فقال يزيد: لا! ليس لهم إلا هذا الغشمة، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة.

فقال النعمان: يا أمير المؤمنين أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن جعفر: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم؟

قال: إن فعلوا فلا سبيل عليهم.

وقد كان يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد أن يسير إلى الزبير فيحاصره بمكة، فأبى عليه وقال: والله لا أجمعهما للفاسق أبدا، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغزو البيت الحرام؟).

ولما وصل مسلم بن عقبة المدينة كلم اهلها بأن ينزلوا على حكم يزيد، فأبوا، فحاربهم وهزمهم، ثم استحل المدينة ثلاثة أيام.

البداية والنهاية (ج ٩): (ثم أباح مسلم بن عقبة، الذي يقول فيه السلف: مسرف بن عقبة -قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله- المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، لا جزاه الله خيرا، وقتل خيرا خلقا من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالا كثيرة منها، ووقع شرٌّ عظيم وفساد عريض على ما ذكره غير واحد.

قال المدائني: وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، يقتلون من وجدوا من الناس، ويأخذون الأموال.

فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك فمر أصحابك أن لا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا.

فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلا بأخذ إبلها أولا.

وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك، و ابني في الأسارى، فقال: عجلوه لها، فضربت عنقه.

وقال: أعطوها رأسه، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك؟

ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج والله أعلم.

قال المدائني: عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غيرزوج.

وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم: جابربن عبد الله، وخرج أبو سعيد الخدري فلجأ إلى غار في جبل، فلحقه رجل من أهل الشام، قال: فلما رأيته انتضيت سيفي فقصدني.

فلما رآني صمم على قتلي، فشممت سيفي ثم قلت: «إني أريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب الناروذلك جزاء الظالمين» فلما رأى ذلك، قال: من أنت؟

قلت: أنا أبو سعيد الخدري.

قال: صاحب رسول الله ﷺ؟

قلت: نعم! فمضى وتركني.

قال المدائني: وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب فقال له: بايع!

فقال: أبايع على سيرة أبي بكروعمر.

فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله.

قال المدائني: عن شيخ من أهل المدينة.

قال: سألت الزهري: كم كان القتلى يوم الحرة؟

قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي، وممن لا أعرف من حروعبد وغيرهم عشرة آلاف.

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة و أبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد.

وقد وقع في هذه الثلاثة الأيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذً عزيز مقتدر، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

قال ابن الطقطقي في *الآداب السلطانية *: (فقيل: إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول: لعلها افتضت في وقعة الحرة).

وقال ابن تيمية في الفتاوى (ج ٣): وجرت في إمارته (أي يزيد بن معاوية) أمور عظيمة منها أن أهل المدينة النبوية نقضوا بيعته وأخرجوا نوابه وأهله، فبعث إليهم جيشاً، وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً، فصار عسكره في المدينة النبوية ثلاثا يقتلون وينهبون، ويفتضون الفروج المحرمة.

وقال الفقيه عبدالله الشبراوي الشافعي في *الإتحاف بحب الأشراف*: و افتض فيها نحو ألف بكر وحمل فيها من النساء اللاتي لا أزواج لهن نحو من ألف امرأة.

وقال القرطبي في *التذكرة*:

(وقال الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم في المرتبة الرابعة وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ وبالت وراثت بين القبر والمنبر -أدام الله تشريفها- وأكره الناس على أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق وذكر له يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن والسنة فأمر بقتله فضربت عنقه صبرا.

وذكر الأخباريون أنها خلت من أهلها وبقيت ثمارها لعوافي الطير والسباع كما قال ﷺ ثم تراجع الناس إليها وفي حال خلوها غدت الكلاب على سواري المسجد والله أعلم).

- موسوعة العذاب (ج ٦): (وفي سنة ٦٣ لما استباح مسلم بن عقبة المري مدينة الرسول بأمر يزيد بن معاوية أخذوا منه الأمان ليزيد بن عبدالله ابن زمعة بن الأسود ولمحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، ولمعقل بن سنان الأشجعي، فحضروا بالأمان، بعد الواقعة بيوم، فقال لهم: بايعوا ليزيد، فقال القرشيان: نبايع على كتاب الله وسنة رسوله، فضرب أعناقهما، فقال له مروان بن الحكم: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأماني؟ فطعنه بخاصرته بالقضيب، وقال: وأنت والله لو قلت بمقالتهما لقتلتك. ثم التفت إلى معقل بن سنان فطلب معقلا شرابا يشربه، ليتحرم به من مسلم، فقال له مسلم: أي الشراب أحب اليك؟ فقال: العسل. قال: اسقوه. فشرب حتى ارتوى. فقال له مسلم: أرويت؟ قال: نعم. قال: والله لا تشرب بعدها شربة إلا في نار جهنم. ثم أمر به فقتل).

وقد ظل مسلم بن عقبة غير آسف عما ارتكبه من طغيان دموي بحق أهل المدينة حتى آخر عمره، يروي ابن كثير أنه قال قبل موته: (اللهم إني لم أعمل عملا قط، بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، أحب إلي

من قتل أهل المدينة، و لا أرجى عندي في الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك، إني لشقي).

تاريخ اليعقوبي (ج ٢): (إنه لما بلغ بثَنْيه عقبة "المشلَلْ" احتضر واستخلف على الجيش الحصين وقال حين الاحتضار: "اللهم إن عذبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية وقتل أهل الحرة فإني إذن لشقي" ثم خرجت نفسه ودفن فيها، وجاءت أم ولد يزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشته وصلبته على المشلل وجاء الناس فرجموه وبلغ ذلك الحصين بن نمير فرجع فدفنه وقتل جماعة من أهل ذلك الموضع وقيل: لم يدع منهم أحداً).

الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ هـ ـ ٩٥ هـ).

والي الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على البصرة والكوفة، مارس الجريمة والإرهاب وحكم الناس بما يخرج الإنسانية عن طبيعتها، عن تاريخ الجوزي عن هشام بن حسان قال: (أحصينا من قتله الحجاج صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا... ووجد في سجنه ثلاثة وثلاثون ألفاً ما يجب علي أحد منهم قطع ولا صلب ولا قتل، وكان سجنه حائطاً لا سقف فيه، فإذا آوي المسجونون إلى ظل الجدار يستظلون به من حر الشمس رمتهم الحرس بالحجارة، وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطاً بالملح والرماد، وكان لا يلبث الرجل في سجنه إلا يسيراً حتى يسود وجهه).

- البداية والنهاية (وذكر في حكايته ما يدل على أنه كان أولا يسمى كليبا، ثم سمي الحجاج. وذكر أنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج، وأنه لم يرتضع أياما حتى سقوه دم جدي أياما، ثم دم سالخ، ولطخ وجهه بدمه فارتضع، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذي لطخ به وجهه.

وكانت فيه شهامة عظيمة، وفي سيفه رهق، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة، وكان يغضب غضب الملوك، وكان فيما يزعم يتشبه بزياد ابن أبيه.

- شرح النهج لابن أبي الحديد: (وافى الحجاج بن يوسف الثقفي البصرة فأمر الناس بالخروج لحرب الخوارج فجي إليه بشيخ أعور يضع على عينه العوراء صوفة فكان يلقب دا الكرسفة. فقال أصلح الله الأمير إن بي فتقل وقد عذرني بشر بن مروان وقد رددت العطاء. فقال له الحجاج: إنك عندي لصادق. وأمر به فضربت عنقه).

وجيء به بآخر فقال: أنشدك الله أيها الأمير في فوالله ما قبضت ديوانا قط ولا شهدت عسكرا قط وأنا حائك خذت من تحت الجفة. فقال اضربوا عنقه فقتل.

- البداية والنهاية (ج ١٢):

(فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيرا في السوق، فخرج حتى جلس على المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، إني سمعت تكبيرا في الأسواق، ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب، ولكنه تكبير يراد به الترهيب، وقد عصفت عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة، وعبيد العصا، وأبناء الإماء والأيامى، ألا يربع كل رجل منكم على ظلعه، ويحسن حقن دمه، ويبصر موضع قدمه، وأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها، وأدبا لما بعدها. فقام إليه عمير بن ضابئ التميمي ثم الحنظلي، قال: أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث، وأنا شيخ كبير وعليل، وهذا ابني هو أشب مني. قال: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ التميمي. قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم. قال: ألست الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى. قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كان حبس أبي وكان شيخا كبيرا.

ثم قال الحجاج: إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصرين. ثم قال: قم إليه يا حرسي فاضرب عنقه. فقام إليه رجل فضرب عنقه، وانتهب ماله، وأمر مناديا في الناس: إلا أن عمير بن ضابئ تأخر بعد سماع النداء ثلاثا، فأمر بقتله).

- البداية والنهاية (ج ١٢): (وفي سنة ٨٢ دعا الحجاج بكميل بن زياد أحد شيعة علي فقال له أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان؟ قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلا. فقال له: على أينا أنت اشد غضبا؟ عليه حين أقاد من

نفسه، أو علي حين عفوت عنه؟ ثم قال له: أيها الرجل من ثقيف، لا تصرف علي أنيابك ولا تشكر لي كالذئب، فما بقي من عمري إلا ظمئ الحمار،، اقض ما أنت قاض فإن الموعد لله والقتل بعده حساب. فأمر به فقتل).

- (البداية والنهاية ج ١٢): (وفي سنة ٨٣ هـ بعد انتهاء معركة دير الجماجم التي انتصر فيها الحجاج على عبد الرحمن بن الأشعث، جلس الحجاج يبايع الناس من أصحاب ابن الأشعث وكان لا يبايعه أحد إلا سأله أتشهد أنك كفرت بخروجك علي؟ فإذا قال: نعم، بايعه وإلا اقتله، فجاء إليه رجل من خثعم كان معتزلا الناس جميعا من وراء الفرات، فسأله عن حاله. فقال: ما زلت معتزلا وراء هذه النطفة. فقال متربص أتشهد أنك كافر؟. فقال: بئس الرجل أنا كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر. قال: إذن أقتلك. قال: وإن قتلتني فوالله ما بقي من عمري إلا ضم الحمار. فقال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه).

- أنساب الأشراف (ج ٥): (وبلغ الحجاب أن عمرا بن يزيد النهدي رثى مصعب بن الزبير فأحضره الحجاج وقال له: أنت القائل ما قلت؟ فقال: فقدنا مصعبا ففقدنا به عدلا شاملا وعطاء جزلا. فأمر به الحجاج فضربت عنقه).

- (العذاب ج ٥): (كان الحجاج بن يوسف الثقفي يطعم المسجونين في سجنه الشعير المخلوط بالرماد).

- مروج الذهب للمسعودي: (إنه وجد في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم تجب على أحد منهم العقوبة، وكان يحبس الرجال والنساء في مكان واحد، وقد قتل سعيد بن جبير وما فوق أديم الأرض إلا وهو محتاج لعلمه).

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة:

(وقدمت وفود العراق على سليمان بن عد الملك بعد ما استخلف؛ فأمرهم بشتم الحجاج، فقاموا يشتمونه، فقال بعضهم: "إن عدو الله الحجاج كان عبدًا زبابًا، قنور بن قنور لا نسب له في العرب" قال سليمان: أي شتم هذا! إن عدو الله الحجاج كتب إلي: "إنما أنت نقطة من مداد، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما؛ وإلا فأنا الحجاج وأنت النقط، فإن شئت محوتك، وإن شت أثبتك" فالعنوه لعنه الله، فأقبل الناس يلعنونه، فقام ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال: "يا أمير المؤمنين، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم" قال: هات، قال: "كان عدو الله يتزين تزين المومسة، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة، وأكذب في حديثه من الدجال).

- يقول عنه الخليفة عمر بن عبد العزيز: (لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا نحن بالحجاج لغلبناهم).

- العذاب/ ٦: (في معركة الزاوية في سنة ٨٢ هـ بين الحجاج وعبد الرحمن بن شعث لجأ الحجاج بعد انتصاره إلى الغدروالخديعة، فأمر مناديه ينادي: لا أمان لفلان بن فلان وسمى رجالا. فقالت العامة: قد أمن من الناس ما عدا هؤلاء، فحضروا عنده، فأمربقتلهم فقتلوا).

- قال الذهبي في *سيرة اعلام النبلاء *: (أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلا وكان ظلوما جبارا ناصبيا خبيثا سفاكا للدماء وكان ذا شجاعة و إقدام وكر ودهاء، وقد شقت من سوء سيرته بالتاريخ الكبير وحصاره لابن الزبير بالكعبة ورميه إياه بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة، وحروب ابن الأشعث له وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله، فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله فإن ذلك

من أوثق عرى الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء).

- لقد كان الحجاج ثاني اثنين ممن أقدم على انتهاك حرمة الكعبة المشرفة بعد الحصين بن النمير، حيث ضربها بالمنجنيق فأصابها الضرر البالغ، جاء في الطبري (ج ٢): (فلم يزل الحجاج وأصحابه يرمون بيت الله الحرام بالحجارة حتى انصدع الحائط الذي على بئر زمزم عن آخره، و انتقضت الكعبة من جو انبها.

ثم أمرهم الحجاج فرموا بكيزان النفط والنار حتى احترقت الستارات كلها فصارت رمادا، والحجاج و اقف ينظر في ذلك كيف تحترق الستارات وهو يرتجز ويقول:

أما تراها ساطعا غبارها * والله في ما يزعمون جارها
فقد وهت وصدعت أحجارها * ونفرت، منها معها أطيارها
وحان من كعبتها دمارها * وحرقت منها معا أستارها
لما علاها نفطها ونارها.

وقال فيه عاصم بن أبي النجود الكوفي: (ما بقيت لله حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو أول وال يقوم برمي الكعبة بالمنجنيق).

- تاريخ الخلفاء للسيوطي: (في صفر من سنة ٦٤ هـ حاصر الأمويون ابن الزبير وقتلوه ورموا الكعبة بالمنجنيق فاحترقت أستار الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذي فدى الله به إسماعيل).

- تاريخ الخلفاء: (وفي سنة أربع وسبعين سار الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وختم في أعناقهم و أيديهم يذلهم بذلك كأنس وجابر بن

عبد الله وسهل بن سعد الساعدي فإنا لله و إنا إليه راجعون).

وجاء في الإمامة والسياسة: (وذكروا أن عبد الملك لما كتب إلى الحجاج يأمره بالمسير إلى العر اقيين ويحتال لقتلهم، توجه ومعه ألفا رجل من مقاتلة أهل الشام وحماتهم، وأربعة آلاف من أخلاط الناس، وتقدم بألفي رجل، وتحرى دخول البصرة يوم الجمعة في حين أوان الصلاة، فلما دنا من البصرة أمرهم أن يتفرقوا على أبواب المسجد، على كل باب مئة رجل بأسيافهم تحت أرديتهم، وعهد إليهم أن إذا سمعتم الجلبه في داخل المسجد، والو اقعة فيهم، فلا يخرجن خارج من باب المسجد حتى يسبقه رأسه إلى الأرض، وكان المسجد له ثمانية عشر بابا، يدخل منها إليه، فافترق القوم عن الحجاج فبدروا إلى الأبواب، فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة، ودخل الحجاج وبين يديه مئة رجل و خلفه مئة، كل رجل مرتد بردائه، وسيفه قد أفضى به إلى داخل إزاره، فقال لهم: إني إذا دخلت فسأكلم القوم في خطبتي وسيحصبونني، فإذا رأيتم قد وضعت عمامتي على ركبتي، فضعوا أسيافكم، واستعينوا بالله، واصبروا أن الله مع الصابرين. فلما دخل المسجد، وقد حانت وقت الصلاة، صعد المنبر فحمد الله ثم قال: أيها الناس أن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عزوجل في بلاده، وارتضاه إمام على عباده، وقد ولآني مصركم، وقسمة فيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف الثواب إلى المحسن البريء، والعقاب إلى العاصي المسيء، و إني متبع فيكم أمره، ومنفذ عليكم عهده، وأرجو بذلك من الله عزوجل المجازاة، ومن خليفته المكافأة، وأخبركم انه قلدني بسيفين حين توليته إياي عليكم، سيف رحمة، وسيف عذاب ونقمه، فأما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق، وما سيف النقمة فهو هذا. فحصبه الناس، فلما أكثروا عليه خلع عمامته، فوضعها على ركبته، فجعلت السيوف تبرى الرقاب، فلما سمع الخارجون

الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج، تلقوهم بالسيوف، فردعوا الناس إلى جوف المسجد، ولم يتركوا على خارجا يخرج، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفا (الواضح أن عدد القتلى تشوبه مبالغة ظاهرة ولكن دون سقوطه).

وجاء أيضا: (ولما جلس الحجاج على منبر البصرة وتكلم حصبه الناس فلما أكثروا عليه خلع عمامته، فوضعها على ركبته وكانت هذه إشارة إلى جنده بقتل الناس فجعلت السيوف تبري الرقاب فسالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك).

أحمد بن مروان الدينوري - المجالسة وجواهر العلم: (عَنِ السَّرِيِّ ابْنِ يَحْيَى قال: مر الْحَجَّاجُ فِي يَوْمِ جُمْعَةٍ، فَسَمِعَ اسْتِغَاثَةً، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ لَهُ: أَهْلُ السُّجُونِ، يَقُولُونَ: قَتَلَنَا الْحَرُّ. قَالَ: قُولُوا لَهُمْ: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} {سورة المؤمنون آية ١٠٨}. قَالَ: فَمَا عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَقَلَّ مِنْ جُمْعَةٍ حَتَّى مَاتَ).

من أقواله: - إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، و إني لصاحبها، و إني لأرى الدم يترقرق بين العمائم واللحى.

- إن للشيطان طيفاً، وإن للسلطان سيفاً.

عبد الملك بن مروان (٢٦هـ ـ ٨٦ هـ)
والوليد بن يزيد (٩٠ هـ ـ ١٢٦ هـ).

عبد الملك بن مروان الخليفة الخامس في دولة بني أمية، حكم ما بين ٦٥- ٨٦ هـ، وقد تمكن من ضم الحجازوالعراق وتهامة والخط وهجر وغيرها إلى ملك بني أمية بعد أن كان مقتصرا على الشام ومصر، وقد احتوت سيرته الشخصية أفعالا من الطغيان وسفك الدماء، ويكفي أن الحجاج منه، وارتكب طغيانه وفجوره بعلمه ومباركته، حتى قال عنه: إن الحجاج جلدة ما بين عينيَّ. ومن سيره ما يلي:

- تاريخ الخلفاء: (قال بكربن عبد الله المزني: أسلم يهودي اسمه يوسف وكان قرأ الكتب فمر بدار مروان فقال: ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار فقلت له: إلى متى؟ قال حتى تجيء رايات سود من قبل خراسان.

وكان صديقاً لعبد الملك بن مروان فضرب يوماً على منكبه وقال: اتق الله في أمة محمد إذا ملكتهم فقال: دعني ويحك ما شأني وشأن ذلك فقال: اتق الله في أمرهم قال: وجهز يزيد جيوش إلى أهل مكة فقال عبد الملك: أعوذ بالله أيبعث إلى حرم الله فضرب يوسف منكبه وقال: جيشك إليهم أعظم).

- تاريخ الخلفاء: (قال يحيى الغساني: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة زرت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك فقال لي عبد الملك أمن هذا الجيش أنت؟ قلت نعم قال: ثكلتك أمك أتدري إلى من تسير؟ – يعني ابن الزبير- إلى أول مولود ولد في الإسلام وإلى ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ابن ذات النطاقين وإلى من حنكه رسول الله ﷺ أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً، ولئن جئته ليلا لتجدنه قائماً فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعاً في النار فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه).

وقال ابن أبي عائشة: أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف في حجره فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك.

أخرج الكديمي عن ابن جريج عن أبيه قال: خطبنا عبد الملك بين مروان بالمدينة بعد قتل الزبير عام حج سنة خمس وسبعين فقال بعد حمد الله والثناء عليه: (أما بعد فلست بالخليفة المستضعف -يعني عثمان- ولا الخليفة المداهن -يعين معاوية- ولا الخليفة المأفون -يعني يزيد- ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ألا و إني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، هذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته وموضعه موضعه قال برأسه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا، ألا و إنا نحمل لكم كل شيء إلا وثوبا على أمير أو نصب راية، إلا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل).

قال يوسف بن الماجشون: (كان عبد الملك إذا قعد للحكم قيم على رأسه بالسيوف).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: (لو لم يكن من مساوئ عبد الملك إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عنهم يهينهم ويذلهم قتلا وضربا وشتما وحبسا، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين مالا يحصى فضلا عن غيرهم وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختما يريد بذلك ذلهم فلا رحمة الله ولا عفا عنه).

- قالت أم الدرداء لعبد الملك بن مروان: مرة بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة؟ قال: إي والله والدماء قد شربتها).

يقول المستشار محمد سعيد العشماوى في كتابه الخلافة الإسلامية: (في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك كثر في المدينة المخنثين فأرسل سليمان إلى أبى بكروالى المدينة كتاباً يقول له فيه: "أحص المخنثين" فوقعت نقطة على الحاء فأصبحت "اخص المخنثين" ومن ثم فقد أطاع الوالي وخصى كل المخنثين في المدينة، وكلمة "أحص" والإحصاء تفيد أن المخنثين آنذاك كثرة تقتضي الإحصاء، ولم يكونوا قلة لا يبالي بها أحد).

أما الوليد بن يزيد فهو الخليفة الأموي الحادي عشر، تولى الخلافة بعد موت عمه الخليفة هشام بن عبد الملك، ولسفهه ومجونه وسوء تدبيره وفساده حكم عاما وشهرين فقط، وخلع وقتل، من سير طغيانه ما يلي:

الأغاني للاصفهاني (ج ٧): عن يحي بن سليم قال: (دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه قرأ ورقة فيها واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ور ائه جهنم ويسقى من ماء صديد. فقال: اسجعا سجعا! علقوه. ثم أخذ القوس والنبل حتى مزقه. ثم أنشد:

أتوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك الجبار العنيد.

إذا لاقيت ربك يوم حشر * فقل لله مزقني الوليد!

قال: فما لبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى قتل).

- قال السيوطي في تاريخ الخلفاء عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك: (وكان فاسقا شريبا للخمر منتهكا حرمات الله أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه فقتل في جمادى الآخرة سنة ستة وعشرين).

البداية والنهاية (ج ١٠): (وقال الو اقدي: كان الوليد جبارا ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب).

- البداية والنهاية (ج ١٠): (قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته وفسقه، وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها، فإنه لم يزدد في الخلافة إلا شرا ولهوا ولذةً وركوبا للصيد وشرب المسكر ومنادمة الفساق، فما زادته الخلافة على ما كان قبلها إلا تماديا وغرورا، فثقل ذلك على الأمراء والرعية والجند، وكرهوه كراهة شديدة، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه، إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده اليمانية، وهي أعظم جند خراسان، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك، فلم يزل يعاقبه حتى هلك، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءهم قتله.

ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرَّبه إلى عمان فحبسه بها، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك، فكلمه فيها عمر بن الوليد، فقال: لا أردها.

فقال: إذا تكثر الصواهل حول عسكرك.

وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وبايع لولديه الحكم وعثمان، وكانا دون البلوغ، فشق ذلك على الناس أيضا، ونصحوه فلم ينتصح، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل).

- يقول د. راغب السرجاني في *قصة الخلافة الأموية* - سلسلة بحوث منشورة على الإنترنت: (أراد الوليد بن يزيد البيعة لابنيه الحكم وعثمان وكانا غلامين، وسجن الوزير سعيد بن صهيب لنهيه إياه عن البيعة لابنيه، فغضب عليه وتركه في السجن حتى مات، وعرض أمر البيعة لابنيه على خالد بن عبد الله القسري فرفض، وكان خالد رأس ولاة الأمويين وشيخ وزرائهم وأعظم قائد

لجند اليمانية، فغضب الوليد الثاني على خالد ثم أمر بحبس خالد ودفعه إلى يوسف بن عمر أمره أن يستأدِيَ منه أموال العراق أيام كان عليه؛ فقبض منه خمسين مليون درهم، وسار به يوسف بن عمر إلى العراق ومكث في العذاب إلى أن مات قتيلاً سنة ١٢٦هـ.

وكان آل القعقاع يتولون أهم الولايات فكان الوليد بن القعقاع على قنسرين وعبد الملك أخوه على حمص فعزلهما وعين يزيد بن عمر بن هبيرة، ودفع إليه آل القعقاع فعذبهم ونكل بهم حتى مات الوليد بن القعقاع وأخوه عبد الملك في العذاب، ورجلان من آلِهِمَا).

- تاريخ الخلفاء: (لما قتل وقطع رأسه وجيء به يزيد الناقص نصبه على رمح فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد فقال: بعدا له! أشهد أنه كان شروبا للخمر ماجنا فاسقا ولقد راودني عن نفسي).

نهاية حكم بني أمية وارتقاء آل العباس السلطة.

سير أعلام النبلاء (ج ٦): (عبد الله بن علي بن البحر عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور من رجال العالم ودهاة قريش كان بطلا شجاعا مهيبا جبارا عسوفا سفاكا للدماء به قامت الدولة العباسية.

وسار في أربعين ألفا أو أكثر فالتقى الخليفة مروان بقرب الموصل فهزمه ومزق جيوشه ولج في طلبه وطوى البلاد حتى نازل دار الملك دمشق فحاصرها أياما وأخذها بالسيف وقتل بها إلى الظهر نحوا من خمسين ألف مسلم من الجند وغيرهم ولم يرقب فيهم إلا ولا ذمة ولا رعى رحما ولا نسبا، ثم جهز في الحال أخاه داود بن علي في طلب مروان إلى أن أدركه بقرية بوصير من بلاد مصر فبيته فقاتل المسكين حتى قتل وهرب ابناه إلى بلاد الحبشة و انتهت الدولة الأموية، ولما مات السفاح زعم عبد الله أنه ولي عهده وبايعه أمراء الشام وبويع المنصور بالعراق وندب لحرب عمه صاحب الدعوة أبا مسلم الخراساني فالتقى الجمعات بنصيبين فاشتد القتال وقتلت الأبطال وعظم الخطب ثم انهزم عبد الله في خواصه وقصد البصرة فأخفاه أخوه سليمان مدة ثم ما زال المنصور يلح حتى أسلمه فسجنه سنوات فيقال حفر أساس الحبس وأرسل عليه الماء فوقع على عبد الله في سنة سبع وأربعين ومئة فالأمر لله.

تاريخ أبي الفداء: (اجتمع عند عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عدة من بني أمية نحو تسعين رجلاً فلما اجتمعوا عند حضور الطعام دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي عم السفاح و أنشده:

أصبح الملك ثابت الأساس *بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها *بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا* و اقطعن كل رقلة وغراس

ذلها أظهر التودد منها *وبها منكم كحر المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي* قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله *بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا *وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى *ثاويا بين غربة وتناس

فأمر عبد الله بهم فضربوا بالعُمُد حتى وقعوا وبسط عليهم الأنطاع ومد عليهم الطعام وأكل الناس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا جميعاً.

وأمر عبد الله بنبش قبور بني أمية بدمشق فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان ونبش قبر يزيد ابنه، ونبش قبر عبد الملك بن مروان ونبش قبر هشام بن عبد الملك فوجد صحيحاً فأمر بصلبه فصلب ثم أحرقه بالنار وذرَّاه، وتتبع يقتل بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فلم يفلت منهم غير رضيع أو من هرب إلى الأندلس. وكذلك قَتَل سليمان ابن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أمية وألقاهم في الطريق فأكلتهم الكلاب، ولما رأى من بقي من بني أمية ذلك تشتتوا واختفوا في البلاد).

قال الذهبي في *تذكرة الحفاظ* (ج ١): (تحولت دولة الإسلام من بني أمية إلى بني العباس في عام اثنتين وثلاثين ومائة، فجرى بسبب ذلك التحول سيول من الدماء، وذهب تحت السيف عالم لا يحصيهم إلا الله بخراسان والعراق والجزيرة والشام، وفعلت العساكر الخراسانية -الذين هم المسودة- كل قبيح. فلا حول ولا قوة إلا بالله).

قال المؤرخون: في دولة بني العباس افترقت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان وأدخل الأتراك في الديوان واستولت الديلم ثم الأتراك وصارت لهم دولة عظيمة و انقسمت ممالك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر.

أبو العباس السفاح (١١٠هـ - ١٣٦هـ).

أول خلفية عباسي، تولى الخلافة عام ١٣٢ هـ، حتى وفاته سنة ١٣٦ هـ، وحفلت سيرته بعد الخلافة بالطغيان وسفك الدماء، منها ما يلي:

- تاريخ الخلفاء: (وكان السفاح سريعا إلى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله بالمشرق والمغرب).

مما يروى أن السفاح كان في مجلسه نفر من بني أمية، فجاءه حاجبه وأخبره أن في الباب رجلا ملثما يستأذنه في الدخول ولن يكشف عن وجهه حتى يراه، فقال السفاح للحاجب: هذا مولاي سديف أذنت له بالدخول.

ولما دخل وجد في مجلس السفاح نفر بني أمية فأماط اللثام عن وجهه وتلبسه الشيطان بالشعر وأنشد:

لا يغرنك ما ترى من رجال

إن بين الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتغير لون السفاح وثار الدم في عروقه، فشعر بالمنية سليمان بن عبد الله الملك فقال: قتلنا والله العبد.

ثم إن السفاح تطاير الشرر من عينيه ونطق شيطانه قائلا لهم: أرى قتلاكم من سلفي و أنتم أحياء تتلذذون في الدنيا. فصاح بحراسه خذوهم خذوهم.

فتلقاهم الحراس بالضرب المبرح حتى تورمت أطرافهم و انتفخت جلودهم فأمر بهم فقطعت رؤوسهم إلا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الذي استجار بداوود بن علي فأجاره ونجا.

بيد أن السفاح لم يشف غليله من نفر بني أمية فأمر بأن يمد له الطعام على جثثهم المقطعة وأجسادهم الموزعة ولما فرغ من طعامه قال: ما أكلت أكلة قط أهنأ إلى نفسي ولا أطيب من هذه الأكلة. ثم أمر بإلقاء الجثث على قارعة الطريق وأن تلعنها الناس.

وتجمعت الكلاب والحيوانات الضالة وديدان الأرض وهوامها على جثث بني أمة فنهشت لحومها حتى فاح عفنها فحفرت لها حفرة كبيرة ودفنت فيها.

جاء في *التذكرة الحلبية* لابن حمدون:

(من أبلغ ما سمع في الحنق أن أبا العباس السفاح لما قتل بني أمية بحضرته دعا بالغداء، ثم أمر ببساك فبسط عليهم، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته، فلما فرغ قال: ما أعلمني أكلت أكلة قط كانت أهنأ ولا أطيب في نفسي منها. ويقال: إنهم صلبوا في بستانه حتى تأذى جلساؤه بروائحهم، فكلموه في ذلك فقال: والله لهذا ألذ عندي من شم المسك والعنبر، غيظا عليهم، وتمثل بقول ذي الإصبع: من البسيط
لو يشربون دمي لم يرو شاربهم... ولا دماؤهم للغيظ تشفيني).

وتروي سير العباسيين أن السفاح أمر بقتل ابن هبيرة، والي بني أمية على العراق، وكان قد بايع العباس بضمانة المنصور، فأمر أخاه المنصور بقتله، فأبى متذرعا بألامان الذي أعطاه إياه، فألزمه السفاح فراجعه مرارا، حتى قال له السفاح: لست مني ولست من كان إن لم تقتله.
فقتله المنصور وأرسل برأسه إلى السفاح.

- وقتل وزيره أبو سلمة الخلال، بعد أن أوغل صدره عليه بسبب إلزام الاختباء لأربعين يوما في داره، وبعد أن بلغه أنه كاتب العلويين بالخلافة،

فأوعز لأبي مسلم بقتله، فأرسل جماعة من خلصائه بقتله فقتلوه غيلة هو خارجا ذات ليلة من دار السفح.

- البداية والنهاية (ج ١٠): من رسالة لأبي مسلم الخراساني بعث بها إلى أبي جعفر المنصور:

(وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالا فأمرني أن أجرد السيف، و أقتل بالظنة، و أقدم بالشبهة، وأرفع الرحمة، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم، وتوطئة سلطانكم حتى عرّفكم الله من كان جهلكم).

أبو مسلم الخراساني (١٠٠هـ – ١٣٧ هـ).

قائد عسكري عباسي من الموالي، صاحب الدعوة العباسية وقائد جيوشها وله الفضل الكبير في انتصارها وقيام دولتها، كانت له حضوة عند أبو العباس السفاح، وكانت بينه وبين المنصور جفوة وتنافر، ولما تولى المنصور احتال عليه وقتله، وتحفل سيرته بسفك الدماء وإزهاق الأرواح، منها ما يلي:

جاء في وصية أوصاه بها إبراهيم الإمام: (يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فأحفظ وصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يسمي هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مصر فإنهم العدو القريب الدار، فأقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فأفعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله).

- **البداية والنهاية** (ج ١٠): **من رسالة المنصور له قبل مقتله**:

(أما بعد أيها المجرم العاصي، فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج السديد، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائدا، وعن الشيطان وأوامره صادرا، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركا، ولأغواهما راكبا، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين).

قال عنه الذهبي: (كان أبو مسلم سفاكاً للدماء، يزيد على الحجاج في ذلك، وهو أوَّل من سن للدولة لبس السواد).

الطبري (ج ٧): (في سنة ١٣٢ هـ قتل أبو مسلم سليمان ابن كثير، أحد كبار الدعاة العباسيين، وسبب ذلك أن سليمان ساير عبيد الله بن الحسين الأعرج العلوي. فقال سليمان للأعرج يا هذا: إنا كنا نرجو أن يتم أمركم، فان شئتم فادعونا إلى ما تريدون.

فظن عبيد الله أنها دسيسة من أبي مسلم وخاف ذلك، فجاء إلى أبي مسلم وحدثه بما قال سليمان، فبعث أبو مسلم إلى سليمان وقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال:نعم. قال: فإني قد اتهمتك. قال: أنشدك الله. قال: لا تناشدني و أنت منطو على غش الإمام. ثم أمر بضرب عنقه).

قال الذهبي: (كان أبو مسلم بلاء عظيما على عرب خراسان، فإنه أبادهم بحد السيف).

البداية والنهاية (ج ١٠): روى ابن عساكر بإسناده: أن رجلا قام إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟

فقال: حدثني أبو الزبير، عن جابر بن عبد الله: «أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء». وهذه ثياب الهيئة وثياب الدولة. يا غلام اضرب عنقه.

البداية والنهاية (ج ١٠): إن إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة، وكان يعده إذا ظهر أن يقيم الحدود، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم بن ميمون في القيام بما وعده به حتى أحرجه، فأمر بضرب عنقه.

إتحاف الجماعة – حمود عبدالله التويجري (توفي ١٤١٣)

قال: ذكر ابن جرير "أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرا". أي: إنه قتلهم في غير معركة بل كانوا أسراء عنده يفعل بهم ما يشاء وكان مصيرهم القتل بإشارة منه.

- سير أعلام النبلاء للذهبي: ولما رأى أبو جعفر عظمة أبي مسلم وسفكه للدماء رجع من عنده وقال للسفاح: لست بخليفة إن أبقيت أبا مسلم. قال: وكيف قال ما يصنع إلا ما يريد قال: فاسكت و اكتمها.

وفي عام ثلاثة وثلاثين خرج على أبي مسلم شريك المهري ببخارى ونقم على أبي مسلم كثرة قتله وقال ما على هذا اتبعنا آل محمد فأتبعه ثلاثون ألفا فسار عسكر أبي مسلم فالتقوا فقتل شريك.

قال الذهبي: وقد كان بعض الزنادقة والطغام من التناسخية اعتقدوا أن الباري سبحانه وتعالى حل في أبي مسلم الخراساني المقتول عندما رأوا من تجبره واستيلائه على الممالك وسفكه للدماء.

من أقوال المنسوبة له:

- ومن جازيناه بجز ائه وضعت سيفي فلم يبق بر و لا فاجر إلا قتلته.
- إني نسجت ثوبا من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني العباس.

أبو جعفر المنصور (٩٥ هـ ـ ١٥٨هـ).

الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس، تولى الحكم بعد وفاة السفاح عام ١٣٦هـ، واستمرت خلافته اثنين وعشرين عاما، تمكن خلالها من بناء الدولة العباسية وترسيخ أركانها، وهو من بنى بغداد، عاصمة الخلافة وأهم مدن العرب، إلا أن سيرته كانت مليئة بالعسف والجور والطغيان، منها هذه المقتطفات:

- في سنة ١٤٥هـ لما بلغ المنصور ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالمدينة كتب إليه كتابا جاء فيه: لك علي عهد الله وميثاقه ومذمته وذمة رسوله إن رجعت قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك على دمائكم وأموالكم فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من أحببت يأخذ لك الأمان والعهد والميثاق ما تثق به..

فكتب إليه محمد ردا كان من جملته: أي الأمانات تعطيني، أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم؟

وصدق محمد فان هؤلاء الثلاثة الذين أثبت أسمائهم في رده كان المنصور قد أمنهم ثم غدربهم وقتلهم.

- قال عنه السيوطي في تاريخ الخلفاء: قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه، وهو الذي ضرب أبا حنيفة رحمه الله على القضاء، ثم سجنه، فمات بعد أيام، وقيل انه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه.

- روي عن داوود بن راشد الواسطي أنه قال: كنت شاهدا حين عذب الإمام ليتولى القضاء، كان يخرج كل مرة فيضرب أسواط حتى ضرب عشرة ومائة سوط وكان يقال له: اقبل القضاء. فيقول: لا أصلح. فلما تتابع عليه

الضرب قال خفيا: اللهم ابعد عني شرهم بقدرتك. فلما أبا دسوا عليه السم فقتلوه.

وفي رو اية أخرى: (أن المنصور حبسه وضيق عليه مدة، وكلم المنصور بعض خواصه فأخرج من السجن ومنع من الفتوى والجلوس للناس والخروج من المنزل فكانت تلك حالته حتى توفي).

تاريخ الطبري (٨):

وقتل المنصور العباسي رجلا عفيفا نزيها من أهل الكوفة اسمه فضيل بن عمران وكان قد ضمه إلى ولده جعفر فسعت به حاضنة جعفر إلى المنصور واتهمته بأنه يعبق بجعفر فأرسل المنصور اثنين من أتباعه وأمرهما بقتل الفضيل فقتلاه.

بحار الأنوار للمجلسي(ج ٤٧):

قال الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد بن إسحاق الأنماطي النيسابوري بإسناد متصل ذكره: إنه لما بنى المنصور الأبنية ببغداد، جعل يطلب العلوية طلبا شديدا، ويجعل من ظفر به منهم في الاسطو انات المجوفة المبنية من الجص والآجر، فظفر ذات يوم بغلام منهم حسن الوجه، عليه شعر أسود، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب (ﷺ) فسلمه إلى البناء الذي كان يبني له وأمره أن يجعله في جوف اسطو انة ويبني عليه، ووكل به من ثقاته من يراعي ذلك، حتى يجعله في جوف اسطو انة بمشهده، فجعله البناء في جوف اسطو انة، فدخلته رقة عليه ورحمة، فترك في الاسطو انة فرجة يدخل منها الروح. وقال للغلام: لا باس عليك، فاصبر فاني سأخرجك من جوف هذه الاسطو انة إذا جن الليل. ولما جن الليل جاء البناء في ظلمته واخرج ذلك العلوي من جوف تلك الاسطو انة. وقال له: اتق الله في دمي ودم الفعلة الذين معي وغيب شخصك و انج بنفسك فإني إنما أخرجتك في ظلمة هذه الليلة من جوف هذه الاسطو انة لأني خفت أن تركتك فيها أن يكون جدك رسول الله

(ﷺ) يوم القيامة خصمي بين يدي الله عزوجل. ثم قال له: غيب ولا ترجع إلى أمك. قال الغلام: فإن كان هذا هكذا فعرف أمي أني قد نجوت وهربت لتطيب نفسها، ويقل جزعها وبكاؤها أن لم يكن لعودي إليها وجه. فهرب الغلام ولا يدري أين يقصد من أرض الله ولا أي بلد يقع.

قال ذلك البناء: وقد كان الغلام عرفني مكان أمه وأعطاني العلامة شعره، فانتهيت إليها في الموضع الذي كان قد دلني عليه، فسمعت دويا كدوي النحل من البكاء، فعلمت أنها أمه، فدنوت منها وعرفتها خبر ابنها وأعطيتها شعره، و انصرفت.

(**مقاتل الطالبيين**):

ونقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق، وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال، وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبي جعفر المنصور، وقد أشخص معهم محمد ابن عبد الله العثماني، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن وقد حملت قريبا فاستحضر الخليفة وقال: قد حلفت بالعتاق والطلاق إنك لم تغشني وهذه ابنتك حامل فإن كان من زوجها فقد حبلت منه، و أنت تعلم به وإن كان من غيره فأنت ديوث، فأجابه العثماني بجواب أحفظه به، فأمر به فجردت عنه ثيابه فإذا جسمه مثل الفضة النقية، ثم ضربه بين يديه مائة وخمسون سوطاً منها ثلاثون فوق رأسه أصاب أحدها عينه فسالت، ثم رده إلى السجن، وقد بقي كأنه عبد أسود رزقه الضرب وتراكم الدماء فوق جلده فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن الحسن فاستسقى ماء فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلاوزة الموكلين بهم ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة وعليهم القيود والأغلال فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه فناداه عبد الله بن الحسن: والله يا أبا

جعفر ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر عنهم، ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وكان جميلا فتيا فكان الناس يذهبون، لينظروا إلى حسنه وجماله، وكان يقال له: الديباج الأصغر فأحضره المنصور بين يديه وقال له: أما لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً، ثم ألقاه بين اسطوانتين، وسد عليه حتى مات، فعلى المنصور من الله سبحان ما يستحقه).

وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور، فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طلب، وقد قيل: والأظهر أنه قتل صبراً، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهم وقلّ من خرج منهم من الحبس وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذاناً، ولا يعرفون فيه وقت صلاة إلا بالتلاوة، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العثماني، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان لا جزاه الله خيراً، ورحم الله محمد بن عبد الله العثماني)

قتله لابن المقفع (البداية والنهاية – ج ١٠):

(وكان قتل ابن المقفع على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة نائب البصرة، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه، وإنما كان يسميه ابن المعلم، وكان كبير الأنف، وكان إذا دخل عليه يقول: السلام عليكما -على سبيل التهكم- وقال لسفيان بن معاوية مرة: ما ندمت على سكوت قط.

فقال: صدقت، الخرس لك خير من كلامك.

ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله، فأخذه فأحمى له تنورا وجعل يقطعه إربا إربا ويلقيه

في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق، وقيل غير ذلك في صفة قتله).

البداية والنهاية (ج ١٠):

(خطب يوما فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل، فقال: يا أمير المؤمنين! اذكر من أنت ذاكره، واتق الله فيما تأتيه وتذره.

فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل، فقال: أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ} [البقرة: ٢٠٦] أو أن أكون جبارا عصيا.

أيها الناس! إن الموعظة علينا نزلت ومن عندنا نبتت، ثم قال للرجل: ما أظنك في مقالتك هذه تريد وجه الله، وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين.

أيها الناس! لا يغرنكم هذا فتفعلوا كفعله.

ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها، ثم قال لمن هو عنده: اعرض عليه الدنيا فإن قبلها فأعلمني، وإن ردها فأعلمني، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدنيا فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة، وثياب وشارة وهيئة دنيوية، فقال له الخليفة: ويحك! لو كنت محقا مريدا وجه الله بما قلت على رؤوس الناس لما قبلت شيئا مما أرى، ولكن أردت أن يقال عنك: إنك وعظت أمير المؤمنين، وخرجت عليه، ثم أمر به فضربت عنقه).

قتله لسديف بن ميمون:

جاء في *منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم* - ج ٢:

(رأيت في *الغرر للوطواط* ما نصه: «ولما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة في أيام المنصور، دخل عليه سديف بن ميمون، وأنشده أبياتا، منها قوله يحرضه على اظهار الدعوة ويطعن في دولة بني العباس، فبلغت الأبيات المنصور، فكتب إلى عبد الصمد، وكان عامله بمكة، يأمره بمعاقبة/ سديف. فأخذه، وقطع لسانه ويديه ورجليه، فلم يمت، فدفنه وهو حي.

وذكر بعضهم أنه نما إلى المنصور قول سديف:

أسرفت في قتل الرعية ظالما * فاكفف يديك أخا لها مديها

فلتأتينّك راية حسنيّة* جرارة يقتادها حسنيها.

اضطهاده للفقيه المحدث سفيان الثوري:

جاء في الاخبار: (دعا أبو جعفر المنصور العالم سفيان الثوري ليوليه القضاء في إحدى ولاياته، فلما مثل سفيان بين يديه، قال له المنصور: إنا نريد أن نوليك القضاء في بلدة كذا، فأبى سفيان، وأبو جعفر يكرر عليه ويأبى سفيان الثوري. فقال له المنصور: إذن نقتلك، قال سفيان: افعل ما شئت.

فصاح المنصور: يا غلام النطع والسيف، فأقبلوا بالنطع (وهو جلد يوضع تحت الذي يقتل حتى لا تتسخ الأرض بدمه)، ثم أقبلوا بالسيف، فلما رأى سفيان السيف، علم أن الأمر جدي، فقال سفيان: أيها الخليفة أنظرني إلى غدٍ آتيك بزي القضاة.

فلما أظلم عليه الليل، ركب دابته وخرج من الكوفة هاربا، فلما أصبح أبو جعفر انتظر سفيان الثوري أن يقدم إليه، فلم يقدم عليه حتى وقت الضحى، فأمر رجاله أن يلتمسوه، فرجعوا إليه يقولون له: إن سفيان الثوري قد خالفك وهرب في ظلمة الليل.

فغضب أبو جعفر، وأرسل إلى جميع الولاة بأنه من يأتي بسفيان الثوري حيا أو ميتا له كذا وكذا.

سير أعلام النبلاء (ج ٧):

(حدثنا عبد الرزاق قال بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة وقال إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه، فجاء النجارون ونصبوا الخشب ونودي عليه فإذا رأسه في حجر الفضيل ابن عياض ورجلاه في حجر ابن عيينة فقيل له: يا أبا عبد الله اتق الله لا تشمت بنا الأعداء فتقدم إلى الأستار ثم أخذه وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر قال: فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة).

تاريخ الرسل والملوك:

(ذكر عيسى بن محمد أن موسى بن هارون حدثه، قال: لما دخل المنصور آخر منزل نزله من طريق مكة، نظر في صدر البيت الذي نزل فيه، فإذا فيه مكتوب: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ".

أبا جعفر حانت وفاتك و انقضت... سنوك، وأمر الله لا بد و اقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم... لك اليوم من حر المنية مانع!

قال: فدعا بالمتولي لإصلاح المنازل، فقال له: يا أمير المؤمنين، والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها، فقال: اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين، قال: فدعا برئيس الحجبة، فقال: اقرأ ما على صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى على صدر البيت شيئاً، فأملى البيتين فكتبا عنه،

فالتفت إلى حاجبه فقال: اقرأ لي آية من كتاب الله جل وعز تشوقني إلى الله عز وجل، فتلا:

" بسم الله الرحمن الرحيم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"، فأمر بفكيه فوجئا. وقال: ما وجدت شيئاً تقرؤه غير هذه الآية! فقال: يا أمير المؤمنين، محي القرآن من قلبي غير هذه الآية، فأمر بالرحيل عن ذلك المنزل تطيراً مما كان، وركب فرساً، فلما كان في الوادي الذي يقال له سقر -وكان آخر منزل بطريق مكة- كبا به الفرس، فدق ظهره، ومات فدفن ببئر ميمون).

هارون الرشيد (١٤٩هـ - ١٩٣هـ).

لا شك أن عصر هارون الرشيد كان عصر ازدهار ورخاء، ويعتبر من أزهى عصور الدولة العباسية وأعظمها وأروعها، ولكن للقمر جانب مظلم لا بد أن تكتشف أغواره، فقد كان الوجه الآخر للرشيد مظلما، فقد سفك الدم وطغى وتجبر بمقدار دونه المؤرخون في أسفارهم، في التالي شيء منه:

- ذكر ابن الجوزي: أن جعفرا كان له جارية يقال لها فتينة مغنية، لم يكن لها في الدنيا نظير، كان مشتراها عليه بمن معها من الجواري مائة ألف دينار، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجلس شرابه وعنده جماعة من جلسائه وسماره، فأمر من معها أن يغنين، فاندفعت كل واحدة تغني، حتى انتهت النوبة إلى فتينة، فأمرها بالغناء فأسبلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا.

فغضب الرشيد غضبا شديدا، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه: لا تطأها.

ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرها.

فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضي عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا.

فغضب الرشيد أشد من غضبه في المرة الأولى وقال: النطع والسيف. وجاء السياف فوقف على رأسها. فقال له الرشيد: إذا أمرتك ثلاثا وعقدت أصابعي ثلاثا فاضرب.

ثم قال لها غني: فبكت وقالت: أما بعد السادة فلا.

فعقد أصبعه الخنصر، ثم أمرها الثانية فامتنعت، فعقد اثنتين، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الإشفاق و أقبلوا عليها يسألونها أن تغني لئلا تقتل نفسها، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد.

ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة:

لما رأيت الدنيا قد درست * أيقنت أن النعيم لم يعد

قال: فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها و أقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر، و أقبلت الدماء وتطايرت الجواري من حولها، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث.

- يروى أنه دخل على الرشيد منجم يهودي فأخبره أنه سيموت في هذه السنة، فحمل الرشيد هما عظيما، فدخل عليه جعفر فسأله: ما الخبر؟ فأخبره بقول اليهودي، فاستدعى جعفر اليهودي فقال له: كم بقي لك من العمر؟ فذكر مدة طويلة.

فقال: يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن عمره.

فأمر الرشيد باليهودي فقتل، وسري عن الرشيد الذي كان فيه.

- قال الطبري في تاريخه (ج ٨): (وكان موسى الهادي لما استخلف يريد من هارون أن يخلع نفسه من ولاية العهد لتكون لولده جعفر بن موسى، وأيده في ذلك بعض القواد وحدث يوما أن هارون و ابن أخيه جعفر بن موسى راكبين فبلغا قنطرة من قناطر عيسا، فالتفت القائد أبو عصمة وكان مرافقا لجعفر وقال لهارون مكانك حتى يجوز ولي العهد، فقال هارون السمع والطاعة للأمير. ووقف حتى جاز جعفر، فلما مات موسى كان هارون بعيسباذ، فلما دعي ليقدم إلى بغداد أمر بابي عصمة فقطعت عنقه وشد جمته في رأس قناة، وكانت في مقدمة موكبه الذي دخل به بغداد).

- بعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وذلك أنه حزن على البرامكة، ولا سيما على جعفر، كان يكثر البكاء عليهم، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته: ائتني بسيفي، فيسله ثم يقول: والله لاقتلن قاتله، فأكثر أن

يقول ذلك، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه، فأخبر الفضل الخليفة، فاستدعى به فاستخبره فأخبره، فقال: من يشهد معك عليه؟ فقال: فلان الخادم فجاء به فشهد، فقال الرشيد: لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي، لعلهما قد تواطأ على ذلك.

فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال: ويحك يا إبراهيم إن عندي سرا أحب أن أطلعك عليه، أقلقني في الليل والنهار.

قال: وما هو؟ قال: إني ندمت على قتل البرامكة وودت أني خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت، فإني لم أجد بعدهم لذة ولا راحة.

فقال: رحمة الله على أبي الفضل -يعني جعفرا- وبكى، وقال: والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله.

فقال له: قم لعنك الله. ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام، وسلم أهله وولده.

تحدث أبو معاوية في مجلس الرشيد يوما عن الاعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبا شديدا، وقال: أتعترض على الحديث؟ علي بالنطع والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد: هذه زندقة.

ثم أمر بسجنه و أقسم أن لا يخرج حتى يخبره من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، و إنما كانت هذه الكلمة بادرة منه و أنه يستغفر الله ويتوب إليه منها فأطلقه.

وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عزوجل.

- جاء في عيون أخبار الرضا: عن عبيد الله البزاز النيسابوري -وكان مسنا- قال: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيام، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم أغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر.

فلما دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست فأتي بطست وإبريق فغسل يديه، ثم أمرني فغسلت يدي وأحضرت المائدة وذهب عني أني صائم وأني في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: ما لك لا تأكل؟ فقلت: أيها الأمير هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك أو علة توجب الإفطار، فقال: ما بي علة توجب الإفطار وإني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى.

فقلت له بعد ما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟ فقال: أنفذ إلي هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب، فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفا أخضر مسلولا وبين يديه خادم واقف فلما قمت بين يديه رفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال، فأطرق ثم أذن لي في الانصراف.

فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنا لله أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وإنه لما رآني استحيا مني فعدت إلى بين يديه فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير

المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكا، ثم أذن لي في الانصراف.

فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد الرسول إلي فقال: أجب أمير المؤمنين فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين فضحك، ثم قال لي: خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم.

قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه، وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفسا عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد فأضرب عنقه حتى أتيت على آخرهم، ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر.

ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضا عشرون نفسا من العلوية من ولد علي وفاطمة مقيدون فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على آخرهم ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفسا من ولد علي وفاطمة مقيدون عليهم الشعور والذوائب فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضا فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على تسعة عشر نفسا منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي: تبا لك يا مشوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله، وقد قتلت من أولاده ستين نفسا، قد ولدهم علي وفاطمة، فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي

فنظر إلي الخادم مغضبا وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضا فقتلته ورمى به في تلك البئر، فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفسا من ولد رسول الله فما ينفعني صومي وصلاتي و أنا لا أشك أني مخلد في النار.

المعتصم بالله (١٧٩هـ - ٢٢٧هـ) والواثق بالله (٢٠٠هـ - ٢٣٢هـ).

ثامن الخلفاء العباسيين، تولى الأمر بعد وفاة المامون، من أشهر مآثره صرخة "وامعتصماه"، التي أطلقتها امراة هاشمية عقب غزو البيزنطينيين لثغر "زبطرة" ونواحيها، التي كانت كذلك مسقط رأس والدته، فأقسم على الاستجابة لصرخات المراة الهاشمية والإغارة على "دينة عمورية" مسقط رأس والد الامبراطور البيزنطي "تيوفيل" وأهم مدينة في آسيا الصغرى، وقد وفى المعتصم بقسمه ودخل عمريا وخربها، بيد أنه في جانب آخر كان عسوفا قاهرا متجبرا.

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: سلك ما كان المأمون عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بالقران فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين يعلموا الصبيان بذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقا من العلماء، وضرب أحمد بن حنبل وكان ضربه في سنة عشرين.

- قال نفطويه: إنه إذا غضب لا يبالي من قتل.
- قال الصولي: وكان من أشد الناس بطشا، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره.

أما الواثق بالله فقد قال عنه السيوطي:

(وبعد المعتصم جاء الواثق بالله، الذي تابع اضطهاد معارضي القول بخلق القران والعقائد، وكان من أعظم ما فعل قتله للإمام أحمد ابن نصر الخزاعي).

البداية والنهاية (ج ١٠): (ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه، دخل على الواثق فقال له سائلا: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله. قال: أمخلوق هو؟

قال: هو كلام الله.

وكان أحمد بن نصر قد استقتل وباع نفسه وحضر وقد تحنط وشد على عورته ما يسترها. فقال له. فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك. قال: قال تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}.. الآية.. وقال رسول الله ﷺ: (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته). فنحن على الخبر. قال الواثق: ويحك! أيرى كما يرى المحدود المتجسم! ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته.

ثم قال أحمد بن نصر للواثق: حدثني سفيان بحديث يرفعه: (إن قلب ابن آدم بإصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء). وكان النبي ﷺ يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك). فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويحك، انظر ما تقول؟ فقال: أنت أمرتني بذلك. فأشفق إسحاق من ذلك وقال: أنا أمرتك؟ قال: نعم، أنت أمرتني أن أنصح له.

فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟ فأكثروا القول فيه.فقال عبد الرحمن بن إسحاق: وكان قاضياً على الجانب الغربي فعُزل، وكان مواداً لأحمد بن نصر قبل ذلك -: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم.

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي داود: اسقني دمه يا أمير المؤمنين.

قال الواثق: لا بد أن يأتي ما تريد.

وقال ابن أبي داوود: هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل.

فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطاي.

ثم نهض إليه بالصمصامة -وقد كانت سيفا لعمرو بن معد يكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته، وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير- فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعاً رحمه الله على النطع ميتاً،، ثم ضرب عنقه وحز رأسه، وحمل معترضا حتى أتى به الحظيرة فصلب فيها، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقميص، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما، وفي الغربي أياماً، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، من قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه.

ثم أمر الواثق بتتبع رؤوس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسعة وعشرين رجلاً فأودعوا في السجون، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين، وهذا ظلم عظيم).

المتوكل على الله (٢٠٥هـ - ٢٧٤ هـ).

وبعد الواثق بالله جاء المتوكل على الله، وكان من أشد خلفاء بني العباس بغيا وجورا، وكان أشدهم في منع الناس مما أنعم الله عليهم من الفسحة والسعة. (تاريخ الخلفاء):

- (سنة خمسة وثلاثين ومائتين ألزم النصارى بلبس الغل).

- (وفي سنة ستة وثلاثين أمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وخرب وبقي صحراء، وكان المتوكل معروفا بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد وهجاه الشعراء).

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج ٢):

(روي أن نصر بن علي الجهضمي حدث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط، إلى أن كلمه جعفر بن عبد الواحد بأن نصراً لم يكن شيعياً وإنما هو من أهل السنة، فضرب خمسمائة سوط وعفا عن الباقي).

- تاريخ بغداد (ج ٤): (إن يزيد بن عبد الله أمير مصر أمر بضرب جندي تأديبا لشيء صدر منه، وعندما أحس بألم الضرب أقسم على الأمير بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطا جزاء لهذا القسم وكتب عنه إلى المتوكل في بغداد).

- وممن قتلهم المتوكل بوحشية أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكّيت، فقد (مآثر الكبرياء في تاريخ سامراء للشيخ ذبيح الله المحلاتي (ج٢): (اتفق أن المتوكل العباسي ألزمه تأديب ولديه المعتز والمؤيد فقال له يوماً: أيما أحب إليك ابناي

هذان أم الحسن والحسن؟ فقال: والله إن قنبراً خادم علي عليه السلام خيرٌ منك ومن ابنيك. فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات رحمه الله شهيدا، وقيل: فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات).

- قال المسعودي في مروجه:كان منهمكا في الملذات والشراب وكان له أربعة آلاف سرية ووطء الجميع.

مات قتيلا على يد ابنه المنتصر بالله، إذ دخل عليه خمسة من الأتراك وهو في جوف الليل في مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان.

الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٨٥هـ - ١٠٢١هـ).

الخليفة السادس من خلفاء الدولة الفاطمية، تولى الحكم وهو في الحادية عشرة من عمره بوصاية الوزير أبي الفتوح برجوان، ولما بلغ الخامسة عشرة قتله و انفرد بالحكم.

يعرف عنه سفكه للدماء وإصداره للمراسيم الغريبة العجيبة التي غل بها أهل مصر وعاقب على مخالفتها بالقتل والعذاب الأليم، في التالي طائفة من سيرته الدامية:

- **البداية والنهاية** – (**الجزء ٢٠**):

(منع الحاكم صاحب مصر النساء من الخروج من منازلهم أو أن يطلعن من الأسطحة أو من الطاقات ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقا من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهز نساء عجائز كثيرة يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن أو يعشقهن، بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن، فمن وجد منهن كذلك أطفأها وأهلكها، ثم إنه أكثر من الدوران بنفسه ليلا ونهارا في البلد، في طلب ذلك، وغرق خلقا من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم، فضاق الحال واشتد على النساء، وعلى الفساق ذلك، ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادرا، ثم ازداد احتياطا وشدة على النساء حتى جعلهن في أضيق من جحر ضب، ولا زال هذا دأبه حتى مات.

كان كثير التلون في أفعاله وأحكامه و أقواله، جائرا، وقد كان يروم أن يدعي الالوهية كما ادعاها فرعون، فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفا، إعظاما لذكره واحتراما لاسمه، فعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند ذكره خروا سجدا له، حتى إنه

ليسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم، ممن كان لا يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السجود لله في يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم، وأمر في وقت لأهل الكتابين بالدخول في دين الإسلام كرها، ثم أذن لهم في العود إلى دينهم، وخرب كنائسهم ثم عمرها، وخرب القمامة ثم أعادها، و ابتنى المدارس.

وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وأخربها، وألزم الناس بغلق الأسواق نهارا، وفتحها ليلا، فامتثلوا ذلك دهرا طويلا، حتى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة في أثناء النهار، فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟. فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهارفهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه.

وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، وكل هذا تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة له، ليرقى في ذلك إلى ما هو أشر وأعظم منه.

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له -وكان لا يركب إلا حمارا- فمن وجده قد غش في معيشة أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون، لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمرا، ومنعهم من طبخ الملوخية، وأشياء من الرعونات التي من أحسنها منع النساء من الخروج، وكراهة الخمر، وكانت العامة تبغضه كثيرا، ويكتبون له الأوراق بالشتيمة البالغة له ولأسلافه، في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد غيظا وحنقا عليهم، حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها فرأى ما فيها، فأغضبه ذلك جدا، فأمر بقتل المرأة،

فلما تحققها من ورق ازداد غيظا إلى غيظه، ثم لما وصل إلى القاهرة أمر السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا فامتثلوا ما أمر هم به، فقاتلهم أهل مصر قتالا شديدا، ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، وهو في كل يوم قبحه الله، يخرج فيقف من بعيد وينظر ويبكي ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا؟ ثم اجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف وصاروا إلى الله عزوجل، واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشارقة و انحازوا إليهم، وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم، وتفاقم الحال جدا، ثم ركب الحاكم لعنه الله ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل مما فعله العبيد وأنهم ارتكبوا ذلك من غير علمه وإذنه، وكان ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك في الباطن، وما انجلى الأمر حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسبيت نساء وبنات كثيرة وفعل معهن الفواحش والمنكرات، حتى أن منهن من قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبي لهم من النساء والحريم).

- قال ابن الجوزي: ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عن له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت. قبحهم الله جميعا.

- تاريخ الخلفاء: (كان شديد التعصب لمذهبه، متطرفا فيه ومغاليا في شرعه طاغيا على رعيته، ففي سنة ٣٩٥ هـ قتل جماعة من الأعيان صبرا، وأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب).

- سير أعلام النبلاء: (قلت: وكان شيطانا مريدا جبارا عنيدا، كثير التلون، سفاكا للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر جوادا ممدحا، له شأن

عجيب، ونبأ غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكاما يلزم الرعية بها، أمر بسب الصحابة -رضي الله عنهم-، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع. وأمر عماله بالسب، وبقتل الكلاب في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، و أبطل الفقاع والملوخيا، وحرم السمك الذي لا فلوس عليه ووقع ببائع لشيء من ذلك فقتلهم.

وفي سنة اثنتين وأربعمائة حرم بيع الرطب، وجمع منه شيئا عظيما فأحرقه، ومنع من بيع العنب، و أباد الكروم. وأمر النصارى بتعليق صليب في رقابهم زنته رطل وربع بالدمشقي، وألزم اليهود أن يعلقوا في أعناقهم قرمية في زنة الصليب إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه، وأن تكون عمائمهم سودا، وأن يدخلوا الحمام بالصليب وبالقرمية، ثم أفرد لهم حمامات، وأمر في العام بهدم كنيسة قمامة وبهدم كنائس مصر).

مرآة الزمان للجوزي: (وكانت خلافته متضادة بين شجاعة و إقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم و انتقام من العلماء، وميل إلى الإصلاح، وقتل للصلحاء).

(وكان جوادا، سمحا، خبيثا ماكرا، رديء الاعتقاد، سفاطا للدماء، قتل عدد كبيرا من كبراء دولته صبرا، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها).

قال د. محمد عبدالله عنان في كتابه *الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية*:

(هبت على المجتمع القاهري ريح من الرهبة والخشوع وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذي لم يتجاوز العشرين من عمره وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع، ولم يكن ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة ولم يكن فورة أهواء فقط وقد لزم الحاكم هذه الخطة

الدموية طوال حياته، ووقعت في الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة وقلما يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم وفي الأحوال النادرة التي ينجو فيها المعزول بحياته كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك).

(عام ١٠٠٩ أمر الحاكم بقتل الفقيه رجاء بن أبي الحسين لأنه صلى التراويح في رمضان).

(استمر الحاكم في الفتك بالزعماء ورجال الدولة من الوزراء والكتاب والموقعين والعلماء، ورجال القصر من الأستاذة والخدم الصقالبة ومن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم، هذا عدا من قتل من التجار والصناع والكافة، وهم ألوف عديدة، وتقدر الرو اية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص من مختلف الطبقات).

(كان القتل يبدو في نظر الحاكم ضربا من ضروب اللهو أو الرياضة، إذا صدقنا ما تسوقه إلينا الرو اية من حوادث تدلي بذلك، فقد نقل إلينا المقريزي ما رواه ابن سعيد عن أحمد بن الحسين الروذباي من أن الحاكم قتل ذات يوم ركابيا بحربة في يده على باب جامع عرو، وتولى شق بطنه بيده، ونقل إلينا عن أبي سعيد أيضا أن الحاكم كان يواصل أثناء طو افه الوقوف بحانوت ابن الأزرق ويحادثه، ويبدي عطفه عليه، وفي ذات يوم استدعى الحاكم أحد الركابية من السودان المصطنعة بحضرة حانوت ابن الشواء فوقف بين اثنين من زملائه ورماه برمح ثم أضجعه، واستدعى سكينا فذبحه بيده، ثم استدعى ساطورا فقذف به رأسه ثم استدعى ماء فغسل يده، ثم أمر بعد ذلك بغسله ودفنه.

وفي أحيان أخرى كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة، فمثلا يروى لنا المقزيري في حوادث سنة ٣٩٧هـ أن الحاكم في شهر صفر منها رسم

لجماعة من الأحداث أن يتباروا في القفز من موضع عالٍ بالقصر ورسم لكل منهم بصلة، فحضر منهم جماعة، وتباروا في القفز فمات منهم ثلاثون إنسانا لسقوطهم خارجا على صخر قريب ودفع لمن نجا منهم مالا).

نقل عن الوزير جمال الدين المصري عن الحاكم بأمر الله ما يلي:

وكان مؤاخذا بيسير الذنب، حادا لا يملك نفسه عند الغضب، فأنفى أمما و أباد أجيالا، و أقام هيبة عظيمة في ناموسا، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالا متناقضة وأعاملا متباينة، فكان يقتل خاصته و أقرب الناس إليه، فربما أمر بإحراق بعضهم وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه وبنى تربة عليه، وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده، وأشياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة، فيعتقدون أن له في ذلك أغراضا صحيحة استأثر بعلمها وتفرد عنهم بمعرفتها، وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفردا تارة وفي الموكب أخرى وفي المدينة طورا وفي البرية آونة، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته وهو بينهم كالأسد الضاري فلم يزل أمره كذلك مدة ملكه وهي إحدى وعشرين سنة).

في المحرم سنة ٣٩٥ هـ صدرت أول طائفة من الأوامر المدهشة، فصدر سجل يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلينس، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا في أيام النحر، ولا يذبح إلا ما كان ذا عاهة أو ما لا يصلح للحرث، وحرّم بيع الفقاع، وحرم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه، وحرم دخول الحمام بلا مئزر، وشدد على النخاسين من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة، ثم أمر بعد ذلك ألا يدخل سوق الرقيق أحد إلا أن يكون بائعا أو مشتريا، وأن يفرز الجواري من الغلمان وأن يجعل لكل منهم يوم خاص.

وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن في الطريق أو خلف الجنائز. وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى، وشدد الحاكم في تنفيذ الأوامر، وعوقب كثيرون من الخالفين بالجلد والتشهير والإعدام، ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات من الغروب حتى الفجر وأن يزاولوا البيع والشراء.

وكانت نهاية الحاكم بأمر الله وفقا للكثير من المصادر مقتولا، حيث خرج ذات ليلة كعادته على حمار إلى جبل المقطم ولم يعد، وعندما جاء الجنود للبحث عنه وجدوا عباءته ملطخة بالدم، وبعد أربع سنوات اعترف أحد العامة بأنه ظفر به وقتله.

أبو طاهر القرمطي (٢٩٣ هـ ـ ٣٣٢ هـ).

سليمان بن حسن الجنابي، الزعيم الثاني من زعماء دولة القرامطة الشيعية الإسماعيلية التي نشات في البحرين والأحساء والخط في الفترة ما بين ٢٨٦ هـ- ٤٥٩ هـ، وقد كانت بطبيعة الحال خارجة عن سلطة الدولة العباسية، حيث استغل القرامطة ضعف دولة بني العباس في إنشاء دولتهم، على غرار العديد من الكيانات السياسية التي استقلت عن دولة الخلافة في بغداد، وكان لها في آراء المؤرخين والكتاب مدح وذم وتأييد وقدح، بيد أن سليمان بن حسن القرمطي المشهور بأبي طاهر ارتكب الكثير من الجرائم أثناء غزواته وحروبه، وأعظم ما فعله هو غزوه لمكة وقتله لحجاجها وسرقته للحجر الأسود، وظل محتفظا به زهاء العشرين عاما، حتى أعاده إلى مكة بعد تهديد ووعيد من الفاطميين.

فيما يلي شيء من أخباره الدامية:

البداية والنهاية (ج ٢٠): (قال محمد بن رزام الكوفي: حكى لي ابن حمدان الطبيب، قال: أقمت بالقطيف أعالج مريضا، فقال لي رجل: إن الله ظهر، فخرجت، فإذا الناس يهرعون إلى دار أبي طاهر، فإذا هو ابن عشرين سنة، شاب مليح عليه عمامة صفراء، وثوب أصفر على فرس أشهب، وإخوته حوله. فصاح: من عرفني عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي، اعلموا أنَّا كنا -وإياكم- حَميرا، وقد منَّ الله علينا بهذا. وأشار إلى غلام أمرد، فقال: هذا ربنا وإلهنا، وكلنا عباده.

فأخذ الناس التراب، فوضعوه على رؤوسهم. ثم قال أبو طاهر: إن الدين قد ظهر وهو دين أبينا آدم، وجميع ما أوصلت إليكم الدعاة باطل من ذكر موسى وعيسى ومحمد، هؤلاء دجالون، وهذا الغلام هو أبو الفضل المجوسي، شرع لهم اللواط، ووطء الأخت، وأمر بقتل من امتنع.

فأُدخلت عليه وبين يديه عدة رءوس، فسجدت له، و أبو طاهر والكبراء حوله قيام، فقال لأبي طاهر: الملوك لم تزل تعد الرءوس في خزائنها، فسلوه كيف بقاؤها؟ فسُئلتُ، فقلت: إلهنا أعلم، ولكني أقول: فجملة الإنسان إذا مات يحتاج كذا وكذا صبرا وكافورا. والرأس جزء فيعطى بحسابه. فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال الطبيب: ما زلت أسمعهم تلك الأيام يلعنون إبراهيم وموسى ومحمدا وعليا، ورأيت مصحفا مُسِحَ بغائط.

وقال أبو الفضل يوما لكاتبه: اكتب إلى الخليفة، فصلِّ لهم على محمد، وكِلْ من جراب النورة. قال: والله ما تنبسط يدي لذلك، فافتض أبو الفضل أختا لأبي طاهر الجنابي، وذبح ولدها في حجرها، ثم قتل زوجها، وهم بقتل أبي طاهر، فاتفق أبو طاهر مع كاتبه ابن سنبر، وآخر عليه فقالا: يا إلهنا، إن والدة أبي طاهر قد ماتت، فاحضر لتحشو جوفها نارا، قال: وكان سَنَّه له، فأتى، فقال: ألا تجيبها؟ قال: لا؛ فإنها ماتت كافرة. فعاوده، فارتاب وقال: لا تعجلا علي، دعاني أخدم دوابكما إلى أن يأتي أبي.

قال ابن سنبر: ويلك هتكتنا، ونحن نرتب هذه الدعوة من ستين سنة، فلو رآك أبوك لقتلك، اقتله يا أبا طاهر. قال: أخاف أن يمسخني، فضرب أخو أبي طاهر عنقه، ثم جمع ابن سنبر الناس، وقال: إن هذا الغلام ورد بكذب سرقه من معدن حق، وإنا وجدنا فوقه من ينكحه، وقد كنا نسمع أنه لا بد للمؤمنين من فتنة يظهر بعدها حق، فأطفئوا بيوت النيران، وارجعوا عن نكاح الأم، ودعوا اللواط، وعظموا الأنبياء. فضجوا، وقالوا: كل وقت تقولون لنا قولا. فأنفق أبو طاهر الذهب حتى سكنوا).

الكامل في التاريخ (ج ٧): (ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلثمائة فيها دخل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي أمير القرامطة في ألف وسبعمائة فارس إلى البصرة ليلا، نصب السلالم الشعر في سورها فدخلها

قهرا وفتحوا أبوابها وقتلوا من لقوه من أهلها، وهرب أكثر الناس فألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم، ومكث بها سبعة عشر يوما يقتل ويأسر من نسائها وذراريها، ويأخذ ما يختار من أموالها.

ثم عاد إلى بلده هجر، كلما بعث إليه الخليفة جندا من قبله فر هاربا وترك البلد خاويا، إنا لله و إنا إليه راجعون).

- البداية والنهاية (ج ٢٠): (ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وثلثمائة في المحرم منها اعترض القرمطي أبو طاهر الحسين بن أبي سعيد الجنابي لعنه الله، ولعن أباه للحجيج وهم راجعون من بيت الله الحرام، قد أدوا فرض الله عليهم، فقطع عليهم الطريق فقاتلوه دفعا عن أموالهم و أنفسهم وحريمهم، فقتل منهم خلقا كثيرا لا يعلمهم إلا الله، وأسر من نسائهم و أبنائهم ما اختاره، واصطفى من أموالهم ما أراد، فكان مبلغ ما أخذه من الاموال ما يقاوم ألف الف دينار، ومن الامتعة والمتاجر نحو ذلك، وترك بقية الناس بعد ما أخذ جمالهم وزادهم وأموالهم ونساءهم و أبناءهم على بعد الديار في تلك الفيافي والبرية بلا ماء ولا زاد ولا محمل.

وقد جاحف عن الناس نائب الكوفة أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان فهزمه وأسره.

(إنا لله و إنا إليه راجعون).

(ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم: فيها خرج ركب العراق وأمير هم منصور الديلمي فوصلوا إلى مكة سالمين، وتو افت الركوب هناك من كل مكان وجانب وفج، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج عليهم في جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقا كثيرا، وجلس أميرهم أبو طاهر لعنه الله على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل

في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام في يوم التروية، الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول: أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق و أفنيهم أنا.

فكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئا، بل يقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طو افه أخذته السيوف، فلما وجب أنشد وهو كذلك:

ترى المحبين صرعى في ديارهم * كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

فلما قضى القرمطي لعنه الله أمره وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيرا منهم في أماكنهم من الحرم، وفي المسجد الحرام.

ويا حبذا تلك القتلة وتلك الضجعة، وذلك المدفن والمكان، ومع هذا لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم لأنهم محرمون شهداء في نفس الأمر.

وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات إلى النار.

فعند ذلك انكف الخبيث عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود فجاءه رجل فضربه بمثقل في يده وقال: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة حتى ردوه، كما سنذكره في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة فإنا لله و إنا إليه راجعون.

ولما رجع القرمطي إلى بلاده ومعه الحجر الأسود وتبعه أمير مكة هو وأهل بيته وجنده وسأله وتشفع إليه أن يرد الحجر الأسود ليوضع في مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال فلم يلتفت إليه، فقاتله أمير مكة فقتله

القرمطي وقتل أكثر أهل بيته، وأهل مكة، واستمر ذاهبا إلى بلاده ومعه الحجر وأموال الحجيج.

وقد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحادا لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه، سيجازيه على ذلك الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

(غادر أبو طاهر القرمطي البحرين متجها إلى مكة فوصلها في أوائل ذي الحجة، وقد اجتمع الحجاج بها من كل مكان استعداد الأداء فريضة الحج فمنعه من بمكة من الحجاج وغيرهم من دخولها وحاربوه أياما، فلما لم يطقهم، أظهر أنه جاء حجا ومتقربا إلى الله، و أنه لا يحل لهم أن يمنعوه من بيت الله، و أنه أخوهم في الإسلام، وأظهر القرامطة أنهم محرمون، ونادوا بالتلبية، واستدعى رجلا من أئمة قريش بمكة وحلف له بالإيمان الغليظة أنه قد أمنه على دمائهم وأموالهم وحرمهم، و أنه لا يؤذي أحدا منهم، و أنه ما جاء إلا ليحج، إلا أصحاب الجند والسلطان، فإنه لا يؤمنهم، وقال: أنا لا أغدر ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم، لكن لا آمنهم لأنهم يشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعينون السلطان الذي يحجب عن الرعية، ويظلم اليتيم، والأرملة، ويشرب الخمر، وسمع القيان فازداد الناس به اغترارا، وقبلوا أمانة، و أفرجوا له حتى دخل مكة في ستمائة فارس وتسعمائة راجل، ووضع الناس السلاح.

فلما دخل وتمكن وسكن الناس، وثب بهم على غرة منهم، وقال لأصحابه: ضعوا السيف و اقتتلوا كل من لقيتم، ولا تشتغلوا إلا بالقتل. فلم يزل كذلك ثلاثة أيام، ولاذ المسلمون بالبيت، وتعلقوا بأستار الكعبة، فما نفعهم ذلك، وقتلوهم في المسجد الحرام، وما زالوا يقتلونه ويقولون لهم: ومن دخله كان آمنا أفأمنون أنتم يا حمير؟ أما ترون كذب أصحابكم. وأمروا

من يصعد لقلع الميزاب، فصعد وهو يقول مستهزئا: هو في السماء وبيته في الأرض!

وسلب البيت، فاقتلع باب الكعبة، وكان مصفحا بالذهب، وأخذ جميع ما كان في البيت من المحاريب الفضة، والجزع وغيره، ومعاليق، وما يزين به البيت من مناطق ذهب وفضة، وقلع الحجر الأسود، ومقدار موضعه ما يدخل فيه اليد إلى أقل من المرفق، ثم جرد ما كان على البيت كسوة).

(وفي نص أورده القاضي عبد الجبار عن فعل القرامطة بمكة: فبينما هذا الرجل –يعني أبو طاهر زعيمهم- و اقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس، وهو على فرسه يضحك ويتلو: {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ}، حتى وصل إلى قوله: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهر الباطن يا أهل مكة حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الإحساء من قبل أن نطمس وجودها فنردها على أدبارها).

محمد بن تومرت (٤٧١ هـ - ٥٢٥ هـ).

داعية دولة الموحدين وزعيمها الروحي، نشر دعوته في بلاد المغرب العربي حتى تمكن أتباعه من تأسيس جيوش الموحدين التي غزت بلاد المغرب وأسقطت دولة المرابطين و أقامت دولة الموحدين على أنقاضها، واستمرت زهاء ١٤٨ عام.

استخدم ابن تومرت البطش وسفك الدماء علاوة على الأراجيف والأوهام وإلصاقها بالدين في سبيل تحقيق أهدافه المتمثلة في السلطة والسيادة وإسقاط حكم المرابطين، يقول الذهبي في ترجمته: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المدعي أنه الإمام المعصوم والمهدي المنتظر، وكان ابن تومرت خشن العيش فقيرًا، قانعًا باليسير، مقتصرًا على زى الفقراء، غير طالب للذة، لا في مأكل ولا منكح، ولا مال، ولا في شيء غير رياسة الأمر، حتى لقي الله تعالى.

ألف عقيدة لقّبها بالمرشدة، فيها توحيد وانحراف، فحمل عليها أتباعه، وسماهم الموحدين، ونبز من خالف المرشدة بالتجسيم، و أباح دمه، نعوذ بالله من الغي والهوى).

- وقال عنه أيضا في موضع آخر من سفره *سير أعلام النبلاء*: (ابن تومرت... الشيخ الإمام، الفقيه الأصولي الزاهد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغي، الخارج بالمغرب، المدعي أنه علوي حسني، و أنه الإمام المعصوم.

وكان لهجا بعلم الكلام، خائضا في مزال الأقدام، ألف عقيدة لقبها بالمرشدة، فيها توحيد وخير بانحراف فحمل عليها أتباعه، وسماهم الموحدين، ونبذ من خالف المرشدة بالتجسيم، و أباح دمه، نعوذ بالله من الغي والهوى.

وكان خشن العيش، فقيرا، قانعا باليسير، مقتصرا على زي الفقر، لا لذة له في مأكل ولا منكح، ولا مال، ولا في شيء غير رياسة الأمر، حتى لقي الله تعالى. لكنه دخل -والله- في الدماء لنيل الرياسة المردية).

في بداية أمره ذهب إلى مصر لنشر دعوته، يقول السبكي في *طبقات الشافعية الكبرى*: (دخل إلى مصر وبالغ في الإنكار، فبالغوا في أذاه وطرده، وكان ربما أوهم أن به جنونا، وذلك عند خشية القتل ثم خرج إلى الإسكندرية، فأقام بها مدة، ثم ركب البحر ومضى إلى بلاده، ثم نزح إلى بجاية، فأقام بها ينكر كدأبه، فأُخرج منها إلى قرية ملالة، فقال لأنصاره إن هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن الأماكن المجاورة لهذا البلد (تينملل) وهى مسيرة يوم فى هذا الجبل، فانقطعوا فيه وتسامع أهل الجبل بوصول ابن تومرت فجاءوه من النواحي يتبركون به، فكثر أتباعه وأخذ يذكر المهدي ويشوق إليه وجمع الأحاديث التي جاءت في فضله، فلما قرر عندهم عظمة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله، وسرد له نسبًا إلى عليّ عليه السلام، وصرح بدعوى العصمة لنفسه و أنه المهدي المعصوم، وبسط يده للمبايعة فبايعوه، فقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله، ﷺ، ثم صنّف لهم تصانيف فى العلم).

- يقول الأمير عزيز في *أخبار القيروان*: (سمَّى ابن تومرت أصحابه بالموحدين، ومن خالفه بالمجسمين، واشتُهر، وبايعته هرغة على أنه المهدي، فقصده الملثمون، فكسروا الملثمين، وحازوا الغنائم، ووثقت نفوسهم، و أتتهم أمداد القبائل، ووحد هنتاتة، وهي من أقوى القبائل، ويقول اليسع بن حزم: سمى ابن تومرت المرابطين بالمجسمين، وما كان أهل المغرب يدينون إلا بتنزيه الله تعالى عما لا يجب وصفه بما يجب له، مع ترك خوضهم عما تقصر العقول عن فهمه، فكفرهم ابن تومرت لجهلهم العرض والجوهر، وأن

من لم يعرف ذلك، لم يعرف المخلوق من الخالق، وبأن من لم يهاجر إليه، ويقاتل معه، فإنه حلال الدم والحريم، وذكر أن غضبه لله وقيامه حسبة).

بدأ ابن تومرت يبث في أتباعه عقائده و أفكاره التي تقوم على تكفير الآخرين وإخراجهم من الإسلام وأنهم الحق المطلق وغيرهم الباطل المطلق فكان يخاطبهم قائلا: (واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكّارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان و افتراء على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول، فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله.. فانتبهوا وفقكم الله إلى هذه الحيل، فقد عكسوا الحقائق وقلبوها وحرّفوا الكلام عن مواضعه. ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد و أتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفا ببغيهم).

ثم إن ابن تومرت أنشأ جيشا من أتباعه، اقتصرت مهمته على الإغارة على المدن والقرى يقتلون ويسلبون، ومن اعترض على ذلك من مواليه و أنصاره يأمر بقتله. (سير أعلام النبلاء – الجزء التاسع عشر: شرع أتباعه يُغيِرون ويقتلون، وكثروا وقووا، ثم غدر بأهل تينملل الذين آووه، وأمر خواصه، فوضعوا فيهم السيف، فقال له الفقيه الإفريقى أحد العشرة من خواصه: ما هذا؟! قوم أكرمونا و أنزلونا نقتلهم! فقال لأصحابه: هذا شك في عصمتي، فاقتلوه، فقتل).

وفي تفاصيل وضعه السيف في أهل مدينة تينملل التي كانت من أوائل المدن التي والته وآمنت به وصدقت حديثه، ما رواه ابن الأثير في تاريخه: (و أقبلت إليه أفواج القبائل من الحلل التي حوله شرقاً وغرباً وبايعوه. وأطاعه قبيلة هنتاتة وهي من أقوى القبائل فأقبل عليهم واطمأن إليهم، و أتاه رسلِ أهل تينملل بطاعتهم وطلبوه إليهم فتوجه إلى جبل تينملل

واستوطنه وألف لهم كتاباً في التوحيد وكتاباً في العقيدة ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن، وهو يحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بين أطهرهم. و أقام بتينملل وبنى له مسجداً خارج المدينة فكان يصلي فيه الصلوات هو وجمع مس معه عنده ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة، فلما رأى كثرة أهل الجبل وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه فأمرهم أن يحضروا بغير سلاح ففعلوا ذلك عدة أيام ثم إنه أمر أصحابه أن يقتلوهم فخرجوا عليهم وهم غارون فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر وسبى الحريم ونهب الأموال فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفاً،وقسم المساكن والأرض بين أصحابه وبنى على المدينة سورا وقلعة على رأس جبل عالٍ).

لقد كان ابن تومرت يبث في أنصاره عقيدة أساسية تشكل لب مذهبه، ألا وهي أنه هو المهدي المنتظر وأنه الإمام المعصوم (أنا المهدي المعصوم، أنا أحسن الناس معرفة بالله ورسوله).

وكان ابن تومرت يوصي أتباعه بحرق أعدائهم من المرابطين لأنهم أعداء الإمام المعصوم، يقول اليسع كما ينقل عنه الذهبي في سيره: (وكل ما أذكره من حال المصامدة، فقد شاهدته، أو أخذته متواترًا، وكان في وصيته إلى قومه إذا ظفروا بمرابط أو تلمساني أن يحرقوه).

ـ يصف شخصيته الدموية ابن القيم في كتابه المنار المنيف:

(أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت، فإنه رجل كذّاب ظالم متغلب بالباطل، ملك بالظلم والتغلب والتحيل، فقتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وكان شرًّا على الملة من الحجاج ابن يوسف بكثير. وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء، يأمرهم أن يقولوا للناس: إنه المهدي الذي بشّر به النبى ﷺ، ثم يردم عليهم

ليلا، لئلا يكذِّبوه بعد ذلك، وسمى أصحابه الموحدين، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم والإيمان، وتسمى بالمهدي المعصوم).

- ويروي ابن الأثير مجزرة يوم التمييز الذي قتل فيها المئات من أبناء القبائل التي تواليه، يقول: (سمعت جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون يوم التمييز، وهو أن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنكم لا يصح لكم دين، ولا يقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم، فابحثوا عن كل ما عندكم من أهل الشر والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهوا، وإلا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها إلى لأنظر في أمرهم، ففعلوا ذلك، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة، ثم أمرهم بذلك مرة ثانية، وثالثة، ثم جمع المكتوبات فأخذه منها ما تكرر من الأسماء، فأثبتها عنده، ثم جمع الناس قاطبة، ورفع الأسماء التي كتبها، ودفعها إلى الونشريشى المعروف بالبشير، وأمره أن يعرض القبائل، ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال، ومن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك، وأمر أن يكتف من على شمال الونشريشي، فكتفوا، وقال: إن هؤلاء أشقياء قد وجب قتلهم، وأمر كل قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم، فقتلوا عن آخرهم فكان يوم التمييز).

- ومن أخبار يوم التمييز ما رواه الأمير عزيز في *أخبار القيروان*: (وكان في القبائل مفسدون، فطلب ابن تومرت مشايخ القبائل ووعظهم، وقال: لا يصلح دينكم إلا بالنهي عن المنكر، فابحثوا عن كل مفسد، فانهوه، فإن لم ينته، فاكتبوا إلي أسماءهم، ففعلوا، ثم هدد ثانيا، فأخذ ما تكرر من الأسماء، فأفردها، ثم جمع القبائل، وحضهم على أن لا يغيب منهم أحد، ودفع تلك الأسماء إلى البشير، فتأملها، ثم عرضهم رجلا رجلا، فمن وجد اسمه، رده إلى الشمال، ومن لم يجده، بعثه على اليمين، ثم أمر بتكتيف أهل

الشمال، وقال لقراباتهم: هؤلاء أشقياء من أهل النار، فلتقتل كل قبيلة أشقياءها، فقتلوهم، فكانت واقعة عجيبة، وقال: بهذا الفعل صح دينكم، وقوي أمركم).

ويقول بعض المؤرخين: إن عدد ضحايا يوم التمييز بلغ سبعين ألفا، يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: (فالذي صح عندي أنهم قتل منهم سبعون ألفا على هذه الصفة، ويسمونه التمييز).

وقال أيضا: (عظمت فتنة القوم به حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم لقسوتهم وغلظ طباعهم وإقدامهم على الدماء).

توفي عام ٥٢٤ هـ. يقول الذهبي في واقعة وفاته: (في أول سنة أربع وعشرين وخمسمائة جهز عشرين ألف مقاتل عليهم البشير، وعبد المؤمن بعد أمور يطول شرحها، فالتقى الجمعان، واستحر القتل بالموحدين، وقتل البشير، ودام الحرب إلى الليل، فصلى بهم عبد المؤمن صلاة الخوف، ثم تحيز بمن بقي إلى بستان يعرف بالبحيرة، فراح منهم تحت السيف ثلاثة عشر ألفا، وكان ابن تومرت مريضا، فأوصى باتباع عبد المؤمن، وعقد له، ولقبه أمير المؤمنين، وقال: هو الذي يفتح البلاد، فأعضدوه بأنفسكم وأموالكم، ثم مات في آخر سنة أربع وعشرين وخمسمائة).

سير أعلام النبلاء: (يقول ابن خلكان: قبره بالجبل معظم، مات كهلا، وكان أسمر ربعة، عظيم الهامة، حديد النظر مهيبا، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطون ربطه وحله، حتى دب دبيب الفلق في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفا بزيت، أو قليل سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوما، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر

بإحراق جميعه، وقال: من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغي الآخرة، فجزاؤه عند الله، وكان يتمثل كثيرا:

تجرد من الدنيا فإنك* إنما خرجت إلى الدنيا و أنت مجرد

ولم يفتتح شيئا من المدائن، و إنما قرر القواعد، ومهد، وبغته الموت، و افتتح بعده البلاد عبد المؤمن).

لقد كان ابن تومرت يحتال على الناس ليتبعوه ويوالوه، كما أسفلنا، من ذلك ما رواه ابن خلكان عن طريق الذهبي في سيره: (بلغني -فيما يقال-: إن ابن تومرت أخفى رجالا في قبور دوارس، وجاء في جماعة ليريهم آية، يعني فصاح: أيها الموتى أجيبوا، فأجابوه: أنت المهدي المعصوم، و أنت و أنت. ثم إنه خاف من انتشار الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا.

وبكل حال، فالرجل من فحول العالم، رام أمرا، فتم له، وربط البربر بادعاء العصمة، و أقدم على الدماء إقدام الخوارج، ووجد ما قدم.

وله في يوم التمييز حيلة رهيبة أيضا تمكن بها من قتل الآلاف الناس فلما كان سنة تسع عشرة وخاف المهدي من أهل الجبل خرج يوماً لصلاة الصبح فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب طيب الريح فأظهر أنه لا يعرفه وقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريشي. فقال له المهدي: إن أمرك لعجب ثم صلَى فلما فَرَغ من صلاته نادى في الناس فحضروا فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي فانظروه وحققوا أمره فلما أضاء النهار عرفوه. فقال له المهدي: ما قصتك قال: إنني أتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدي بحضرة الناس ثم قال له: نحن نمتحنك فقال: افعل. و ابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم: إن الله تعالى قد

أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي. فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر وصلى المهدي عند رأسها وقال: يا ملائكة الله إن أبا عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت فقال من بها: صَدَقْ وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلما قيل ذلك من البئر قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة والمصلحة أن تطم لئلا يقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته فيقول: هذا من أهل النار فيلقى من الجبل مقتولاً وإلى الشاب الغر ومن لا يخشى فيقول: هذا من أهل الجنة. فيترك على يمينه. فكان عدة القتلى سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره، هكذا سمعت جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز).

من شعره الذي كان يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

إلي وفي النفس أشياء مخبأة * لألبس لها درعاً وجلبابا
كيما أطهر دين الله من دنس * وأوجب الفضل للسادات إيجابا
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها * ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبي

محمد تغلق شاه (١٢٩٠ م – ١٣٥١م).

محمد تغلق شاه، أحد سلاطين الهند، تولى السلطنة بعد موت أبيه لمدة خمسة وعشرين عاما، وفي عهده تعرضت دولته لخطر غزو المغول ولكنه تمكن من اتقائهم بالمسايسة وإهدائهم النفائس والعطايا فرجعوا عن بلاده، اشتهر بسفكه للدماء وقتل كل من يعارضه على أقل الأسباب وأصغرها.

وقد أورد بعض حكاياته ابن بطوطة في كتابه *تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* نوردها في التالي:

- ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه، وقد قدمنا أنه كان اسمه جونه، فلما ملك تسمى بمحمد، واكتنى بأبي المجاهد. وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة، وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده.

هذا الملك أحب الناس في إسداد العطايا وإراقة الدماء، فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي يقتل، وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة، وحكاياته في الفتك والبطش بذوي الجنايات، وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق، وشعائر الدين عنده محفوظة، وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها، وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتاد يمن نقيبتهم، ولكن الأغلب عليه الكرم، وسنذكر من أخباره فيه عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه، وأما أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً، وأعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسوغ في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته

وأخذت بحظ و افر منه، لا يسعني إلا قول الحق فيه، وأكثر ذلك ثابت بالتو اتر في بلاد المشرق.

وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة، آمراً بملازمتها في الجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب، ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنياً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب، حتى انتهى إلى عقاب الستائريين الذين يمسكون دواب الخدام على باب المشور إذا ضيعوا الصلاة، وأمر أن يطلب الناس بعلم فر ائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والأسواق ويكتبونها.

وكان على ما قدمنا من تواضعه و إنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة، كثير التجاسر على إر اقة الدماء، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر، وكنت كثيراً ما أرى الناس يقتلون على بابه، ويطرحون هنالك. ولقد جئت يوماً فنفر بي الفرس، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت: ما هذه؟ فقال بعض أصحابي: هي صدر رجل قطع ثلاث قطع.

-وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة، ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف، وفي كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدون مئون فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب، أو للضرب ضرب، وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور، ما عدا يوم الجمعة، فإنهم لا يخرجون فيه، وهو يوم راحتهم، يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء.

ـ **ذكر قتلة لأخيه**: كان له أخ اسمه مسعود خان، وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه،

وسأله عن ذلك فأقر خوفاً من العذاب، فإن من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب، فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب، فأمر به، فضربت عنقه في وسط السوق، وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام على عادتهم. وكانت أم هذا المقتول قد رجمت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين، لاعترافها بالزنا، رجمها القاضي كمال الدين.

- **ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة**: وكان مرة عين حصة من العسكر، تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار، ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلي، فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم، فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة، ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك، وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا.

- **ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله**: كان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده، حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء، وكان يواصل أربعة عشر يوماً. وكان السلطان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به، فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته، فإن عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء، محتجاً أن الصدر الأول رضي الله عنهم، لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلحاء، فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام، فأظهر الإباية والامتناع، فغضب السلطان من ذلك، وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن ينتف لحيته، فأبى ضياء الدين من ذلك، وقال: لا أفعل هذا. فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتف، ونفي ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل، فمات بها، ونفي شهاب الدين إلى دولة

آباد، فأقام بها سبعة أعوام، ثم بعث عنه، فأكرمه وعظمه، وجعله على ديوان المستخرج، وهو ديوان بقايا العمال، يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل، ثم زاد في تعظيمه، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه، ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه، ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكنك، وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار، معناه شبه الجنة، وأمر الناس بالبناء هنالك، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضرة، فأذن له إلى أرض موات، على مسافة ستة أميال من دهلي، فحفر بها كهفاً كبيراً، صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام، وجلب الماء من نهر جون، وعمر تلك الأرض، وجمع مالاً كثيراً من مستغلها لأنها كانت السنون قاحطة، و أقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان. وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهاراً، ويدخلون الغار ليلاً ويسدونه على أنفسهم و أنعامهم، خوف سراق الكفار، لأنهم في جبل منيع هنالك، ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها، فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه، وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام، فامتنع من إتيانه فبعث إليه مخلص الملك الندرباري، وكان من كبراء الملوك، فتلطف له في القول، وحذره بطش السلطان فقال له: لا أخدم ظالماً أبداً. فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك فأمر أن يأتي به، فأتى به فقال له: أنت القائل: إني ظالم. فقال: نعم أنت ظالم ومن ظلمك كذا و كذا. وعدد أموراً منها تخريبه لمدينة دهلي، وإخراجه أهلها. فأخذ السلطان سيفه، ودفعه لصدر الجهان، وقال: يثبت هذا أني ظالم و اقطع عنقي بهذا السيف. فقال له شهاب الدين: ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك. فأمر بتسليمه للملك نكبية، رأس الدويدارية، فقيده بأربع قيود، وغل يديه و أقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً، لا يأكل ولا يشرب وفي كل

يوم منها يؤتى بها إلى المشور، ويجمع الفقهاء والمشايخ، ويقولون له: إرجع عن قولك. فيقول: لا أرجع عنه وأريد أن أكون في زمرة الشهداء. فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك، فأبى أن يأكل، وقال: رفع رزقي من الأرض ارجع بطعامك إليه. فلما أخبر بذلك السلطان، أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار "أساتير" من العذرة، وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب، فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور، وهم طائفة من كفار الهنود، فمدوه على ظهره، وفتحوا فمه بالكلبتين، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك، وفي اليوم بعده أتى به إلى دار القاضي صدر الجهان، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة فوعظوه، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله، فأبى ذلك، فضربت عنقه، رحمه الله تعالى.

- ذكر قتله للفقيه المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقيهين معه:

كان السلطان في سني القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك، وأن يزرع هنالك زرع، وأعطى الناس البذر، وما يلزم على الزراعة من النفقة، وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين، فقال: هذا الزرع لا يحصل المراد منه. فوشي به إلى السلطان فسجنه، وقال له: لأي شيء تدخل نفسك في أمور الملك؟ ثم إنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه في طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء، فقالا له: الحمد لله على خلاصك. فقال الفقيه: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين. وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال: اذهبوا بهذا (يعني عفيف الدين) فاضربوا عنقه حمائل (وهو أن يقطع الرأس من الذراع وبعض الصدر) واضربوا أعناق الآخرين. فقالوا له: أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فبأي جريمة تقتلنا؟ فقال: طالما أنكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما و افقتما عليه. فقتلوا جميعاً رحمهم الله تعالى.

ذكر قتله أيضاً لفقيهين من أهل السند كانا في خدمته:

أمر السلطان هذين الفقيهين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد، وقال لهما: إنما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما، ويكون هذا الأمير معكما، يتصرف مما تأمرانه به، فقالا له: إنما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه. فقال لهما: إنما قصدكما أن تأكلا أموالي وتضيعاها، وتنسبا ذلك إلى هذا التركي الذي لا معرفة له. فقالا له: حاشا لله يا خوند عالم ما قصدنا هذا. فقال لهما: لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوندي. وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما إليه، فقال لهما: السلطان يريد قتلكما فأقرا بما قولكما إياه ولا تعذبا أنفسكما. فقالا: والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا. فقال لزبانيته: ذوقوهما بعض شيء. (يعني من العذاب)، فبطحا على أقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة، ثم قلعت بعد هنيهة، فذهب بلحم صدورهما، ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل، فلا حق لهما ولا دعوى في دمائهما دنيا ولا أخرى، وكتبا خطهما بذلك، واعترفا به عند القاضي، فسجل على العقد، وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار ولو قالا: أكرهنا لعذبا أشد العذاب، ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم فقتلا رحمهما الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ هود: وكان الشيخ زاده، المسمى بهود، حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين بن بهاء الدين ابن أبي زكريا الملتاني، وجده الشيخ ركن الدين، معظماً عند السلطان، وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيهاً بالسلطان، وقتل يوم وقيعة كشلوخان، ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته، فتوفي الشيخ ركن الدين، وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ

هود، ونازعه في ذلك ابن أخي الشيخ ركن الدين، وقال: أنا أحق بميراث عمي. فقدما على السلطان، وهو بدولة آباد وبينهما وبين ملتان ثمانون يوماً، فأعطى السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ، وكان كهلاً، وكان ابن أخي الشيخ فتى وأكرمه السلطان، وأمر بتضييفه في كل منزل يحله، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان، وتصنع له فيه دعوة. فلما وصل الأمر للحضرة، خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه وكنت فيمن خرج إليه، فتلقيناه وهو راكب في دولة يحملها الرجال، وخيله مجنوبة، فسلمنا عليه، و أنكرت أنا ما كان من فعله في ركوبه الدولة، وقلت: إنما كان ينبغي له أن يركب الفرس، ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ. فبلغه كلامي، فركب الفرس، واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس، ودخل الحضرة، وصنعت لها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدداً كثيراً وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة، ومد السماط و أتوا بالطعام على العادة، ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه، فأعطي قاضي القضاة خمسمائة دينار، وأعطيت أنا مائتين وخمسين ديناراً، وهذه عادة لهم في الدعوى السلطانية، ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده، ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك، واستقر بزاويته، و أقام بها أعواماً، ثم إن عماد الملك، أمير بلاد السند، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الأموال وإنفاقها في الشهوات، ولا يطعمون أحداً بالزاوية، فنفذ الأمر بمطالبتهم بالأموال، فطلبهم عماد الملك بها، وسجن بعضهم، وضرب بعضاً، وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام، حتى استخلص ما كان عندهم، ووجد لهم كثيراً من الأموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت،

بيعا بسبعة آلاف دينار، قيل: إنهما كانا لبنت الشيخ هود، وقيل لسرية له، فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان، فأمره أن يبعثه ويبعث الذي قبض عليه كليهما في حكم الثقاف، فلما وصلا إليه، سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هود: أين أردت أن تفر؟. فاعتذر بعذر فقال له السلطان: إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك فتقول: أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا وقد فعل السلطان معي كذا، وتأتي بهم لقتالنا. اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

- **ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده:** وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين، ساكناً بمدينة كول، منقطعاً للعبادة، وكان كبير القدر، ودخل السلطان إلى مدينة كول، فذهب عنه فلم يأته فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف، ولم يره، و اتفق بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات، وبايعه الناس: فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين، فأثنى عليه، وقال: إنه يصلح للملك. فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ فقيده، وقيد أولاده، وقيد قاضي كول، ومحتسبها، لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعاً، بعد أن سمل عيني القاضي، وعيني المحتسب. ومات الشيخ بالسجن، وان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس، ثم يردان إلى السجن، وكان قد بلغ السلطان، أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصبحونهم، فلما مات أبوهم، أخرجهم من السجن، وقال لهم: لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون. فقالوا له: وما فعلنا؟ فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا، ثم استحضر القاضي المذكور، فقال أخبرني بما كان يرى رأي هؤلاء الذين قتلوا، ويفعل مثل أفعالهم فأملى

أسماء رجال كثيرين من كفار البلد، فلما عرض ما أملاه على السلطان. قال: هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ الحيدري: وكان الشيخ علي الحيدري ساكناً بمدينة كنباية من ساحل الهند، وهو عظيم القدر، شهير الذكر، بعيد الصيت، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة وإذا قدموا بدأوا بالسلام عليه وكان يكاشف بأحوالهم، وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فإذا أتى الشيخ للسلام عليه، أعلمه بما نذر له، وأمر بالوفاء به و اتفق له ذلك مرات، واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الأفغاني وقبيلته بتلك الجهات، بلغ السلطان أن الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين، وأعطاه شاشيته من رأسه، وذكر أيضاً أنه بايعه، فلما خرج السلطان إليهم بنفسه، وانهزم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت، أحد الو افدين معنا عليه بكنباية، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم، فأحضر الشيخ علي الحيدري بين يديه، وثبت أنه أعطى للقائم شاشيته ودعا له، فحكموا بقتله، فلما ضربه السياف لم يفعل شيئاً وعجب الناس لذلك، وظنوا أنه يعفو عنه بسبب ذلك، فأمر سيافاً آخر بضرب عنقه، فضربها رحمه الله تعالى.

ذكر قتله لطوغان وأخيه: وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغاني فوفدا على السلطان، فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلاً و أقاما عنده مدة، فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما، وحاولا الفرار، فوشى بهما أحد أصحابهما إلى السلطان فأمر بتوسيطهما، فوسطا، وأعطي للذي وشى بهما جميع مالهما، وكذلك عادتهم بتلك البلاد إذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل، أعطي ماله.

ذكر قتله لابن ملك التجار: وكان ابن ملك التجار شاباً صغيراً لا نبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامته وقتاله للسلطان، غلب على ابن ملك التجار هذا، فكان في جملته مقهوراً، فلما هزم عين الملك، وقبض الملك عليه وعلى أصحابه، كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك، فأمر بهما، فعلقا من أيديهما في خشب، وأمر أبناء الملوك، فرموهما بالنشاب حتى ماتا، قال الحجب خواجه أمير علي التبريزي لقاضي القضاة كمال الدين: ذلك الشاب لم يجب عليه القتل. فبلغ ذلك السلطان فقال: هلا قلت هذا قبل موته؟ وأمر به فضرب مائتي مقرعة أو نحوها، وسجن، وأعطى جميع ماله لأمير السيافين، فرأيته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه، وجعل قلنسوته على رأسه، وركب فرسه، فظننت أنه هو و أقام بالسجن شهوراً ثم سرحه، ورده إلى ما كان عليه، ثم غضب عليه ثانية، ونفاه إلى خراسان فاستقر بهراة، وكتب إليه يستعطفه، فوقع له على ظهر كتابه أربار آمدي باز "آي" معناه أن كنت تبت فارجع، فرجع إليه.

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات: وكان قد ولي خطيب الخطباء بدهلي النظر في زانة الجوهر في السفر، فاتفق أن جاء سراق الكفار ليلاً فضربوا على تلك الخزانة، وذهبوا بشيء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات رحمه الله تعالى.

ـ **ذكر تخريبه لدلهي ونفي أهلها وقتل الأعمى والمقعد:** ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان إجلاؤه لأهل دلهي عنها، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه، ويختمون عليها، ويكتبون عليها، وحق رأس خوند عالم، ما يقرأها غيره ويرمونها بالمشور ليلاً، فإذا فضها وجد شتمه وسبه، فعزم على تخريب دلهي، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ومنازلهم، ودفع لهم ثمنها، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد، فأبوا ذلك، فنادى

مناديه أن لا يبقى فيها أحد بعد ثلاث، فانتقل معظمهم، واختفى بعضهم في الدور، فأمر بالبحث عمن بقي بها، فوجد عبيده بأزقتها رجلين: أحدهما مقعد والآخر أعمى، فأتوا بهما فأمر بالمقعد فرمي به في المنجنيق، وأمر أن يجر الأعمى من دلهي إلى دولة آباد، مسيرة أربعين يوماً فتمزق في الطريق، ووصل منه رجله، ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعاً، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها، فحدثني من أثق به قال: صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره، فنظر إلى دلهي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال: الآن طاب قلبي وتهدن خاطري. ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دلهي ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دلهي لاتساعها وضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا، وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية، ليس بها إلا قليل عمارة.

أمر السلطان بقطع أشجار إحدى الغابات في مملكته وأسر كل من يعثر عليه من الكفار الهنود في تلك الغابة، فكانوا إذا قبضوا على أسرى من هؤلاء صنعوا خشبة محددة الطرفين وأجبروه على حملها ومعه امرأته وأولاده، وفي الصباح يقسم الأسرى أربعة أقسام ويؤتى إلى كل باب من أبواب الكتكر (أي المعسكر) بقسم مهم فتركز الخشب التي حملوها بالأمس ثم يركزون عليها حتى تنفذ في أجسامهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن إلى الخشبات التي قتل عليها أزواجهن، ثم يذبح الأولاد الصغار في حجورهن ويتركون هناك، ثم يشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك، وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك.

رأيته يوما والقاضي عن يمينه و أنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أتى بكافر معه امرأته وولده وسنه سبع سنوات، فأشار إلى السيافين أن يقطعوا رأسه، وقال لهم: و ابنه وزوجته. فقطعت رقابهم وصرفت بصري عنهم، فلما قمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض.

حضرت عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه، فإذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت إلى القيام، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: أصلي العصر. ففهم قصدي وضحك، وأمر بقطع يديه ورجليه، فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه.

المعتضد بالله بن عباد (٤٠٧ هـ - ٤٦١ هـ).

أبو عمرو، عبّاد بن محمد بن الأندلسي، أحد ملوك الطوائف، خلف أباه على حكم إشبيلية، وأصبح ثاني حكام بني عباد الذين حكموا أقوى دول الطوائف في الأندلس، حتى سقوطها بيد المرابطين.

بعد أن أصبح عباد ملكا تلقب بالمعتضد، وكان مهيبا شجاعا، ونودي وقتا بأمير المؤمنين، إلا أنه كان طاغية جبارا سريعا إلى سفك الدماء، وقد قتل جماعة صبرا، واتخذ في قصره خشبا جللها برؤوس ملوك ورؤساء قتل بهم غدرا وحربا، جاء عنه في أسفار المؤرخين مما يلي:

- سير أعلام النبلاء (ج ١٨): (وكان شهما، مهيبا، شجاعا، صارما، جرى على قاعدة أبيه مدة، ثم خوطب بأمير المؤمنين. قتل جماعة صبرا، وصادر الكبار، وتمكن. اتخذ في قصره خشبا جللها برءوس أمراء وكبار وكانوا يشبهونه بالمنصور، لكن مملكة هذا سعة ستة أيام، ومملكة أبي جعفر مسيرة ثمانية أشهر في عرض أشهر، وقد هم ابنه بقتله فما تم له، وسجنه أبوه ثم قتله، ثم عهد بالملك إلى ابنه المعتمد محمد وكان جبارا عسوفا).

- قال عنه ابن بسام في *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة *: (رجل لم يثبتْ له قائمٌ ولا حصيدٌ، ولا سَلِمَ عليه قريبٌ ولا بعيدٌ، جبَّارٌ أَبْرَمَ الأمور وهو متناقض، وأسدٌ فَرَسَ الطُّلَى وهو رابض، متهوِّر تتحاماه الدهاة، وجبَّارٌ لا تَأمَنُه الكماة، متعسِّف اهتدى، ومُنْبَتٌّ قطع فما أبقى، ثار والناسُ حربٌ، وكلُّ شيءٍ عليه إِلْب، فكفى أقرانَهُ وهم غيرُ واحد، وضبَط شانَه بين قائم وقاعد، حتى طالت يدُه، واتَّسع بلدُه، وكثر عديدُه وعُدَدُه... جبَّارًا من جبابرة الأنام، شَرَّدَ به مَنْ خلْفَه... حَرْبُهُ سمٌّ لا يُبطئ، وسهم لا يُخطئ).

- وقال عنه ابن حيان في *المقتبس في تاريخ الأندلس*: (ذو الأنباء البديعة، والحوادثِ الشنيعة، والوقائعِ المُبيرة، والهِمَم العليَّة، والسطوة الأبيَّة... حُمِلَ عليه على مرِّ الأيام، في باب فَرْطِ القسوة وتجاوُز الحدود، والإبلاغ في المُثْلَةِ، والأخذ بالظِّنَّةِ، والإخْفَار للذمَّة، حكاياتٌ شنيعة لم يبدُ في أكثرها للعالم بصدقها دليلٌ يقومُ عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما بَرِئَ من مغبَّتها فلم يَبْرَأْ من فظاعة السطوة وشدَّة القسوة، وسوء الاتِّهام على الطاعة).
- الوافي بالوفيات للصفدي (ج ٥): وقال فيه الحجازي: وهذا الرؤوف العطوف، الدمث الأخلاق الألوف، ما مات حتى قبض أرواح ندمائه وخواصه بيده، ولم يكلهم إلى غيره، ولا أحوجهم إلى الحاجة بعده، فجزي عنهم بما هو أهله؛ وكان قد عرف منه ذلك واشتهر، فصار الأدباء يتحامونه. ولما وفد أبو عبد الله ابن شرف القيروا ني على الأندلس تطلعت إليه همم ملوكها لبعد صيته، فكان ممن استدعاه المعتضد ابن عباد، وكان ابن شرف قد امتلأت مسامعه من أخباره الشنيعة.

ومن شنيع ما روي عنه أن غلاماً دون البلوغ دخل عليه بدون استئذان، فقطع رأسه؛ وسمع جارية تقول: القبر والله أحسن من سكنى هذا القصر، فقال: والله لأبلغنك ما طلبته، وأمر بها فدفنت حية. وتعجب الناس من وزيره ابن زيدون كيف انفرد بالسلامة منه، فقال: كنت كمن يمسك بأذني الأسد، يتقي سطوته تركه أو أمسكه، وفيه يقول عند موته:

لقد سرنا أن الجحيم موكل... بطاغية قد حم منه حمام

تجانف صوب المزن عن ذلك الصدى... ومر عليه الغيث وهو جهام

(تاريخ الأندلس الإسلامية للسان الدين بن الخطيب):

(كان شديد الجرأة، قوي المنة،عظيم الجلادة، مستهينا بالدماء).

- سير أعلام النبلاء (ج ١٩): (وكان شهما، صارما، داهية، ذبح جماعة من أعوان أبيه، وصادرهم، وعلا شأنه، ودانت له الأمم.

غرز خشبا في قصره، وعممها برءوس كبار وملوك، وكانوا يشبهونه بالمنصور العباسي. ورام ابنه إسماعيل اغتياله، فأخذه، وضرب عنقه، وعهد إلى ابنه المعتمد.

من جبروته وعتوه أنه أخذ مالا لأعمى، فهج وجاور بمكة، فبلغ المعتضد أنه يدعو عليه، فندب رجلا أعطاه جملة دنانير مطلية بسم، فسار إلى مكة، وأوصله الذهب، فقال: يظلمني بإشبيلية، ويصلني هنا؟! ثم وضع منها دينارا في فمه كعادة الأضراء، فمات من الغد.

وهرب منه مؤذن إلى طليطلة، فبقي يدعو عليه في السحر، فنفذ من جاءه برأسه.

وقد سكر ليلة، وخرج في الليل معه غلام، وسار مخمورا، حتى وافى قرمونه وصاحبها إسحاق البرزال، وبينهما حروب، وكان يشرب أيضا في جماعة، فاستأذن المعتضد، ودخل، فزاد تعجبهم، فسلم وأكل، وأل من سكره، وسقط في يده، لكنه تجلد، ثم قال: أريد أن أنام، ففرشوا له، فتناوم، فقال بعضهم: هذا كبش سمين، والله لو أنفقتم ملك الأندلس عليه ما قدرتم، فقال معاذ بن أبي قرة: كلا، رجل قصدنا، ونزل بنا مستأمنا، لا تتحدث عنا القبائل أنا قتلنا ضيفنا، ثم انتبه وقام، فقبلوا رأسه، وقال للحاجب: أين نحن؟ قال: بين أهلك وإخو انك. قال: هاتوا دواة، فكتب لكل منهم بخلعة ومال و أفراس وخدم، وأخذ معه غلمانهم لقبض ذلك، وركب، فمشوا في خدمته. لكن أساء كل الإساءة، طلبهم بعد أشهر لوليمة، فأتاه

ستون منهم، فأكرمهم، و أنزلهم حماما، وطينه عليهم سوى معاذ، وقال لمعاذ: لم ترع، حضرت آجالهم، ولولاك، لقتلوني، فإن أردت أن أقاسمك ملكي، فعلت، قال: بل أقيم عندك، وإلا بأي وجه أرجع، وقد قتلت سادات بني برزال، فصيره من كبار قواده، وكان من كبار قواد المعتمد).

الأمير خاير بك (١٤٦٢ـ ١٥٢٢).

آخر والٍ لدولة المماليك في حلب وأول أمير عثماني لمصر، وقد مارس في ولايته لمصر ألوان من التعسف والجبروت والطغيان.

كان جنديا لدى السلطان الأشرف قايتباي، ثم تدرج في المناصب حتى بلغ رتبة حاجب الحجاب في عهد السلطان قنصوه الغوري، آخر سلاطين دولة المماليك البرية، الذي عينه واليا على حلب.

في عام ١٥١٦ اعد السلطان العثماني سليم الأول حملة لمهاجمة الدولة الصفوية، فشعر السلطان قنصوه بالخطر لأن العثمانيين يسعون إلى احتلال مصر والشام منذ زمن بعيد، فجهز جيشا وتوجه إلى حلب.

وكانت مخاوف قنصوه على حق فقد كان السلطان سليم الأول يحاول استمالة خاير بك إلى جانبه، ووعده بأنه سوف يوليه مصر إذا ما انضم إلى جانب الدولة العثمانية، فوافق خاير بك على العمل سرا لدى السلطان سليم الأول وأن يكون تابعا له، وعندما وصل جيش السلطان قنصوه حاول خاير أن يثنيه عن محاربة العثمانيين قائلا له بأنهم يريدون محاربة الصفويين وأن لا خطر على المماليك منهم، ولكن قنصوه أصر على موقفه وعين خاير قائدا لميسرة جيش المماليك.

وفي نفس العام اندلعت المعركة المرتقبة بين العثمانيين والمماليك في "مرج دابق"، وكاد جيش قنصوه ينتصر على قوات السلطان سليم الأول، لولا خيانة خاير بك الذي انضم بقواته إلى الجيش العثماني وزوده بمعلومات مهمة عن نقاط ضعف الجيش المماليك، مما أدى إلى تغير مسار المعركة واستعادة العثمانيين للمبادرة العسكرية، فانهزم جيش المماليك وقتل السلطان قنصوه الغوري.

دخل سليم الأول حلب ومعه خاير بك الذي خلع لباس المماليك وارتدى اللباس التركي وحلق ذقنه وتشبه بالأتراك، فسماه السلطان العثماني خاين بك!

ثم إن خاير بك تقدم سيده الجديد إلى دمشق على رأس مفرزة من الجيش العثماني، ولما دخلها بجنوده هجموا على البيوت وأخرجوا الناس منها ونهبوا وسرقوا، يقول ابن طولون الصالحي في *حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني لبلاد الشام*: (وهجم العسكر عليها وعلى ضواحيها للسكنى، فأخرجت أناسا كثيرة من بيوتها، ورميت حوائجهم ومؤنهم، وخرج جمع من النساء الحبالى، وحصل للناس لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قط).

ثم إن العثمانيين زحفوا نحو مصر وكان في مقدمتهم خاير بك، ولما اقتربوا من القاهرة كان بانتظارهم جيش السلطان المملوكي الجديد الأشرف طومان، فتواجه الجيشين في معركة "الريدانية"، إلا أن جيش المماليك كان قليل العدد، ما كان له أن ينتصر على جيش الأتراك القوي عددا وعدة، فانهزم المماليك ودخل العثمانيون القاهرة، بينما ظل الأشرف طومان يقاوم جيشهم ويشن عليه غارات متقطعة حتى ضاقوا به ذرعا، وكان طومان مختبئا عند شيخ من العربان، فغدر به وسلمه للعثمانيين، بيد أن السلطان العثماني أبدى إعجابه بشجاعته واستبساله في الدفاع عن ملكه، وقال: مثل هذا لا يقتل. إلا أن خاير بك وسوس في نفس السلطان بقتله لكي يضمن ملك مصر وعدم عودة المماليك، فأمر بقتله فقتل، وأصبحت مصر بذلك ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة للخلافة الإسلامية العباسية الثانية وبلدا مستقلا.

ثم إن سليم الأول عين خاير بك واليا على مصر ورحل إلى الأناضول، تاركا مصر في عهدة الرجل الذي خان ولي نعمته، إلا أنه وضع ثقته فيه ورأى أنه الرجل المناسب لحكم مصر التي بدأت معه عهد حديد ونار استمر زهاء خمس سنوات، جاء في موسوعة العذاب (ج ٦): (وكان الأمير خاير بك حاكم مصر عن السلطان العثماني سليم الأول ظالما قاسيا، قتل ما لا يحصى من الخلائق، وشنق رجلا على عود خيار شنبر، وشنق جماعة كثيرة من الناس، ووسط، وخوزق، و اقترح لهم أشياء في عذابهم، فكان يخوزقهم في أضلاعهم، ويسميه شك الباذنجان، وقتل بمصر أكثر من عشرة آلاف رجل، راح أغلبهم ظلما).

في عهد خاير بك، راج الإعدام بالخازوق، وظهر منه نوع جديد، وعرف عن خاير بأنه كان يأمر بإعدام الناس على أبسط الأمور، كسرقة الخيار من أرض مزروعة! وكثيرا ما كان يصدر أوامر الإعدام وهو في حالة من السكر الشديد، ذهب ضحيته عدد كبير من الأشخاص.

جاء في *بدائع الزهور في وقائع الدهور* لابن إياس: (كان جباراً عنيداً، سفاكاً للدماء، قتل في مدة ولايته على مصر ما لا يحصى من الخلايق، واخترع طريقة جديدة في القتل عن طريق إدخال الخازوق في الأضلاع وكان يسميها "شك الباذنجان"، وأتلف نقود الديار المصرية، وعزل القضاة الأربعة، وزادت كراهيته لرجال العلم والفقهاء، أما أفدح مساوئه، فإنه كان سبباً في خراب مصر، لقد حسن لسليم شاه أخذ مصر، وضمن له أخذها، وعرفه كيف يصنع. كان كثير الحيل. والخداع والمكر. لا يعرف له حال).

وكان لخاير بك عدد من القرارات والمراسيم الغريبة والمضحكة جعلته فاكهة المجالس في القاهرة وعموم ديار مصر، منها تنظيمه مصارعة للثيران في القلعة، وأمره الناس بإحضار ثيرانهم من اجل ذلك، وإصداره قرارا بقتل

الكلاب وتعليقها على أبوب الدكاكين بعد تقطيعها إلى نصفين! فقتل في يوم واحد ٥٠٠ كلب! حتى تشفع الناس في الكلاب فأمر خاير بك بإيقاف قتلها!

إلا أن خاير لم يتب عن مراسيمه التي تحجر على الناس وتمنعهم استقامة حياتهم، فأصدر مرسوما يقضي بمنع الغناء في الشوارع، وإغلاق الأسواق بعد المغرب، ومنع الزفاف بعد العشاء، إلا أن العديد من المؤرخين يقولون بأن هذه المراسيم كانت بسبب جرائم الخطف والاغتصاب التي كان يقوم بها الجنود الانكشارية (فرقة عسكرية عثمانية لها خصوصيتها وقيادتها المستقلة)، حيث كانوا يخطفون الفتيات والصبيان ويغتصبوهم، ويسرقون الأغنام والبقر من المزارع، ويغيرون على المتاجر فيسرقونها، وكان خاير بك لا يقدر عليهم.

في عام ١٥٢٠ توفي السلطان سليم الأول وخلفه السلطان سليمان الأول القانوني.

في عام ١٥٢١ وصل مندوب من السلطان العثماني سليمان القانوني يأمر فيها خاير بك أن يلزم المصريين بأن يتعاملوا بالمكاييل والأوزان العثمانية، فأصدر خاير بك مرسوما بذلك وتوعد المخالفين بالشنق على أبواب دكاكينهم.

كما أصدر خاير بك مرسوما بدفع ضريبة على الزواج والطلاق، يقول ابن إياس في *بدائع الزهور*: (فصار الذي يتزوج أو يطلق تقع غرامته نحو أربعة أشرفية، فامتنع الزواج والطلاق في تلك الأيام، وبطلت سنة النكاح والأمر لله في ذلك).

وعين خاير شخصا اسمه "ابن الجاكيه" في وظيفة أسماها "مفتش الرزق" مهمته البحث في دفاتر موظفي الدولة وعامة الناس عن أقطاعات وممتلكات أخذوها من دون حق وإعادتها للدولة، فكان أن تمكن خاير

ومفتشه وأعوانهما من الاستيلاء على عدد كبير من الممتلكات والأراضي، يقول ابن إياس في هذا الشأن: (وحصل للناس منه الضرر الشامل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم).

وفي نهاية عام ١٥٢١ أمر خاير بك بإعدام أعداد هائلة من العامة، يقول ابن إياس: (وفى هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس ما لا يحصى عددها بتوسيط وشنق وخوزقة، وأكثرها راح ظلما).

- بدائع الدهور: (وفي يوم السبت سادس عشر رسم ملك الأمراء بشنق عجمي فشنق على باب زويلة، وكان هذا التاجر في سعة من المال، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له جرم، فطمع ملك الأمراء في ماله، وزعم أنه جاسوس من عند شاه إسماعيل الصوفي بذلك فشنقه ظلماً واحتاط على جميع أمواله).

وفي سنة ١٥٢٢ وصل عسكر عثماني ليحلوا محل العسكر السابق الذي استدعي لاسطنبول، ولما دخلوا القاهرة اعتدوا على بيوتات أهلها وطردوهم وسكنوها بدلا عنهم، وكان معهم قاضي تركي عينه السلطان العثماني سليمان ليكون مسئولا عن كافة الأتراك الموجودين في مصر، ومسئولا عن عقود الزواج واستحصال رسومها، مما يعني استبعاد قضاة ومشايخ مصر عن هذا الأمر، يقول ابن إياس: (وملك الأمراء خاير بك يعينهم على ذلك الظلم، فأين المهرب؟ ورعاة الشاة تحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة هي الذئاب؟

ثم بعث السلطان العثماني سليمان قاضيا آخر، وعينه قاضيا للقضاة عن المذاهب الأربعة، وجعل أحكامه هي النافذة في مصر وأبطل مهام قضاة مصر إلا أن يكون عملهم متوافقا مع ما يقره القاضي التركي).

وعلاوة على ما ورد من السلطان العثماني سليمان من مراسيم تضيق على المصريين وتكبلهم، فإن واليه خاير بك كان يمارس هو ايته هو الآخر في التحكم برقاب الناس واستعبادهم، من ذلك إصداره مرسوم بمنع خروج النساء للأسواق عدا العجائز منهن، وحظر ركوبهن الحمير المستأجرة! وأن عقوبة المرأة المخالفة ستكون الضرب المبرح وربط شعرها بديل حصان يسير بها ذليلة مهانة في شوارع القاهرة وسط فرجة الناس!

ثم إن خاير بك عدل المرسوم بعد عدة أسابيع ليكون منع النساء من الخروج مطلقا من بيوتهن! وأن من يوصل امرأة على حماره يعرض نفسه للشنق!

لقد تحولت مصر في ظل حكم الأمير خاير بك إلى إقطاعية كبيرة له وللأتراك، وأصبح شعبها عبيدا مقهورين، وظل المصريون يعانون من طغيانه حتى أصابه مرض عضال، أقعده عن ممارسة طغيانه وجوره وجبروته، بل إنه في أيام مرضه أصبح من العباد الزهاد! فقد تصدق وأعتق كل مماليكه وإمائه، وأمر بدفع صدقات خاصة للأيتام لكي يدعوا له بالشفاء، ودفع مبلغا كبيرا للمحتسب لكي ينفقها على مجاوري الأزهر ومقامات الأولياء، ثم أمر بإطلاق سراح السجناء عدا القتلة والسراق، يقول ابن إياس: (ولم يروا الناس في أيام ملك الأمراء -خاير بك- أحسن من هذه الأيام، فإنه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين، ولم يعرف الله إلا وهو تحت الحمل، فلم يفده من ذلك كله شيء).

توفي عن ستين عاما، يقول ابن زنبل الرمال في *آخر المماليك*:

(يمر عليها الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وإياهم، فلم يلتفت إليه منهم أحد، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة، مع أنها تربة مليحة المنظر، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لأنه كان سبباً في هلاك ألوف مؤلفة من الجراكسة والأروام والعرب وغيرهم).

****

بسبب خيانة خاير بك تمكن الأتراك من ضم الشام ومصر إلى ملكهم، وكانت خيانته سببا من أسباب انهيار دولة المماليك البرية، حتى سماه العامة بخائن بك!، وقد حكم مصر نيابة عن آل عثمان بالعسف والتجبر والتضييق على عباد الله في شئونهم كافة، وستظل سيرته المشوبة بسفك الدماء في ذاكرة الأجيال المصرية والعربية على مدى الدهر.

صاحب المواهب
المهدي محمد بن أحمد بن الحسن (١٦٣٧ـ ١٧١٨).

أحد أئمة وملوك الدولة الزيدية من عام ١٦٨٦ إلى ١٧١٧، عندما بلغ أشده ولاه والده على الحجرية، فعصاه بعد حين، فأرسل له جيشا بقيادة شقيقه علي بن أحمد لتأديبه، ولكنه لم يتمكن من اقتحام القلعة التي كان متحصنا بها فرجع عنه، وتركه والده غاضبا عليه حتى وفاته.

لما توفي الإمام أحمد بن الحسن تولى الإمامة بعده المؤيد بن المتوكل إسماعيل، الذي أبقى صاحب المواهب واليا على الحجرية، ولما انقضى أجله خرج صاحب المواهب داعيا لنفسه بالإمامة، فتعارك مع إخوته وأبناء عمومته عليها، فكان الانتصار في نهاية سنوات الحرب من نصيب صاحب المواهب، فأصبح الإمام وخضع عامة الناس إليه وأوكلت الأمور لتدبيره، فانتقل من الحجرية إلى ذمار، ثم إلى رداع، ثم انتقل إلى قرية المواهب بالقرب من ذمار، فعمرها و اتخذها عاصمة لملكه، فصارلقبه منها.

وقد عرف صاحب المواهب هذا بسفك الدماء والقسوة البالغة والظلم المريع، وله في أسفار المؤرخين قصص تروى وحكايات تنقل، منها قتله للفقيه زيد بن علي بن محمد الجملولي، الذي كان مهتما بالتنجيم وأعمال السحر والاتصال بالعوالم الجنية، وذلك في عام ١٦٨٧ عندما كان متخذا لدمار عاصمة لملكه، ودعاه لزيارته، فلبى دعوته بعد أن اختار أفضل الأوقات للقائه، إلا أن صاحب المواهب أمر بضرب عنقه فور دخوله مجلسه، ويقول المؤرخون: إنه قتله لخوفه من أن يسحره أو يسلط عليه الشياطين، ويقول آخرون: إنه الجمولي كان له يد في مقتل أحد أمراء الزيدية.

ومنها أنه أراد هدم المدرسة العامرية، وهي من تحف اليمن العظيمة، بناها بعض حكام الشافعية من الطاهريين، وسبب نيته هدمها اعتقاد منه أنها من أعمال كفار التأويل من الشو افع، إلا أنه عدل عن هدمها بعد نصائح ووساطات، إلا أنه هدم شرفاتها بر منة بيمين قطعه بهدمها.

وبسبب إيغاله في القتل والظلم هاجر من بلاد اليمن الكثير من أمراء الأسرة الزيدية الحاكمة، وأهل العلم والأدب، منهم الشاعر اليمني أحمد بن أحمد الآنسي، الذي لجأ إلى حاكم مكة والحجاز الأمير أحمد بن غالب،الذي مدحه في قصيدة يحثه فيها على غزو اليمن وإسقاط حكم صاحب المواهب، منها هذه الأبيات:

فانهض إلى اليمن الميمون قد عبثت* به الأراذل أهل البغي والعطب
ومنهم من دعا للحق محتسبا* بزعمه وهو أطغى من أبي لهب
تبت يداه و أيد بايعته على* ما يدعي أنها حمالة الحطب

وما يرويه المؤرخون عنه فرضه للضرائب المجحفة بحق الناس، وإعراضه عن كل نصح وإرشاد، وعن شخصه قالوا بأنه كان متقشفا يلبس الخشن من الثياب، و أنه كان يقتل بأمر من شياطين الجن وفسقتهم.

أما زمنه فقد شهد أزمات كثيرة وعانى من كثرة من خرج عليه من كل حدب وصوب، إلا أنه تمكن من معظمهم ما عدا بعض الجيوب في بعض المناطق.

قال عنه الشوكاني في *البدر الطالع* (ج ٢): (والحاصل أنه ملك من أكابر الملوك، كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير، وينفقه بلا تقدير، وكان سفاكا للدماء بمجرد الظنون والشكوك، وقد قتل عالما بسبب ذلك).

وقال عنه الإمام محمد بن إسماعيل الأمير شعرا جاء فيه:

إن المواهب قد شاهدت صاحبها* وكان في جوده كالعارض الهتن
سفاك كل دم عاداه صاحبه * مفرق منه بين الرأس والبدن
هناك كل حمى إن لم يطاوعه*كم من معاقل أخلاها ومن مدن
وحين أدبرت الأقدار عنه أتت * له المقادير بالآفات والمحن
وعاد أعوانه عونا عليه، ولم * ينفعه أهل ولا مال مع المنن
وضاق عيشا وقد ضاق الفضاء بما * كان يحويه من خيل ومن خدن

ومن أبشع ما جناه قتله لولده إرهابا لعسكره! حيث قال: (والله ما فرطت في ابني إلا ليعلم الناس أني لا أعرف إلا القتل ولا أتوقف فيه بحال (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي العشر للمحبي الحموي – ج ٤).

قال عنه الزركلي في الأعلام (ج ٦): (وقتل عالما من الناس سفك دمائهم بمجرد الظنون والشكوك).

ويروى أن الفقيه المكي صالح المقبلي بعث له ينهاه عن ظلمه وموبقاته، ولكنه لم يرتدع.

وفي إحدى سني حكمه ألف صاحب المواهب كتاب أسماه *الشمس المنيرة* نقده الشوكاني في ترجمة سيرته قائلا: (وقفت عليه، وفيه نقل مسائل من مؤلفات جد أبيه القاسم بن محمد، ولكنها غير مرتبة، ولا منقولة على أسلوب، بل لا يدري المطلع على ذلك الكتاب ما موضوعه، ولا ما غرض مؤلفه، وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء، ومع هذا فكان يقرؤه عليه جملة من أكابر العلماء، وليس في وسعهم نصحه وتعريفه بالحقيقة لما جبل عليه من الطيش وتعجيل العقوبة).

****

في أواخر عهده كثر من خرج عليه جراء تسلطه وعدوانه، وبلغ ذلك مبغا لم يستطع تحمله، وجاءته الضربة القاضية بخروج المنصور الحسين عليه في عام ١٧١٤ فاستجابت لدعوته أكثر بلادين اليمن، فغدا صاحب المواهب معزولا، فجهز له المنصور جيشا بقيادة القاسم ابن أخيه، فحاصره في المواهب، بينما انشغل أمراء الزيدية بالصراع فيما بينهم على الملك بعد أن أصبح صاحب المواهب معزولا لا يقدر على شيء، وظل تحت الحصار حتى مات مقهورا محسورا عام ١٧١٨.

أحمد باشا الجزار (١٧٣٤- ١٨٠٤).

والي العثمانيين على الشام لثلاثين عاما، ولد لأسرة مسيحية أصولها من البوسنة والهرسك، في مطلع شبابه هرب إلى القسطنطينية (اسطنبول) بعد أن ارتكب جريمة قتل، فأمسك به تجار الرقيق وأصبح عبدا بيع من سيد لآخر حتى باعه تاجر رقيق على الباب العالي، و أثناء خدمته اعتنق الإسلام فأعتق، فتوجه إلى القاهرة والتحق بخدمة أحد وجهاء البحيرة (مدينة تقع شمال مصر) وتزوج من امرأة مصرية من أصول حبشية و أنجب منها ولدين.

في إحدى رحلاته مع سيده تعرضت القافلة لنهب قطاع طرق من إحدى القبائل فقتل السيد وسرقت القافلة، فأقسم أحمد أن ينتقم منهم، فأخذ يشن غارات متتالية ضد القبيلة المعتدية، فقتل منها سبعين فردا، بينهم عدة شيوخ وقادة أشداء، ومن هذه تلك الو اقعة أطلق عليه لقب "الجزار".

إلا أن القبيلة المفجوعة بأبنائها القتلى انتقمت من أحمد بقتلها لزوجته وأحد ابنيه، بينما تمكن من الهرب بولده الثاني.

التحق أحمد باشا بعد هروبه بالعمل عند "علي بيك الكبير" والي مصر، وكما يقول المؤرخون فإن أول عمل كسب به ولاء سيده الجديد هو جزه رؤوس أربعة من شيوخ البدو كان علي بك يكرههم بشدة، فاستخدمه كقاتل محترف للتخلص من منافسيه ومعارضيه ومنحه لقب بك.

إلا أن أحمد باشا الجزار لم يهنأ كثيرا في نعيم حاكم مصر، حيث انقلب عليه محمد بك أبو الذهب العسكري وتمكن من الإمساك بزمام السلطة في مصر، ففر الجزار إلى جبل لبنان والتحق بخدمة الأمير يوسف الشهابي، زعيم الدروز وحاكم ساحل لبنان ومديني حمص وحلب ونواحيهما، فكلفه بحفظ بيروت، فبنى الجزار حولها سورا قويا من الحجارة الأثرية التي خلفها زلزال حدث في عام ٥١١ هـ، إلا أنه طمع في بيروت، فاستقل بها وخان الأمير الشهابي، ولكنه تمكن من استعادتها، ففر الجزار بأمواله و أتباعه وعبيده و اتجه نحو القسطنطينية، حيث الباب العالي، الذي كان أول أمره، فأذن له السلطان العثماني أن يعود للعمل في خدمته دولة الخلافة وكلفه بولاية صيدا ومنحه لقب باشا.

ثم إن الجزار أخذ يستولي على حكم أجزاء من بلاد الشام حتى أصبح حاكمها الفعلي تحت سيادة العثمانيين، الذين تغاظوا عنه ما دام معلنا الولاء لهم ودافعا حق خزينة الدولة كل عام، لا سيما بعد أن صد حملة نابليون على بلاد الشام عام ١٧٩٩، حيث اكتسب شهرة كبيرة ومكانة رفيعة وقوة سياسية وعسكرية لا يستهان بها.

وظل الجزار يحكم معظم بلاد الشام لثلاثين عاما بلا منافس أو منازع، حتى ارتأى الباب العلي أن يوليه مصر أيضا، فأصدر مرسوما بتعيينه حاكما على مصر، ولكن كان الجزار قد و افته المنية في ٢٣ إبريل من عام ١٨٠٤.

وتحفل سيرة أحمد باشا الجزار بسجلات من الطغيان والقمع وسفك الدماء أثناء حكمه لبلاد الشام، نورد شيئا منها من خلال أسفار بعض المؤرخين، وذلك فيما يلي:

- الجبرتي في تاريخه: (هو الوزير الكبير، والدستور الشهير، أحمد باشا، المعروف بالجزار، البشناقي الأصل، حضر إلى مصر في خدمة علي باشا حكيم أوغلي أيام ولايته الثانية سنة ١٧١١ هـ (١٧٥٧م)، واستأذن مخدومه إلى الحج، فأذن له. ولما رجع وجده قد انفصل عن ولاية مصر، وسافر إلى الديار الرومية، فاستمر المترجَم بمصر، وتزيى بزي المصريين، وخدم علي بيك (بلوط قبان)، وتعلم الفروسية على طريقة الأجناد المصرية، وقلده المذكور ولاية البحيرة، وأرسله بتجريدة إلى عربانها، فذهب إليهم، واحتال عليهم، وجمعهم في مكان، وقتلهم -وهم سبعون كبيراً- وبذلك سمي الجزار. ورجع فأحبه علي بيك لنجابته وشجاعته، وتنقل عنده في الخدم والمناصب، ثم قلده السنجقية، وصار من جملة أمرائه، ثم كان ما كان بينه وبين مخدومه.. فتنكر وخرج هارباً في صورة شخص جزائري، وسار إلى الإسكندرية فالروم، ثم رجع إلى البحيرة، وتزوج هناك. ثم سار إلى بلاد الشام فاستمر فيها بين محاربات وتنقلات، واشترى مماليك، واجتمع لديه عصبة، واشتهر أمره في تلك النواحي.

ولم يزل على ذلك إلى أن مات الظاهر عمر في سنة ١١٨٩ م - ١٧٧٥ م، ووصل حسن باشا الجزائري إلى عكا، فطلب من يكون كفؤاً للإقامة بحصنها؛ فذكروا له المترجَم، فاستدعاه وقلده الوزارة، وأعطاه الأطواخ والبيرق، فأقام بحصن عكا، وعمّر أسوارها وقلاعها، وأنشأ بها البستان والمسجد، واتخذ له جنداً كثيفاً واستكثر من شراء المماليك، وأغار على تلك النواحي، وحارب جبل الدروز مراراً، وغنم منهم أموالاً عظيمة، ودخلوا في

طاعته، وضرب عليهم وعلى غيرهم الضرائب، وجبيت إليه الأموال من كل جهة حتى ملأ الخزائن وكنز الكنوز، وصار يصانع أهل الدولة ورجال السلطنة، ويتابع إرسال الهدايا والأموال إليهم، فقلدوه ولاية الشام، وولى على البلاد نواباً وحكاماً من طرفه وطلع بالحج الشامي مراراً، وأخاف النواحي، وعاقب على الذنب الصغير بالقتل والحبس والتمثيل، وقطع الآناف والآذان والأطراف، ولم يغفر زلة عالم لعلمه، أو ذي جاه لجاهه، وسلب النعم عن كثير من ذويها واستأصل أموالهم، ومات في سجنه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم، ومنهم من أطال حبسه سنين حتى مات، وكاد البلاد وقهر العباد، ونصبت الدولة فخاخاً لصيده، فلم يتمكنوا من ذلك، ولم يسعهم إلا مسالمته ومسايرته، وثبت قدمه، وطار صيته في جميع الممالك والثغور، وراسله ملوك النواحي، وراسلهم وهادوه وهابوه، وبنى عدة صهاريج، وملأها بالزيوت والسمن والعسل والشيرج والأرز و أنواع الغلة، وزرع في بستانه أصناف الفواكه، وبالجملة فقد كان المترجَم من غرائب الدهر، وأخباره لا يفي القلم بتسطيرها، ولا يسعف الفكر بتذكارها، ولو لم يكن له من المناقب سوى استظهاره على الفرنساوية وثباته في محاربتهم أكثر من شهرين لكفاه ذلك! وكان يقول أنا المنتظر، و أنا أحمد المذكور في الجفور، ولم يزل على حاله حتى توفي على فراشه، وذلك في أواخر سنة تسع عشرة ومائتين وألف).

- ويقول صاحب العذاب: قرات في كتاب لا يحضرني اسمه لوزير مغربي لقي الجزار في مكة وجالسه وتحدث إليه وتناول الطعام معه، فذكر أن الجزار كان لا يثق بأحد من الناس حتى أنه كان يحضر طعامه بيده إذ لا يطمئن لأتباعه، و أنه أراه كراسا يظهر عليه أثر القدم فيه رموز وإشارات فيها أوصاف الجزار و أنه صاحب الزمان!

وسألني عن رأيي فيما جاء في الكراس فصدقته وأخبرته بأن ما جاء في الكراس مخاريق يصنعها بعض المحتالين لاصطياد الدراهم، وأن بإمكاني أن أصنع له كراسا مثل هذا الكراس وأكتب فيه ما أريد ثم أعالجه حتى تظهر عليه دلائل القدم فلما سمع ذلك مني بانت عليه علائم الانكسار).

- ترجمه محمود أفندي الحمزاوي في مجموعة له فقال ما مختصره: صار المترجَم والياً بدمشق أربع مرات: الأولى سنة ١١٩٨ هـ - ١٧٨٤م وبقي سنتين، ثم عزل وتولى ثانياً سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠ م واستقام خمس سنوات على حال غير مستقيم من قتل وسلب وأجرام عظيمة، ثم عزل وتولى ثالثاً سنة ١٣١٣ هـ - ١٧٩٩ م وكانت العساكر الفرنساوية مستولية على مصر، فوردت الأخبار بأنهم توجهوا إلى السواحل وأخذوا يافا وغزة، والجزار إذ ذاك في عكا، فعقد الرؤساء والوجوه في دمشق مجلساً قرروا فيه جمع العساكر وإرسالها معونة لأهل السواحل، وكان إذ ذاك غلاء عظيم، فجعلوا كلف الذخائر على تجار الصابون خاصة، فبلغ المجموع من ذلك مقدار مائة وخمسين ألف قرش، وفي اليوم الثالث توجهت العساكر من دمشق، وقدرها أربعة آلاف، وذلك في ٢٠ شوال من السنة المذكورة، ثم لحقت بهم التيمارلية وبعض الغربية، وانقسم الجميع إلى فرقتين: فرقة توجهت إلى جهة صفد؛ وفرقة توجهت إلى السكة نحو الجسر، فقصدتهم أناس من العساكر الإفرنسية، ففروا بعد أن قتل عدة منهم، وعادوا إلى دمشق، وصارت العسكر الشمالية ترد على دمشق من جميع الأقطار، حتى غلت الأسعار، وكثر الجور والفساد، وخربت القرى من سوء إدارة الرؤساء.

ثم وردت الأخبار بأن الجزار محصور، وما زالت الأخبار تتجدد كل يوم بما وقع، والعساكر ترد على الشام، والمفاسد على ساق، إلى أن ورد كتاب من قبل الجزار بأن الإفرنسيين جلوا عن عكا، كما وردت الأخبار بأن مصر

استُرجِعَت منهم قهراً، وفي ٢٦ ربيع الأول سنة ١٤١٢ هـ (١٧٩٩/٨/٢٧) وصل يوسف باشا الصدر الأعظم إلى دمشق، فاستقصى أصحاب المفاسد، وأعدمهم الحياة وسعَّر الغلال وغيرها، ومهد الأمور، وفي أثناء ذلك ورد معروض من الجزار إلى الصدر المشار إليه يشعر باستقالته من ولاية دمشق، فقبل استقالته، ثم إن الجزار تولى دمشق رابعاً سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣م) وهو في عكا، فأرسل إلى دمشق تعريفاً بذلك صحبة المفتي أسعد أفندي المحاسني، وبعد تلاوته أخرجت الأوامر الصادرة منه، فإذا أحدها بتعيين قائم المقام فجرى إيجابه، وإذا أوامر أخرى بالقبض على عبد الرحمن أفندي المرادي (المفتي السابق) وجملة من الرؤساء والوجوه، فسجنوا في القلعة، وفي غيرها، وكتب للجزار بذلك، فحضر الجواب بعد ليلتين بإعدامهم الحياة، فقتلوا عبد الرحمن أفندي والدفتردار حسن أفندي ليلاً، ثم قتلوا جملة ذوات معتبرين (ولعل منهم المفتي أسعد أفندي المقدم ذكره كما هو مشهور) وبادروا بسلب أموال الأهالي بدون حق، وحملوا التجار أغلب الأثقال، فقد كانوا يهددونهم بالضرب والتعذيب حتى يدفعوا المطلوب منهم، وعظم الأمر على أهالي الشام، إذ أرسل من عكا أشخاص من الأكراد لتنويع العذاب على الأهالي بالنار والكعاب يضعونها في مصادغ من يريدون تعذيبه وهي محمية ومربوطة بالسلاسل ، وأمثال ذلك كثير، واستمر الحال على ذلك إلى افتتاح محرم الحرام سنة تسع عشرة ومائتين وألف (١١/٤/ ١٨٠٤ م). وفيه وردت الأخبار بموت الجزار، فتوجهت الناس إلى القلعة، وأخرجوا الذين حبسوا من أجل المال، ثم تتبعوا أعوان الجزار فقتلوهم، وتفقدوا الأكراد الذين وكلوا بعذاب الناس، فعثروا عليهم في قرية (التل)فأحضروهم وعذبوهم بمثل الأنواع التي عذبوا بها الناس، ثم نتفوا لحاهم وقتلوهم شر قتلة.

- ترجمه الأستاذ البيطار في تاريخه بما خلاصته:

ولد المترجَم في بوسنة سنة١١٣٥ هـ (١٧٢٣م) ولما بلغ ١٦ عاماً ارتكب أمراً فظيعاً، فهرب إلى القسطنطينية، وقضى بها مدة وهو في ذل وفاقة، إلى أنباع نفسه في سوق النخاسة، وآل به الأمر إلى أن بيع في مصر، فدخل في سلك المماليك المصرية، وساعده الحظ على المرام والأمنية، حتى صار والي البحيرة، وهناك لقب بالجزار، وكان مجبولاً على الفظاظة والقسوة، مطبوعاً على الفسوق والآثام، سفاكاً للدماء يفعل ما يشاء، قد اتخذ هواه هادياً ونصيراً، وعتا في نفسه عتواً كبيراً، ثم ساءت سيرته في مصر فهرب إلى سورية، ودخل دير القمر سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١م) ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي والي جبل لبنان حينئذ، فرحب به الأمير وأكرمه، ثم أرسله إلى بيروت ورتب له بعض الرسوم، فأقام أياماً ثم أعرض عن ذلك، وسار إلى دمشق، وفي سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣م) جعله الأمير المذكور متسلماً من قبله على بيروت، وجعل معه طائفة من المغاربة، ولم تمض مدة حتى خان الأمير وعزم على مبارزته، فشرع في ترميم الأسوار وهيأ الميرة وآلات الحرب للحصار، ومنع أهل البلاد من دخول المدينة، ولم يدع شيئاً يخرج منها، فاستنجد الأمير يوسف بحسن باشا وهو قاصد القسطنطينية، فعاد وأخرج الجزار من بيروت، فسار هذا بعسكره براً إلى صيدا وعددهم ستمائة، فأرسل الأمير إليهم جماعة النَّكدِيّة، ولما التقى العسكران قتل أصحاب الجزار أكثر النكدية، وقبضوا على أعيانهم، ثم سار الجزار إلى صيدا، فبعلبك، وعظم أمره في تلك الأقطار، ووقع الصلح بينه وبين الأمير المقدم ذكره.

ثم إن الجزار صاحب الترجمة خان الأمير ظاهر العمر بعد أن أنعم الأمير عليه بقيادة جيشه، فقتله بيده، ولما كان الأمير ظاهر عدواً للدولة العثمانية أنعمت الدولة على الجزار بولاية عكا وصيدا معاً، ثم منحته الوزارة وولاية

دمشق سنة ١٢١٨ هـ (١٨٣٠م) فزاد في طغيانه من قتل الأنفس وسلب الأموال، حتى قتل خلقاً كثيراً من أعيان دمشق،ومن أفضلهم عبد الرحمن المرادي مفتي دمشق، وأسعد أفندي المحاسني مفتيها أيضاً، واصطنع للناس أنواع العذاب بآلات اخترعها له طائفة من الأكراد عاونوه على ظلم العباد، و أقروه على دعواه بأنه مجدد الوقت، وكان رئيسهم يدَّعي التصوف، ويقول: إن الشيخ الأكبر أخبر عنه في فتوحاته! وقد ادعوا أن قتله الأنفس وسلبه الأموال ليس حراماً، بل هو حلال حتى أكفروا علماء عصرهم المنكرين عليهم.

وكان من أعوان الجزار أيضاً رجل اسمه عبد الوهاب له اطلاع في بعض العلوم، أرسله إلى دمشق على رأس طائفة من العساكر، وكان إليه المشورة في أمورهم، فصار يتغالى في قباحته وإساءته ويتلذذ بقتل الرجال وسلب الأموال، حتى كادت تخافه الأطفال، ومازال هذا الضال يتغالى في ظلمه حتى تحركت الدولة الفرنساوية ، لدخول البلاد، فحاصرت عكا سنة ١٤١٢ هـ (١٧٩٩م) ثم قدمت مراكب إنكليزية إلى عكا لرد الفرنساويين، فلم تمض مدة حتى رجع بونابرت بعساكره، فصفا الوقت للجزار، فعاد لظلم الناس؛ بتعذيبهم بالقتل والقطع والسحل والجدع، إلى غير ذلك من الأفعال الفظيعة والأحوال الشنيعة، حتى صار جوره مثلاً سائراً، ولم يزل على حاله حتى هلك - قبحه الله- سنة ١٢١٩ هـ (١٨٠٤م) في عكا ودفن بها في الجامع المنسوب إليه، وعادت دمشق إيالة على حدة سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م) ور أيت للعلامة السيد محمد أمين عابدين بيتين يؤرخ بهما وفاة صاحب الترجمة وهما قوله:

هَلَكَ الجَّزارُ ولا عَجَبٌ... وَمَضَى بالخزْيِ وَبالإِثْمِ
وبمهلِكِهِ الباري عنا... -أَرّخ قَدْ كَفَّ يَدَ الظُلْمِ..

- قال عنه صاحب خطط الشام (ج ٣):

كان الجزار يقتل الصغير والكبير من وزراء وعلماء و افندية واغاوات، وكان إذا عامل أحد المغضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم أنفه ثم يصلم أذنه اليمنى ثم يقلع عينه اليمنى.

- ومن ترجمة مجهولة المصدر: ولد في إحدى قرى البوسنة وترعرع فيها فتى شرس الأخلاق سيئ السلوك ويروى أنه ارتكب جرماً أخلاقياً مما اضطره إلى الفرار من وجه ذويه طريداً شريداً حتى عاصمة السلطنة العثمانية (الأستانة) حيث عمل حمالاً في الميناء ثم عاملاً في الزوارق، ملاقياً أسوأ معاملة إلى أن باع نفسه أخيراً إلى نخاس يهودي صادف مروره في إحدى الموانئ فضمه إلى ما كان قد ابتاعه من الأولاد وتوجه بالجميع إلى القاهرة حيث كانت سوق الرقيق رائجة وحكام مصر كلهم من المماليك. وهناك باعهم إلى تاجر آخر أسلم الجزار على يده وتسمى (أحمد) وكان قد أصبح شاباً وقد مكنته شجاعته الفائقة من الدخول في خدمة علي بك الكبير حاكم مصر وأعظم مماليكها شأناً. فنال رتبة (البكوية) ولشدة بطشه وفتكه ببدو إقليم (البحيرة) الذين أيّدوا أحد خصوم علي بك أطلق عليه (الجزار) فأصبح يدعى (أحمد بك الجزار). إلا أنه عندما رفض أمراً بقتل أحد المماليك - وكان له صديقاً وتأكد من غضب علي بك عليه وعزمه على إعدامه، فر من منزله متوجهاً إلى الأستانة يعرض خدماته على الباب العالي وكان ذلك عام ١٧٧١م وسنه آنذاك يقارب الأربعين، إلا أن آماله خابت فولى وجهه شطر سورية ونزل في ضيافة الأمير يوسف الشهابي في دير القمر- وكانت شهرة بطشه وجبروته قد سبقته، فحمله هذا الأمير كتاب توصية إلى عثمان باشا والي دمشق من قبل الباب العالي، فجعله هذا الأخير قائداً لمفرزة من أربعين رجلاً وسلمه ميناء بيروت فرمم أسوراها بهمة ونشاط فائقين وبنى فيها أبراجاً عدة

حتى منحه الأمير يوسف الشهابي لقب (قائد أعلى). ولكن الجزار أبحر بجنوده إلى صيدا ثم إلى صور ثم إلى منطقة نابلس لينضم إلى جيش ظاهر العمر ليسانده في محاربة العصاة وإخضاعهم، إلا أنه كعادته غدر بظاهر، كما غدر سابقاً بسيده القديم يوسف. وتوجه إلى دمشق منضماً لجيوش الدولة العثمانية، ومجدداً بذلك ولاءه للباب العالي. عاش الجزار بعد انتصاره الهائل على نابليون خمس سنوات حاكماً مطلقاً لا يكدر صفوه أمر وكانت وفاته عام ١٢١٩هـ ١٨٠٤م فتبارى الشعراء في ذمه وتعداد مظالمه مؤرخين ذلك.

سير متفرقة من هنا وهناك.

- جاء في موسوعة العذاب (ج ٢ نقلا عن *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي*)في ترجمة الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل يحيى ملك اليمن: (كان ظالما قتل إخوته و أقاربه، وقتل عمته أخت أبيه وقتل بيده امرأة أخرى لاتهامه إياها بمصاحبتها، وقطع يد امرأة أخرى تضرب بالرمل، كل ذلك لتخوفه أنهم يسعون في تمليك غيره)العذاب عن الضوء اللامع ٣٠٨/٢.

- يحيى بن محمد العباسي، شقيق الخليفتين السفاح والمنصور، تولى الموصل في أيام السفاح، واشبعهم بالسيف وسفك الدماء، ولما بلغ السفاح ما كان منه عزله ولم يقلده أمرا حتى مات عام ١٣٥هـ.

العذاب عن الكامل في التاريخ (ج ٥): (كان قد دعا في يوم من الأيام اثنا عشر رجلا إلى وليمة، فقتلهم، فنفر أهل الموصل وحملوا السلاح فأعطاهم الأمان وأمر فنودي من دخل الجامع فهو آمن، فامتلأ الجامع، فأقام يحيى جنوده على أبواب الجامع، وأمرهم فقتلوا الناس قتلا ذريعا وأسرفوا فيه، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل أزواجهن، فأمر جنوده بقتل النساء والأطفال، فقتلوا جماعة، وكان في جيشه أربعة آلاف زنجي، تعرضوا للنساء، وركب يحيى فاعترضته امرأة، فقالت له: ألست من بني هاشم؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنج؟ فأثر كلامها فيه، ولما كان الغد جمع الزنج للعطاء فلما اجتمعوا أمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وكان يحيى فدما، ناقص العقل، متخلفا في جميع أموره، وأضاف إلى هذه المذبحة أنه دخلت به بغلته إلى الجامع يوم الجمعة وعليه سواده وشاشيته وفي عنقه طبل، وكانت عاقبته أن صرفه السفاح ولم يستعن به في مستقبل أيامه).

ما جاء في سيرة سلطان بغداد أحمد بن أويس (العذاب ج ٥):

(وفي سنة ٨٠١ هـ أرسل تيمورلنك إلى السلطان أحمد بن أويس في بغداد أحد قواده واسمه شروان، فتظاهر بأنه قد فر من تيمور، لاجئا إلى السلطان أحمد، فأكرمه و أقطعه ثم عثر أحد خدم السلطان على ورقة بخطر شروان، بالمبالغ التي وهبها إلى قواد السلطان أحمد، ليحوزهم إلى جانبه، فقدم الخادم الورقة إلى السلطان أحمد، وكان من جملة الأسماء المدونة في تلك الورقة، اسم الخادم التي قدمها للسلطان، ومقدار ما أخذه من شروان، فقتل السلطان ذلك الخادم بيده، ثم أمر بعض القواد بقتل شروان، فقتلوه، ثم قتل جميع القواد الذي وردت أسماؤهم في تلك الورقة، وذلك بأن يقول للقائد اذهب فاقتل القائد الفلاني ولك بيته وماله، فيقتله ويستولي على جميع ما يعود له ثم يرسل من يقتل ذلك القائد، وهكذا قتل القواد واحدا بعد الآخر، حتى قتل في أسبوع واحد أكثر من ألفي نفس من أمر ائه و أقاربه ومقربينه، حتى إنه قتل عمته وكانت بمثابة أمه وهي التي ربته منذ نعومة أظافره، كما قتل أكثر حريمه وخدمه الذين كانوا عنده، قتلهم بيده وألقاهم في دجلة).

سير أعلام النبلاء (ج ٣):

ينقل عن والي حلب جلال الدين الحلي أنه إذا أراد النزول إلى السوق أمر فزينت له الأسواق نهارا، فنزل ومعه البلطجية والعساكر عن يمنيه وشماله، فيدور في الأسواق، ومتى أدار الوالي نظره إلى رجل فإن البلطجية يأتون فيضربون رقبة صاحب ذلك الحانوت، يفعل ذلك بثلاثة أو أربعة أشخاص، ثم يعود، وتكرر منه هذا الفعل، فسأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وعن ذنبهم؟ فقال: إنهم لا ذنب لهم، غير أني أريد إرهاب الناس).

- أسفار ابن شيرويه الديلمي: قد ملك الري وطبرستان وجرجان وقزوين وأبهر وقم والكرج (في زمن الخليفة المقتدر بالله)وعظمت جيوشه فطغى وتجبر وقرر أن يجعل لنفسه تاجا وأن ينصب لنفسه بالري سريرا من ذهب.

بطش بأهل قزوين وأخذ أموالهم وعذبهم وقتل كثيرا منهم وعسفهم عسفا شديدا حتى إنه سمع المؤمن يؤذن فأمر به فألقي من أعلى المنارة إلى الأرض، فاستغاث الناس من شره وظلمه وخرج أهل قزوين بأجمعهم إلى الصحراء رجالا ونساء وولدان يتضرعون إلى الله ويدعون عليه ويسألون الله كشف ما بهم فبلغه ذلك فضحك منهم وشتمهم.

جاء في *نهاية الأرب في فنون الأدب* لشهاب الدين النويري:

(وعظم أمر أسفار، وزاد تجبره، وقصد قزوين بما في من أهلها، فأوقع بهم، وأخذ أوالهم، وقتل كثيرا منهم، وسلط الديلم عليهم، وسمع المؤذن يؤذن، فأمر بإلقائه من المنارة إلى الأرض، فاستغاث الناس من شره وظلمه. وخرج أهل قزوين إلى الصحراء: والرجال، والنساء، والولدان يتضرعون إلى الله تعالى، ويدعون عليه، ويسألون الله تعالى كشف ما بهم، فبلغه ذلك، فضحك وسبهم استهزاء بهم، فقابله الله تعالى في الغد من نهار الدعاء عليه بما سنذكره).

بعض المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- دولة الموحدين (د. علي محمد الصلابي).
٣- مجلة (دراسات إير انية) العدد رقم (١٣).
٤- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (ابن بطوطة).
٥- المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ابن عذاري).
٦- أبو عبد الله الشيعي (د. علي حسن الخربوطلي).
٧- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (محمد عبد الله عنان).
٨- تاريخ الدولة الصفوية (د. محمد سهيل طقوس).
٩- ضياء الخافقين (السيد جمال الدين الأفغاني).
١٠- الدولة العثمانية (د.حسن الضيقة).
١١- أخبار المهدي بن تومرت (أبي بكر بن محمد الصنهاجي).
١٢- المهدي بن تومرت (د.عبد المجيد النجار).
١٣- سيرة احمد باشا الجزار(مؤلف مجهول).
١٤- كنت ابن للرئيس صدام (د. لطيف يحيى).
١٥- المسيحية والسيف (المطران برتولومي لاس كازاس).
١٦- المغول في التاريخ (د. فؤاد عبد المعطي الصياد).
١٧- قيم الحرية والتعددية في الشرق العربي (رائد قاسم).
١٨- تاريخ الطبري (محمد بن جرير الطبري).
١٩- البداية والنهاية (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير).
٢٠- الكامل في التاريخ (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير).

٢١- قصة الحضارة (ويل ديور انت وأريل ديور انت).

٢٢- تاريخ سلاطين بني عثمان (عزتلو يوسف بك آصاف).

٢٣- ويكيبيا (موسوعة على الانترنت).

٢٤- المعرفة (موسوعة على الانترنت).

٢٥- تاريخ إيران السياسي (د. آمال السّبكي).

٢٦- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (عبد الرحمن الكواكبي).

المحتويات

تمهيد 5

الرحلة الأولى
سياحة في سيرة بعض طغاة التاريخ القديم

تيبيريوس ٤٩
كاليجولا ٥٥
نيرون ٦٥
النمرود ٧١
فرعون ٧٥
خشيارشاي الاول ٨٣
استياجس ملك ميديا ٨٧
الطاغية بريندر ٨٩
سولا السعيد ٩١
ديونيسيوس ٩٧
الملك عمليق ١٠١
كليب بن ربيعة ١٠٧

الرحلة الثانية
سياحة في سيرة بعض طغاة العصور الوسطى

مجازر الطغاة الصليبيين في القدس	١١٣
فريدريك الثاني	١١٧
الامبراطور شارل ونهب روما	١٢١
بدرو الغشوم	١٢٩
محاكم التفتيش في عهد الملك الإسباني فرناندو الثاني	١٣١
الطغاة الإسبان ومجازر إبادة الهنود الحمر	١٤١
ماكسيليمان روبسبير	١٦١
كاترين الثانية	١٦٥
كاترين دي ميديشي... سيدة المذبحة	١٧١
(ايفان الرابع) الرهيب	١٧٩
جنكيز خان	١٨٧
هولاكو	١٩٥
الطاغية تيمورلنك	٢٠٥
الشاه إسماعيل الأول - مؤسس الدولة الصفوية	٢١٧
إسماعيل الثاني	٢٢٣
الشاه عباس الكبير	٢٢٧
الشاه صفي الصفوي	٢٣٥
مراد الرابع	٢٣٧
الملك نقفور الثاني	٢٣٩
إسكندر الثاني (بابا المحرقة)	٢٤٥

الرحلة الثالثة
سياحة في سيرة بعض طغاة الشرق العربي

عبيد الله بن زياد ٢٥٧
مسلم بن عقبة ٢٦٥
الحجاج بن يوسف الثقفي ٢٧٣
عبد الملك بن مروان والوليد بن يزيد ٢٨١
نهاية حكم بني أمية وارتقاء آل العباس السلطة ٢٨٧
أبو العباس السفاح ٢٨٩
أبو مسلم الخراساني ٢٩٣
ابو جعفر المنصور ٢٩٧
هارون الرشيد ٣٠٥
المعتصم بالله والو اثق بالله ٣١١
المتوكل على الله ٣١٥
الحاكم بأمر الله الفاطمي ٣١٧
أبو طاهر القرمطي ٣٢٥
محمد بن تومرت ٣٣١
محمد تغلق شاه ٣٣٩
المعتضد بالله بن عباد ٣٥١
الاميرخايربك ٣٥٥
صاحب المواهب المهدي محمد بن أحمد بن الحسن ٣٦٣
أحمد باشا الجزار ٣٦٧
سير متفرقة من هنا وهناك ٣٧٧

موسوعة

طغـاة من التاريـخ

الجـزء الثانــي